Freedom of Simplicity *by* Richard Foster



حرِّيَّةُ البساطة

إيجادُ التناغُم في عالَمٍ معقَّد



ريتشارد فوستر

Freedom of Simplicity *by* Richard Foster



حرِّيَّةُ البساطة

إيجادُ التناغُم في عالَمٍ معقَّد



ريتشارد فوستر

حرِّيَّة البساطة

حرِّيَّة البساطة

إيجادُ التناغُم في عالَمٍ معقَّد

ريتشارد فوستر

ترجمة: د. أوسم وصفي



ophir

Originally published in the U.S.A. by HarperCollins, and HarperSanFrancisco under the title,

Freedom of Simplicity: Finding Harmony in a Complex World copyright© by Richard J. Foster, L.L.C., ٢٠٠٥.

حرِّيَّة البساطة

الطبعة العربية الأولى ٢٠٢٠م

أوفير للطباعة والنشر

ص.ب. ٣٠٦٢، عمَّان ١١١٨١، الأردن

هاتف: ٣٣٨١ ٤٦٣ ٦ ٩٦٢+

Email: info@ophir.com.jo

www.ophir.com.jo



رقم الإيداع: (٢٠٢٠/٣/١١٨٥)

ISBN ١-٢٧٤-٥٩٥٠-٩٠-٩٧٨

قائمة المحتويات

مقدِّمة

إنَّ بساطة الحياة حقيقةٌ من تلك الحقائق التي ننمو فيها على مدى فترات ممتدَّة من الوقت. فما الذي أعرفه عن هذه الحياة الآن، وبعد أن مرَّ خمس وعشرون سنة على نشر هذا الكتاب أوَّل مرَّة (باللغة الإنكليزيَّة)؟ إنَّني أعرف أقلَّ وأكثر. إنَّني أقلُّ يقينًا بشأن الكيفيَّة التي تعمل بها الأمور، وفي الوقت نفسه أصبحتُ أكثر دراية بشأن **المركز** الذي يُحرِّك الحياة برُمَّتها. عندما عَنوَنتُ الفَصلَ الأوَّلَ من هذا الكتاب بعنوان ''تعقيد البساطة''، كُنتُ أفهم الواقع فقط نظريًّا، لكنَّني الآن أعرفه بعُمقٍ أكثر من خبرة عِشتُها. إنَّ الحيرة والتعقيدات موجودةٌ بِوفرة، بل أكثر ممَّا كان بعد أن عِشتُ عشرين سنة أُخرى في صعوبات الحياة. وبصراحة، إنَّ التساؤل الداخليَّ ''ماذا أعرف؟'' كثيرًا ما أصبح على شفتيَّ هذه الأيَّام.

وبالرغم من ذلك، وبعد كلِّ هذه السنين، فإنَّ العنوان الذي أعطيته للخاتمة ''بساطة البساطة''، قد صار لي حقيقيًّا أكثر من أيِّ وقتٍ مضى. إنَّني الآن أرى...وأعرف...أنَّنا **نستطيع** أن نعيش مُنتَبِهين إلى صوت الراعي الحقيقيّ، وأنَّنا **نستطيع** أن نطلب أوَّلًا ملكوت الله وبِرَّهُ، كما **نستطيع** أن نسير بابتهاج على الأرض، **ونستطيع** أن نعيش ببساطة وبعُمق.

ريتشارد فوستر

١ تشرين الثاني/نوڤمبر، ٢٠٠٤م

مقدِّمة طبعة ١٩٨١م

لم أنجذب نحو كتابة هذا الكتاب بسهولة. إنَّني في واقع الأمر دُفِعتُ للقيام بهذا العمل بعد فترةٍ من المقاومة والتردُّد. ومع أنَّني في النهاية كتبته، رُبَّما يكون من الجدير أن أذكر أسباب تَرَدُّدي في كتابته.

أوَّلًا، كان تَرَدُّدي بسبب خِبرتي الشخصيَّة مع البساطة، أو عدم البساطة. هل أعرف ما يكفي من الحقائق عن عُمق البساطة لكي أكتُب بقدرٍ كافٍ من الصدق والأمانة؟ إلى أيِّ مدًى كنتُ مُتأصِّلًا في حياة السلام والسكينة والقوَّة؟ ثُمَّ كانت هناك أيضًا قضيَّة أسلوب الحياة. ما زلت، أنا وكارولين زوجتي، نُصارع بشأن القرارات التي نتَّخذها بشأن المال والممتلكات. ونحن لا نمتلك بعدُ، بأيَّة صورة من الصور، الجواب النهائيَّ بشأن ما نشتريه وما نستطيع الاستغناء عنه. وماذا عن الناحية الجماعيَّة للبساطة؟ كيف يُمكنني، بأيِّ قدرٍ من الكفاءة، أن أتحدَّث بشأن الأمور المُعَقَّدة المرتبطة بالاقتصاد وقضيَّة الجوع في العالم والتجارة الدوليَّة؟ لقد شَعرتُ، وما زلتُ أشعر، أنَّني مُبتدئ في الجوانب المُختلفة للبساطة.

ثانيًا، تردَّدتُ لأنَّني أعلم أنَّ البساطة المسيحيَّة أمرٌ شَديدُ التعقيد. يُمكن تفهُّم هذا الأمر، وإن كان فيه تناقُضٌ ظاهريّ. ففي الحياة عمومًا، من النادر أن تكون هناك إجاباتٌ سَهلةٌ عن الأمور المهمَّة. وإذ يجب علينا أن نفهم الشهادة الكتابيَّة عن البساطة، والتقليد الغنيَّ الذي لدينا عن معلِّمي العبادة والتكريس، يجب أيضًا أن نتفاعل مع الأمور المُعاصرة. وأكثر من ذلك، فإنَّ من الضروريِّ أن نفعِّلَ هذه الأمورَ في الواقع العمليِّ الذي نعيش فيه؛ إذ نعيشُ في عالمٍ من جَداول زمنيَّة يجب أن تُتَّبَع ومطالب ينبغي الوفاء بها. إنَّه عَالمٌ من الفَواتير والميزانيَّات. وليست هذه مُهمَّةً بسيطة.

ثالثًا، لقد كنتُ قلقًا بشأن مخاطر التَّزمُّت؛ فالبساطة هي أكثر ''التدريبات الروحيَّة'' ظهورًا على السطح، ومن ثَمَّ فإنَّها الأكثر عُرضة للفساد. كيف يُمكن أن أكونَ مُحَدَّدًا دون أن أكون جامدًا؟ وكيف يُمكنني أن أدعو الناس بصدقٍ إلى

التخلُّص من الطمع دون أن أروِّج نوعًا جديدًا من الفرِّيسيَّة؟

ثمَّة سببٌ رابع جعلني حذِرًا بشأن تأليف كتابٍ عن البساطة. وكان هذا السبب يُمثِّلُ قلقي الأكبر، وهو ما سأهتمُّ به في الفصل الأوَّل.

شكرٌ وعرفان

كان لايل سميثغرابيل (Lyle SmithGraybeal) الشخصيَّة المحوريَّة في إعادة كتابة هذه النسخة المُراجَعَة من كتاب ''**حرِّيَّة البساطة**'' (باللغة الإنكليزيَّة). لقد راجع المخطوطة بأكملها، ليُحدِّثَ الإحصائيَّات والرسوم التوضيحيَّة ويُصحِّح الأخطاء. ثُمَّ صاغ المُسَوَّدة الأولى للفصل العاشر ''البساطة الجماعيَّة: العالم'' الذي أُعيدَت كتابته بالكامل. وهُنا تجلَّى تدريبه في مجال الاقتصاد. لقد أعَدتُ صِياغَةَ الفصل وكتابته في النهاية (لذا فإنَّني المسؤول عن أيِّ تقصيرٍ فيه). وخُلاصَةُ القَول هي إنَّني أُريدُ أن أعترِفَ بالعَمَلِ العَظيم الذي أنجزه السيِّد سميثغرابيل في صياغة الأفكار الموجودة في الفصل العاشر.

شكرٌ وعرفان طبعة سنة ١٩٨١م

كُلُّ مَن يكتب يعرف أنَّ أُسرة الكاتب تتحمَّل العبء الأكبر والتضحية الأعظم المُتضمَّنة في نشر أيِّ كتاب. لقد تحمَّلتْ زوجتي كارولين بصبرٍ انشغالي المُبالغ فيه بقضيَّة البساطة طوال سنة كاملة. وفي أثناء الأشهر الأخيرة من الكتابة، تولَّت عنِّي كلَّ مسؤوليَّاتي في المنزل وكانت، حرفيًّا، هي الأب والأمَّ لولَدَينا. لذ فإنَّني أكنُّ لها خالص شُكري. كان جول (Joel) وناثان (Nathan) مهتمَّان جدًّا بتطوُّر الكتاب. وبصورةٍ ما، كانا دائمًا يبدوان مُتفهِّمَين عندما كانت مُباراة كرة القدم مع أبيهما تُختَصر لوقتٍ أقلّ. لكنَّنا عُدنا ولعبنا مباريات طويلة ومثيرة بعد أن اكتمل الكتاب، بالرغم من أنَّني كُنت أخسر كلَّ مباراة معهما.

إنَّ العلاقة بين الكاتب والمُحرِّر علاقة فريدة. روي أم. كارليسل (Roy M. Carlisle)، المُحرِّر الذي عمل معي من دار نشر هارپر آند رو (Harper and Row)كانت لديه قدرة استثنائيَّة أن يُرشدني دون سيطرة، ويشجِّعني دون إطراء مبالغ فيه، ويُصحِّحني دون أن يُحبطني. وفي مُناسباتٍ عِدَّة، فتَحَت ملاحظاته اللمَّاحة أمامي اتِّجاهًا إبداعيًّا جديدًا تمامًا في الكتاب، وإنَّني لأشكره على ذلك.

لقد نلتُ أيضًا امتياز حضور جلسة الاستشارات الدوليَّة عن الحياة البسيطة، والتي عُقِدَت في هوديسدون (Hoddesdon)، إنكلترا سنة ١٩٨٠م. وفي ذلك التجمُّع، ساعدني أصدقائي المسيحيُّون الكُثُر من كافَّة أنحاء العالم الذين قابلتُهُم لكي أرى التنوُّع اللامُتناهي للشهود الأمَناء عن حياة البساطة.

أيضًا أُعَبِّر عن تقديري العميق لدورثي كراڤن (Dorothy Craven)، الأستاذة الفخريَّة للغة الإنكليزيَّة في جامعة الأصدقاء (Friends University)، التي قرأت المخطوطة بأكملها وقدَّمت لي بعض الاقتراحات المفيدة. أشكر أيضًا المجموعة الأدبيَّة في جامعة الأصدقاء الذين أصغوا بينما كنتُ أقرأ غالبيَّة نصِّ هذا الكتاب وشجَّعوني بخصوص كتابته.

كما قرأ أشخاص كثيرون أجزاءً من المخطوطة وقدَّموا لي مقترحات قَيِّمة. ومن بينهم كينيث بولدينغ (Kenneth Boulding)، وهارولد فريسين (Harold Friesen)، وڤيرلين هينشو (Verlin Hinshaw)، وهاورد مايسي (Howard Macy)، وريموند نلسون (Raymond Nelson)، وتوم روزوف (Tom Rozof). وجزيل شكري أيضًا لليروي برايتَپ (Leroy Brightup)، وهارولد كوپ (Harold Cope)، اللذين شجَّعاني طوال هذا المشروع؛ ومارلين پيتس (Marilyn Pitts)، وواندا پاين (Wanda Payne) اللتين طبعتا الكتاب بالنسخة الإنكليزيَّة.

هؤلاءِ وكثيرون آخرون، أحاطوا حياتي وساعدوني في تشكيل هذا الكتاب. إنَّني مدينٌ لهم دَينًا كبيرًا. إنَّهم الصوت الحيُّ للكنيسة.

الجزء الأوَّل

الأساس

١

تعقيد البساطة

اسعَ في أثر البساطة ولا تثق بها.

ألفرِد نورث وايتهد (Alfred North Whitehead)

إنَّ الثقافة المُعاصرة مصابة بوباء شهوة الامتلاك، حيث يشعر الناس بأنَّ الحياة الجيِّدة يُمكن تحقيقها بتراكُم المُقتنيات، فيفتخرون بذلك فخرًا غير معقول رافعين شعار ''كُلَّما حصلنا على المزيد، كان ذلك أفضل''. إنَّنا في الواقع نقبل هذه الفكرة بلا تساؤل، فأصبحت النتيجة أنَّ شهوة الوفرة والغِنى والامتلاك وَصَلَت في المُجتمع المُعاصر إلى أبعادٍ جنونيَّة؛ أي أنَّها أفقدتنا الاتِّصال بالواقع تمامًا. بل إنَّ سُرعة إيقاع العالم الحديث تزيدُ من وطأة شعورنا بالانكسار والتشتُّت. لقد أصبحنا نشعر بالضَّغط، والعَجَلة والإلحاح، حتَّى إنَّنا لا نستطيع التقاط أنفاسنا. وكثيرًا ما يُهدِّد الاندفاع نحو الإنجاز وتراكُم المُقتنيات أكثر فأكثر بابتلاعنا تمامًا، ويبدو أنَّهُ لا مَهرَبَ مِن هذا السباق المَحموم.

إنَّ البساطة المسيحيَّة تُحَرِّرُنا من هذا الجُنون المُعاصر. إنَّها تُعيد الصواب لتبذيرنا القهريِّ، وتُعيد السلام لأرواحنا القلقة، كما تُحرِّرنا مِمَّا يُسمِّيه وليم پن (William Penn) ''الثِّقَل''، وتسمح لنا أن نرى الأشياء المادِّيَّة على حقيقتها: أشياء تُساعد في حياتنا لا لِتَتَسلَّط عليها وتقهرها. تعود البساطة المسيحيَّة بالبشر إلى أن يكونوا أهمَّ من المُمتَلَكات وليس العكس. كما أنَّها تُمَكِّنُنا أن نَعيشَ حَياةَ الاستقامة ونواجِهَ الحَقائق المفزعة في الحياة.

ليست البساطة المسيحيَّة مجرَّد محاولة عابرة للتجاوب مع الكارثة البيئيَّة التي تهدِّد بابتلاعنا جميعًا، وليست أيضًا وليدة الإحباط من الإفراط في التقنيات الحديثة. إنَّها دعوة مُوَجَّهة إلى كلِّ مسيحيّ. إنَّ الشهادة للبساطة مُتَأَصِّلة بعُمق في التقليد الكتابيِّ، وتتمثَّل بأكمل صورة في حياة يسوع المسيح. وبصورة أو بأُخرى، أكَّد كلُّ معلِّمي التكريس والروحانيَّة المسيحيَّة ضرورة البساطة، حيث إنَّها تنبع بطريقة طبيعيَّة وجوهريَّة من حقيقة الأخبار السارَّة للإنجيل، إذا كانت هذه الأخبار قد تأصَّلت بصورةٍ حقيقيَّة في حياتنا.

ومع أنَّه من المُهمِّ التشديد على أنَّ البساطة المسيحيَّة هي أكثر من مُجرَّد ردِّ فعلٍ على الأزمة المُعاصرة، فيجب علينا أيضًا أن نفهم أنَّ البساطة على علاقة وثيقة بمشكلات العالم. إنَّنا نشهد فقرًا وجوعًا على مستوًى غير مسبوق في التاريخ البشريّ؛ إذ حين نأوي إلى فراشنا كلَّ ليلة يكونُ قد مات عشرةُ آلافِ إنسانٍ من الجوع* في العالم– بمُعَدَّلٍ يَزيدُ على أربع مئة إنسان كلَّ ساعة. وأكثر من هذا، يعيش الملايين غيرهم على حافة الفناء، إذ يعانون سوء التغذية واليأس وغياب الهدف من الحياة. إنَّه لمن الصعب أن نتلامس مع حقيقة هذه الإحصائيَّات، رغم أنَّنا نعلم أنَّها تُمثِّل أشخاصًا ثمينين مات المسيح من أجلهم. لكن ليس من الصعب التلامس مع قصَّة رجل مثل كاليلو نوغوسو (Kallello Nugusu)، الذي اضطرَّ لأن يبيع ثَورَيه لكي يشتري طعامًا ليُبقي على حياة زوجته وأطفاله الستَّة عندما ضربت المجاعة إثيوبيا. لكن بعد ذلك، لم يستطع أن يحرث أرضه لكي يزرعها، لذا لم يعُد هناك طعامٌ. عندما سألوه ما عساه أن يفعل، قال إنَّه لا يدري. ثُمَّ وضع رأسه بين يديه وقال: ''عندما يصرخ أطفالي بسبب الجوع، فمن الصعب أن أكونَ أبًا''. [١]

ومع أنَّ مثل هذه القصص تلمس أعماقنا، فإنَّنا كثيرًا ما نشعر بالعجز عن فعل أيِّ شيء. كيف يُمكننا أن نتجاوب بأمانة وفاعليَّة؟ إنَّ البساطة بصفتها انضباطًا روحيًّا تُعطينا الأساس لوضع استراتيجيَّة للعمل يُمكنها أن تواجه هذه الأزمة وغيرها من أشكال الظلم الاجتماعيّ. إنَّ العمل الفرديَّ والكنسيَّ والمجتمعيَّ يُمكن أن ينبُع من التُّربة الخصبة للبساطة.

ونُصارع أيضًا مع مُشكلة المسؤوليَّات المُتنافسة التي تتطلَّب تدخُّلنا. مثل قصَّة جاك ونبتة الفاصولياء العملاقة، يبدو كأنَّ مسؤوليَّاتنا والمُتطلَّبات المُلقاة علينا تنمو بين ليلةٍ وضحاها. إنَّنا مأسورون في سباقٍ محموم، ليس فقط لكسب المال، بل أيضًا لتسديد مُتطلَّبات الأُسرة والعمل. إنَّنا نلهث خلف سلسلة لا تنتهي من المواعيد والواجبات. تزداد حِدَّة هذه المشكلة بصورةٍ خاصَّة عند الذين يريدون بإخلاص أن يتجاوبوا مع **كلِّ** دعوات الخدمة، فيعانون الإرهاق لعجزهم عن تمييز صوت المسيح من بين المُناورات البشريَّة. إنَّنا نشعر بالانحناء تحت وطأة الأمانة.

لكنَّنا لسنا مُضطرِّين إلى ترك أنفسنا لنُحبَط ونُرهق بسبب متطلَّبات الحياة؛ لأنَّ نعمة البساطة المسيحيَّة يمكن أن تقودنا إلى ''المركز'' حيث السلام غير المحموم والقوَّة الهادئة. عندئذٍ يمكننا أن نُدرك ونختبر مع توماس كَلي (Thomas Kelly) أنَّ الله ''لا يقودنا بتاتًا إلى اللهاث المحموم الذي لا يُحتَمَل''.[٢] إنَّنا بالبساطة يُمكن أن نَصِل إلى هدوءٍ عميق في القلب خُلِقنا من أجله. صرَّح البابا يوحنَّا الثالث عشر قائلًا: ''إنَّني كُلَّما تقدَّمتُ في العُمر، اتَّضحت أمامي كَرامَةُ البساطة وجمالها الأخَّاذ في الفكر والسلوك والكلام؛ وهي الرغبة لتبسيط كلِّ شيء مُعقَّد والتعامل مع كلِّ شيءٍ بأكبر قدر من الطبعيَّة والوضوح''.[٣]

البساطة المُعقَّدة

مع أنَّ البساطة تقدِّم حلًّا للمعضلة المُعاصرة، فإنَّها لا تُقدم حلًّا **سهلًا**. فيجب أن نُفَرِّق جيِّدًا بين البساطة والتبسيط (Simplism). إذا تناولتَ هذا الكتاب متمنِّيًا أن تجد أربع خطوات سهلة للوصول إلى البساطة الكاملة، فإنَّك للأسف ستُحبَط إحباطًا شديدًا. إنَّ الإجابات التبسيطيَّة (Simplistic)، بطبيعتها، تفشل في أن تُدرك غنى الحياة ونظامها وتعقيدها.

وسواء كُنَّا نُمعن في النظر في الكون الكبير من خلال تلسكوب، أم نُدقِّق في تفصيلات الحياة من خلال ميكروسكوب، فلا يُمكننا إلَّا أن نندهش من خَلْقِ العالَم بهذا القدر من التعقيد والتنوُّع. من المجرَّة الهائلة، إلى النملة الصغيرة، إلى الذرَّة المتناهية في الصغر، نشعُرُ بالرهبة لرؤية هذه اللوحة الدقيقة للوجود. والدماغ– ذلك الجهاز الموجود داخل رؤوسنا– لا يُمكننا فعلًا أن نُدرك تعقيده، إذ يحتوي رُبَّما على مئات المليارات من الخلايا العصبيَّة. ووراء كلِّ هذا، يكمُن ذلك اللغز المُسَمَّى الوعي البشريّ، الذي يُربك خيالَنا. فكما أعلن كاتب المزمور، إنَّنا ''قد امتزنا عجبًا''؛ أي أنَّنا مخلوقون بطريقة تدعو إلى الدهشة والرهبة.

إنَّ البساطة المسيحيَّة تعيش في انسجامٍ مع النظام المُعقَّد للحياة رافضةً الإجابات السهلة والجامدة عقائديًّا للمشكلات الصعبة والمُعقَّدة. في واقع الأمر، إنَّها تلك النعمة التي تُحرِّرنا بما يكفي لكي نستطيع أن نُقَدِّر الأمور المعقَّدة الموجودة في المجتمع المعاصر ونَتَجاوب معها. وعلى الجانب الآخر، تميل العقليَّة المُنافقة نحو الخلط بين الأمور وجعلها مبهمة. فبينما لا يستطيع الإنسان المتزمِّت والجامد عقائديًّا أن يفهم التنوُّع الموجود في البساطة، فإنَّنا على الجانب الآخر، نجد أنَّ الإنسان ذا الرأيَين، لا يستطيع أن يُدرك الوحدة الموجودة في التعقيد.

هذا يأتي بنا إلى التناقُض الظاهريِّ المحوريِّ لدراستنا هذه: وهو تعقيد البساطة. إنَّ حقيقة وجود تناقُضٍ ظاهريٍّ في قلب التعليم المسيحيِّ عن البساطة يجب ألَّا يُفاجئنا. إنَّ حياة المسيح وتعليمه كانا دائمًا مُستنِدَين إلى مفارَقاتٍ ظاهريًّا؛ إذ كان

يقول، مثلًا، إنَّ الإنسان يجب أن يَفقِد حياته حتَّى يجدها (متَّى ١٠: ٣٩)، وإنَّ الأخذ الحقيقيَّ هو في العطاء (لوقا ٦: ٣٨)، وإنَّه وإن كان رئيسَ السلام، فإنَّه يضع سيفًا يفصل بين الإنسان وأخيه الإنسان (متَّى ١٠: ٣٤). إنَّ بُسطاء القلوب هُم من يفهمون الربَّ، لأنَّ الكثير من خبراتهم تُردِّد صدى هذه المفارقات. أمَّا المُتَكبِّرون المُتَصَلِّفون فإنَّهم يتعثَّرون أمام هذه الحقائق.

لكنَّ المفارَقات الظاهريَّة (Paradox)، ليست حقيقيَّة. بل إنَّ حقيقتها غالبًا ما تُكتشف بالحفاظ على ذلك التوتُّر بين خَطَّينِ مُتقابلين من التعليم. وبالرغم من أنَّ في كلا الفكرَين عناصر من الحقِّ، فإنَّه في اللحظة التي نؤكِّد الواحد ونستبعد الآخر، تبدو الحقيقة غامضة ومُشوَّهة. نَستَطيعُ أن نَرَى ذَلكَ بسهولة كافية عندما نُصِرُّ– مُحِقِّين، على ما أعتقد– عندما نقول إنَّ الله مُتسامٍ وقريب في الوقت نفسه، وموجودٌ في نِظامِ العالم المخلوق، ومتجاوِزٌ له أيضًا. وإذا أكَّدنا القُرب وأهمَلنا التسامي، فإنَّ الأمرَ ينتهي بنا إلى الإيمان بوحدة الوجود (أي أنَّ الخليقة والله شيءٌ واحد). وعلى العكس، فإنَّنا إذا أكَّدنا التسامي فقط دون التنازل والقُرب، فإنَّنا نَصِلُ إلى الإيمانِ بإلهٍ غَيرِ مُهتَمٍّ بالكَون، مثل صانعِ الساعات الذي صَنَعَ ساعَةً وتَرَكَها تعمل وحدها. وهكذا إذا اعتنقنا جانبًا واحدًا من التعليم وتركنا الآخر، فإنَّ الحقيقةَ تَصيرُ مُشَوَّهة، أمَّا إذا احتَفَظنا بالاثنين معًا في حالة من التوتُّر الخلَّاق، فإنَّنا نقترب من إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب. يمكن بسهولة أن نجد ذلك في مفاهيم كثيرة مثل محبَّة الله وعدالته، ألوهيَّة المسيح وناسوته، أو في أيٍّ من الأمور المتقابلة الكثيرة الموجودة في الكتاب المقدَّس. والآن، فلنتناول بعضًا من جوانب البساطة التي يجب أن نضعها في حالةٍ من التوتُّر بعضها مع بعض حتَّى نتمكَّن من دخول تلك الفضيلة المسيحيَّة المهمَّة.

إنَّ واحدةً من النقاط المحوريَّة التي ينبغي أن نفهمها هي أنَّ البساطة نعمة وانضباط في الوقت نفسه. تُعبِّر أُنشودة قديمة عن هذه الحقيقة المزدوجة بوضوحٍ مُذهل، وبفرحٍ يشدِّد على هذا التوكيد:

إنَّها لعطيَّةٌ أن تكونَ بسيطًا،
وإنَّها لَعَطِيَّةٌ أن تكونَ حُرًّا.

وفي الوقت نفسه تؤكِّد أنَّنا يجب أن

نلتفت ونلتفت،
حتَّى نلتفت نحو الوجهة الصحيحة.

إنَّ البساطة نعمة لأنَّ الله هو من يهبنا إيَّاها. وليست هناك وسيلةٌ لننالَ هذه الهبة، كأنْ نزيدَ من قوَّة إرادتنا، أو أن نضعَ أنفسَنا في هذه الحالة أو تلك، بل هي عطيَّة يُمكن قبولها بفرح. وللتوضيح، كثيرًا ما تُحكَى قصَّة الحائك هانز (Hans) في هذا الصدد. كانت لهانز سُمعة طيِّبة جدًّا، لذا عندما احتاج رجل أعمالٍ ذو نفوذ حُلَّةً جديدة ذهب إلى هانز طالبًا منه أن يحيك هذه الحُلَّة. وفي الأسبوع التالي، عندما ذهب ليتسلَّمها، وَجَدَ أنَّ أحد الأكمام كان مثنيًّا بطريقة خاطئة في ناحية، وكذلك الثاني في ناحيةٍ أُخرى، وأنَّ إحدى الكتفين مرتفعةٌ أكثر من اللازم والأُخرى منخفضةٌ أكثر من اللازم. فأخذ يجذب ويصارع حتَّى استطاع في النهاية أن يجعل جسده يلتوي ويُلائم الحُلَّة ذات الشكل الغريب. وإذ أراد ألَّا يخلق مشكلة في العلن، شكر الحائك ودفع الأجرة واستقلَّ الحافلة عائدًا إلى منزله. سأل راكبٌ في الحافلة رجل الأعمال هذا بعد أن أمعن لبعض الوقت في الشكل العجيب الذي آل إليه، إن كان الحائك هانز هو الذي فصَّلها له. وبعد أن أجاب صاحب الحُلَّة أنَّ هانز بالفعل هو الذي فصَّلها له، قال راكب الحافلة: ''هذا عجيب! إنَّني أعرفُ أنَّ هانز حائكٌ جيِّد، لكنَّني لم أكن أعرف

أنَّه أيضًا بالمهارة التي تُمكِّنه من حياكة حُلَّة مناسبة تمامًا لرجلٍ مُشوَّهٍ مثلك''.

إنَّنا مثل رجل الأعمال هذا، عادةً ما نعتقد أنَّ البساطة يجب أن تبدو بصورة معيَّنة فنحاول أن نضغط وندفع أنفسنا بقوَّة، فنترضَّض ونتألَّم لكي ''ندخل فيها''. لكن ليست هذه هي الطريقة التي تأتي بها البساطة؛ إذ إنَّها تتسلَّل إلى حياتنا. إحساسٌ جديد بالدهشة والتركيز يتسلَّل إلى شخصيَّاتنا حتَّى إنَّنا نُغيِّر أسلوب حياتنا، فيُمكنُنا حتَّى أن ننخرط في خدمة الفقر إذا أصبح الأمر صالحًا وواضحًا، وبدافعٍ داخليّ، عالمين أنَّه عندما ننال الدعوة فإنَّها تأتي مع القوَّة لتتميمها. عندما يكون الأمر مُصمَّمًا من الله فإنَّه يناسبنا بصورةٍ كاملة. البساطة نعمة.

وبالتأكيد، يجب ألَّا ننسى القُطْبَ الآخر من الأمر، فالبساطة أيضًا انضباط. وهي انضباطٌ لأنَّنا مدعوُّون أن نفعل شيئًا. تتضمَّن البساطة أن نختار بوعيٍ مسارًا من السلوك يتضمَّن الحياة الفرديَّة والجماعيَّة معًا. إنَّ ما **نفعله** لا يعطينا البساطة، لكنَّه يضعنا في المكان الذي نستطيع فيه أن نستقبلها. كما يضع حياتنا أمام الله بطريقةٍ تجعله يستطيع أن يُعمِلَ فينا نعمةَ البساطة. إنَّ ما نفعله يُعَدُّ إعدادًا حيويًّا وتجهيزًا للتربة لكي ''نَزرَع للروح''، بكلمات الرسول بولس.

ربَّما نحتاجُ لأن نتعلَّم أن نتكلَّم عن ''النعمة المُنضَبِطَة''. أليست هذه هي الحقيقة العميقة التي يرتكز عليها ذلك التحالف والتعايش بين الإيمان والأعمال؟ إنَّنا نخلصُ بالإيمان، لكن دون أعمال، يصير الإيمان ميتًا. إنَّ حقيقة الإنجيل تأتينا بالنعمة، لكنَّها تحمل معها علامات الانضباط الروحيّ.

المعضلة الثانية للبساطة المسيحيَّة هي أنَّها سهلة وصعبة في الوقت نفسه. سهلة كما أنَّ كلَّ النِّعَم المسيحيَّة سهلة بعد أن تجد طريقها إلى بُنية العادات المغروسة فينا. إنَّها سهلة كما أنَّ التنفُّس سهل. ''الفضيلة سهلة''، كما يقول فلاسفة الأخلاق، وهي فعلًا سهلة متى ما انغرست عميقًا في الشخصيَّة. إنَّ عزف سيمفونيَّة ''پاثيتيك'' (Pathétique) لتشايكوڤسكي يصيرُ سهلًا للموسيقيِّ البارع الذي بذل الجهد الكافي من التدريب حتَّى تصير الموسيقا مُنسابة منه وكأنَّها لغة جسده؛ لكن إلى أن يصل إلى هذه الدرجة، فإنَّ عزفها يكون صعبًا إلى درجة مؤلمة دون شكّ. أمَّا من جهة البساطة، فتوجد أوقاتٌ من الصراع وبذل الجهد، وأوقاتٌ فيها نيأس من قدرتنا على جعل أسلوب حياتنا يصل إلى المكان الذي نشعر بأنَّه ينبغي أن يكون فيه، أوقاتٌ نتساءل فيها إن كانت حياتنا ستصل إلى الاستقرار في يومٍ من الأيَّام. لكنَّنا من وقتٍ إلى آخر، ووسط الصراع، نشعر بأنَّنا دخلنا تلك الحالة، فنُمجِّد الآب السماويَّ بعفويَّة لأنَّنا نعلم أنَّنا لم نفعل أكثر من قبول هديَّة.

والتوتُّر الثالث الذي يجب أن نعمل لنحافظ على اتِّزانه، هو بين الأبعاد الداخليَّة والخارجيَّة للبساطة. إنَّ البساطة واقعٌ داخليٌّ يُمكن أن يُرى في أسلوب الحياة الظاهريّ. يجب أن نحوز الاثنين معًا، ومن الكارثيِّ أن نُهمِلَ أيًّا من طرفَي هذا التوتُّر.

إذا كانت البساطة تقتصر على الأمور الخارجيَّة، فإنَّ الحال ستكون عندئذٍ سهلةً. كلُّ ما نحتاج إليه في هذه الحال هو أن نكوِّن نظامًا (وهذه ليست خدعة بسيطة بالتأكيد) يضع لنا الحدود، فنقول مثلًا إنَّ الأمانة المسيحيَّة تُتيح لنا أن نعيش في حدود هذا الدَّخل وليس ذاك، وأن نشتري هذا البيت وليس ذاك. فتكون لدينا تَرتيباتٌ مُحَدَّدَةٌ وواضحة وينتهي الأمر، حتَّى إنْ كان الأمرُ يحتاجُ إلى تعديلٍ من وقتٍ إلى آخر لمواكبة التضخُّم. وفي هذه الحال، تنكشف هُويَّة مَن يعيش في حدود البساطة ومَن يعيش خارجها، مَن الأمين، ومَن ليس كذلك. فرِّيسيَّة جديدة. ممتاز، شكرًا.

في بعض الأحيان، أتمنَّى بصدقٍ لو كان الأمر كذلك. وليست لديَّ رغبة في أن أتكلَّم بطريقة تنتقص من شأن الكثير من المجموعات التي وضعت منظومات كهذه. في واقع الأمر، إنَّني في بعض الأحيان أحسدهم؛ لأنَّ الوضوح الذي تتميَّز

به هذه الطريقة لها قدرة كبيرة على إيجاد الدافعيَّة لتغيير السلوك وقياس التغيير. لكن كما نعرف كلُّنا، فإنَّ نتيجتها النهائيَّة هي القيود والموت. فالحرف دائمًا ما يقتُل، أمَّا الروح فيُحيي. إنَّ بساطة الإنجيل تعطي حرِّيَّة وتحريرًا.

يجب أن ينبُعَ التعبيرُ الخارجيُّ للبساطة من مَصادرَ داخليَّة. ويعني هذا تعلُّم أن نسلك بالروح الذي يبني حياةً من النقاء والوحدة والنعمة. هُناك أمرٌ داخليٌّ يجب أن يكون مركزيًّا، ومن دونه فإنَّنا نفقد كلَّ شيء. وعلى الجانب الآخر، نُضِلُّ أنفُسنا إذا كُنَّا نعتقد أنَّه بإمكاننا أن نحصُل على البساطة الداخليَّة دون أن يكون لها التأثير العميق في أسلوب الحياة الخارجيِّ الذي نعيشه. ينبغي الحفاظ على ذلك التوتُّر الخلَّاق مستمرًّا.

رُبَّما تكونُ قد لاحظتَ أنَّني أتعامل مع ذلك الخطِّ القديم قِدَم الزمن الذي يقع على طَرَفَيهِ التزمُّت الفرِّيسيُّ من ناحية، والتحَرُّر التامُّ من ناحية أُخرى. إنَّنا نرفض التزمُّتَ لأنَّه يقود إلى الانتحار الروحيِّ، ونرفض التَحَرُّرَ من كافةِ القيود للسبب ذاته. لكنَّ هناك طريقًا آخر: الحياة بالروح. يُعطينا الرسول بولس صيغة كلاسيكيَّة لهذه الحقيقة في رسالته إلى أهل غلاطِيَّة. وفيها يهاجم التزمُّت والفرِّيسيَّة بأقصى شِدَّة ويؤكِّد الحُرِّيَّة المجيدة التي لنا في المسيح، وبكلِّ حكمة يُضيف أنَّه لا ينبغي أن نُصَيِّر الحُرِّيَّة فُرصةً للجسد. ويختُم قائلًا: ''إنْ كُنَّا نَعيشُ بالروحِ، فلنَسلُكْ أيضًا بحَسَبِ الروحِ'' (غلاطِيَّة ٥: ٢٥). إذا كانت لدينا الحقيقة الداخليَّة، فيجب أن تنعكس على أسلوب حياتنا الخارجيّ.

المفارقة الرابعة بشأن البساطة نجدها في أنَّ الأشياء المادِّيَّة صالحة في ذاتها، لكنَّها في الوقت نفسه لها محدوديَّاتها. العالم المادِّيُّ صالح، لكنَّه صالحٌ بصورة محدودة، أي محدودٌ حتَّى إنَّنا لا نستطيع أن نجد فيه حياة. عندما نُنكر صلاح العالم المخلوق، نصير متقشِّفِين. وعندما نُنكر محدوديَّة العالم المخلوق، نُصبح مادِّيِّين.

يحسبُ الإيمان المسيحيُّ الأشياءَ المخلوقة عطايا من الله لنستمتع بها. وهو لا يرفض الأشياء المادِّيَّة أو يتجاهلها أو– الأسوأ من ذلك– يحسبُها شَرًّا. فالعالم المادِّيُّ صالح ويُقصَدُ منه أن يجعل الحياة سعيدة. في واقع الأمر، إنَّ تسديد الاحتياجات بصورةٍ كافية أمرٌ ضروريٌّ من أجل الحياة الجيِّدة. وفي المجتمع البشريِّ اليوم، ينشأ البؤس ببساطة بسبب عدم تسديد الاحتياج.

إلَّا أنَّ البؤس ينشأ أيضًا عندما يجعل الناس من تسديد الاحتياجات أساسًا لحياتهم؛ لأنَّه مع أنَّ تسديد الاحتياجات مُكَوِّنٌ أساسيٌّ من مُكَوِّنات الحياة، فإنَّه ليس المُكَوِّن الوحيد، وهو ليس حتَّى المُكَوِّن الأهمّ. لكنَّنا كثيرًا ما نجد التعليم الكتابيَّ بشأن تسديد الاحتياجات يُحرَّفُ ليصير فُرصةً للعيش بشراهة وجشع، بما يُسمَّى ''إنجيل الازدهار'' (الصحَّة والثروة). فتعكس الرسالة الخَفيَّة– بل أحيانًا الواضحة– التي تُقَدَّم للناس: ''أحِبِ المسيح وصِر غنيًّا''، الفشل في إدراك أنَّ الكتاب المقدَّس يُشير بوضوحٍ إلى محدوديَّة الأمور المادِّيَّة. وهكذا فإنَّ أهدافنا الشهوانيَّة تتجسَّد في لاهوتنا تحت غطاء ''تحقيق وعود الربّ''. والأمر المثير للاهتمام بشأن هذه الوسائل المُتحايلة للوُصولِ إلى البَرَكة، أنَّها تنجح؛ أي أنَّها تنجح إذا كان ما نحتاج إليه هو بعض المال. لكن إذا كُنَّا في واقع الأمر نطلُب الغنى الحقيقيَّ الذي يعطيه الله، فإنَّها تفشل.

وكما نرى، فإنَّ البساطة المسيحيَّة لا تُقدِّم لنا إجاباتٍ تبسيطيَّة، إذ يجب الحفاظ دائمًا على ذلك التوتر: الأشياء جيِّدة، لكن هذا الجود محدود.

رُبَّما مثالٌ آخر للتوتُّر الخلَّاق يكون كافيًا لتأكيد حقيقة أنَّ رحلتنا نحو البساطة ستكون دقيقة ومتنوِّعة وغنيَّة بقدر غِنى شخصيَّة الإنسان نفسها. إنَّني أُشيرُ إلى تلك القدرة الجذَّابة لأن يكون المرء مكرَّسَ القلب وفي الوقت نفسه حَسَّاسًا لقضايا الحياة الصعبة والمُعقَّدة. إنَّها تركيبة غريبة وصعبة الشرح، رغم أنَّه من السهل ملاحظتها. كما أنَّها تمنحنا بؤرةً واضحة للرؤية

دون جمودٍ فكريٍّ، وطاعةً دون تبسيطٍ مُبالغٍ فيه وعُمقًا دون انحصارٍ في النفس. إنَّها تعني أنَّنا على وَعيٍ بالأمور الكثيرة، وفي الوقت نفسه أنَّ لدَينا شيئًا واحدًا في المركز: الطاعة المُقدَّسة.

تكلَّم يسوع عن قَلب المسألة عندما كان يُعَلِّم أنَّ العين إن كانت بسيطة (تنظر إلى شيءٍ واحدٍ)، ''فإنَّ جَسَدَك كُلَّهُ يَكونُ نَيِّرًا'' (متَّى ٦: ٢٢). قبل أن يُستَشهَد ديتريتش بونهوفر (Dietrich Bonhoeffer) على أيدي النازيِّين، قال: ''أن تكون بسيطًا يعني أن تضع نُصبَ عينَيك حقيقة الله البسيطة فقط، في الوقت الذي فيه تكون كلُّ المفاهيم مُلتبسة ومُشَوَّهة ومَقلوبة رأسًا على عَقِب''.[٤] يجعل هذا التركيز المرء قادرًا على اتِّخاذ القرارات، وفكِّ عُقَد الحَياة الصَّعبة.

لكنَّنا يجب ألَّا نَخلِطَ بينَ القُدرة على اتِّخاذ القرارات بناءً على القلب المكرَّس، والقُدرَة على اتِّخاذ القرارات بناءً على فكرة الترويج. فبينما لدى مُرَوِّجي أسلوب حياة ما هدفٌ واحد عادةً ما يكونُ مُدهشًا (ومُغريًا)، فإنَّهم لا يصلون إليه من الطريق ذاته الذي يصل إليه الشخص الذي يُقرِّر قرارًا نابعًا من قلبٍ مكرَّسٍ ومُوَّحد. يتحمَّس بعض الناس للتخلِّي عن بعض الأشياء المادِّيَّة ويعرضون آراءَهم بافتخار بناءً على السياسة والفلسفة والدين، دون أدنى وعيٍ أو اهتمام بدقَّة الأمر والعوامل الكثيرة المُتداخلة فيه. في بعض الأحيان، **رُبَّما** يصلون إلى النتيجة ذاتها التي يصل إليها مُكرَّس القلب. ورُبَّما أيضًا يُعبِّرون عنها بالكلمات والقناعات ذاتها، لكنَّهم وصلوا إلى هذه النتيجة بسُرعةٍ أكبر من اللازم، وسهولةٍ أكثر من اللازم، وهي نتيجة فارغة لأنَّها تفتقر إلى نزاهة الصراع الأليم.

هل اختبرت هذا الموقف من قبل؟ يتكلَّم أحدُهُم عن الموضوع، وبالرغم من أنَّ ما يقوله رُبَّما يكون حقيقيًّا، فإنَّك تتراجع عن قبول ذلك الكلام لكونك تشعر بغياب الأصالة والأمانة في ما يُقال. ثُمَّ يشارك شخصٌ آخر بالكلمات نفسها، لكنَّك تشعر في قلبك بتجاوبٍ مع ما يُقال، وذلك بسبب وجود الصدق والأمانة. فما الفرق؟ أحدُهُما يُقدِّم أفكارًا تبسيطيَّة، والآخر يعيش حياة البساطة.

الجزء والكُلُّ

إنَّ التبسيط المُبالغ فيه خَطِرٌ في أيِّ مجالٍ من مجالات الفكر والدراسة. لكنَّ الخطر يكونُ أكثر خُبثًا إذا كان المجال هو البساطة المسيحيَّة، وذلك لأنَّه يسهل أن يعُدَّها المرء فقط شكلًا خارجيًّا للفضيلة. لقد لاحظنا بعض المنحدرات التي يُمكن أن نقع فيها، لكنَّنا لم نذكُر بعدُ المنطقة التي تتميَّز بأكبر قدرٍ من الخطر: خطر الافتراض أنَّ البساطة يُمكن أن تعمل بمعزلٍ عن باقي نواحي التكريس المسيحيّ. إنَّ البساطة ظاهرة للعين أكثر من كلِّ الانضباطات الروحيَّة، لذلك فهي الأكثر عُرضة للفساد، وأخطرُ فسادٍ هو عزلها عن باقي الانضباطات. إنَّ هذا الخطر هو الذي منعني لشهورٍ طويلة من الموافقة على تأليف كتابٍ كاملٍ عن هذا الأمر. لقد كتبتُ عن البساطة من قبل، لكنَّ ذلك كان دائمًا في إطار ''الانضباطات الكلاسيكيَّة للحياة المسيحيَّة''[٥]، حيث كانت البساطة مُتكاملة مع المنظومة الكاملة للعبادة والتكريس المسيحيَّيْن، كانت فقط جزءًا، لكنَّها جزءٌ حيويٌّ، من شيءٍ أكبر وأشمل.

تحتاج البساطة لأن يُنظَر إليها في ضوء الكُلّ. مثلًا، هُناك علاقة جوهريَّة بين البساطة والصلاة، لا سيَّما أنَّ العنصر المحوريَّ في الصلاة هو الثقة. يُحبُّ أولادي الفطائر المُحلَّاة، وعندما كانوا صِغارًا، كنتُ من وقتٍ إلى آخر أستيقظ مُبكِّرًا وأصنع لهم مجموعة من هذه الفطائر. كان ممتعًا لي أن أُشاهد هؤلاء الأطفال يلتهمون هذه الفطائر كما لو كانت كمِّيَّة لانهائيَّة. لم يكونوا قلقين بتاتًا بشأن أسعار البيض والدقيق أو قدرتي أن أوفِّر لهم هذه الفطائر من عدمها. لم أرَ أيًّا منهُما يخبِّئ واحدة من هذه الفطائر في جيبه وكأنَّه يقول: ''لستُ مُتأكِّدًا إن كان والدي سيُوفِّر لنا هذه الفطائر باستمرار، لذا

فلأحتفظ لنفسي ببعضٍ منها لكي أضمن أن آكلها غدًا''. لكنَّهم كانوا يثقون بأنَّ هُناك إمدادًا لانهائيًّا من الفطائر. كانوا يعلمون أنَّ كلَّ ما عليهم أن يفعلوه هو أن يطلبوا، فيجدوا ما طلبوه إذا كان في مصلحتهم. كانوا يعيشون حياة من الثقة. ودون روح الثقة هذه، سيكون من الصعب جدًّا (ورُبَّما من المستحيل) أن نعيشَ على صلاةِ خُبزِنا اليَوميّ، بل يكون علينا أن نخزِّن كمًّا كافيًا في مكانٍ ما حيطةً وكأنَّ ما لدينا الآن لن يكون كافيًا **بتاتًا**.

أشار الرسول بولس على المؤمنين أن يعيشوا حياةً مُتحرِّرة من القلق. هذا بالتأكيد أسهل أن يُقال من أن يُفعل. لكنَّ كلَّ شيءٍ في بلوغنا وفي ثقافتنا يقاوم الروح المتحرِّرة من القلق. كيف يُمكن أن نتحرَّر من القلق؟ ما المورد المُتاح لنا؟ كان المصدر لبولس هو الصلاة: ''لا تهتَمُّوا بشَيءٍ، بل في كُلِّ شَيءٍ بالصَّلاةِ والدُّعاءِ مع الشُّكرِ، لتُعلَمْ طِلباتُكُمْ لَدَى اللهِ'' (فيلبِّي ٤ : ٦). الصلاة تُحرِّرنا من القلق لأنَّها تعلِّمنا الثقة. والنتيجة هي السلام: ''وسَلامُ اللهِ الذي يَفوقُ كُلَّ عَقلٍ، يَحفَظُ قُلوبَكُمْ وأفكارَكُمْ في المَسيحِ يَسوعَ'' (فيلبِّي ٤ : ٧). الصلاة والبساطة متضافرتان.

تسير البساطة والعزلة يدًا بيد. فالعُزلة تشير إلى الوحدة الداخليَّة التي تُحرِّرنا من الاحتياج القَلِق إلى رِضَى الناس واستحسانهم. وبواسطتها نستطيع أن نكون بمفردنا على طبيعتنا، لأنَّنا نتخلَّص من الخَوفِ مِنَ التجاهُل، وهَذا أيضًا يُمَكِّنُنا من أن نتمتَّع بهذه الأصالة ونحنُ مع الآخرين، لأنَّهم لم يعودوا يُسيطرون علينا.

ليس صعبًا أن نرى أنَّ البساطة تعتمد على العُزلة والاختلاء. إنَّ استعباد آراء الآخرين هو مصدر الكثير من الرياء في المجتمع الحديث. فكم من مرَّةٍ نكتشف أنَّ أفعالنا مدفوعة، ليس من الله مَركَز الوجود، بل بما يُمكن أن يقوله الآخرون عنَّا. يجب أن نعترف للأسف أنَّ خبراتنا كثيرًا ما تتميَّز بمحاولاتٍ لانهائيَّة لتبرير ما نفعله أو ما نفشل فيه. وكثيرًا ما تُطِلُّ هذه المشكلة برأسها القبيح في اللحظة التي نُقرِّر فيها أن نعيش حياةً أبسط. فقَبلًا، كانت تُسيطرُ علينا الرغبة أن نبدو أثرياء، أمَّا الآن فتُسيطر علينا الرغبة أن نبدو متقشِّفين. إذا كان ما نمتلك يجعلنا نبدو متقشِّفين قليلًا وغير جذَّابي المظهر، فرُبَّما يظُنُّ بعضُ الناس أنَّنا نعيشُ البساطة. ونبدأ في الشعور المؤلم بأنَّنا معتمدون على رأيِ الآخرين. إنَّنا بأمانة نريد أن نفعل الصواب، لكنَّ وعينا الزائد بأنفسنا يكشف افتقارنا إلى البساطة الحقيقيَّة. إنَّ صراعنا يؤكِّد الملاحظة التي قالها فرانسوا فنلون (François Fénelon): ''هؤلاء الناس صادقون، لكنَّهم ليسوا بُسطاء''.[٦] إنَّ نعمة العُزلة يجب أن تتأصَّل عميقًا فينا حتَّى نستطيع أن نَعرِفَ البَساطَةَ القَلبيَّة الحقيقيَّة.

والأمر صحيح أيضًا لكُلِّ الانضباطات الروحيَّة. إذا فصلنا البساطة عن أيٍّ من هذه الانضباطات، فإنَّها تتحوَّل إلى شَيءٍ آخر. لكنَّنا عندما ننظُر إلى أيِّ انضباط في ضوء الصورة الكاملة للروحانيَّة المسيحيَّة، فإنَّنا نحصُل على اتِّزان الرؤية.

ليسَ خطأً أن نَعزِلَ جَانبًا من جوانب مسيرتنا الروحيَّة لفترة لكي ندرسه، ما دمنا نفهم أنَّ هذا العَزل مُصطنَع ومؤقَّت. رُبَّما في العلوم التقنيَّة، يُمكن تجاهُل الكلِّ في سبيل الجُزء لإحداثِ قَدرٍ من التخَصُّص، أمَّا في المسيرة الروحيَّة، فهذه الطريقة مُدمِّرة. إنَّ الحياة مع الله، هذه الحياة المُستترة في المسيح، هي وحدة واحدة، كرداءٍ من قطعةٍ واحدة بلا خياطة. هذا بالتأكيد هو جوهر بساطتها وسبب تعقيدها.

قد نُستمال إلى الشعور بالإحباطِ منَ التعقيدات الظاهريَّة لأمرٍ كُنَّا نَظُنُّهُ مُباشرًا ومن السهل فهمه. ففي بعض الأوقات، تبدو البساطة مُخادِعة مثل التواضع: في اللحظَةِ التي نَشعُرُ بأنَّنا حَصُلنا عليه، نكونُ قد فقدناه؛ فهو أمرٌ يبدو محفوفًا بالتضاريس الوعرة التي يُمكن أن تُخَبِّئ لنا المفاجآت. كيف لنا أن نتوقَّع أن نجد طريقنا بين هذه الطرُق المُحيِّرة المُلتبسة؟

إذا كان هذا يُعبِّر عن مشاعرك ومخاوفك، بل إحباطك، ولو قليلًا، فإنَّني أودُّ أن أقدِّم لك كلمة تشجيع. إنَّ شعور الرهبة

نفسه الذي تشعر به حيال ضخامة الأمر هو المطلب الأوَّل لدخول نعمة البساطة. هؤلاء الذين يدخلون مندفعين، يكتشفون أنَّ ما دخلوه لم يكُن البساطة وإنَّما الكبرياء.

وفي ما وراء ذلك، ستتشجَّع عندما تكتشف أنَّ البساطة صعبة الفهم والتحليل أكثر ممَّا هي صعبة التطبيق والممارسة. إذا كُنتَ تطلُب المسيح وطريقَهُ بقلبٍ مُخلص، فسيُعلِّمك لأنَّه أمين. لن يجعلك تضلُّ بعيدًا. لكنَّه بكلِّ محبَّة ورِقَّة، سيستعيدك مرَّة أُخرى إلى الباب الضيِّق والطريق الوعر. لا داعي للقلق إذا وجدت أنَّه من الصعب أن تشرح ماهيَّة هذه الفضيلة. يُمكننا أن نقول عن البساطة ما قاله توما الكمپيسيُّ (Thomas à Kempis) عن انكسار القلب: "أن نمارسَهُ خَيرٌ من أن نُعَرِّفَهُ".[٧]

إنَّ نماذج البساطة مطلوبة بشدَّةٍ هذه الأيَّام، لذا فإنَّ مهمَّتنا مُلحَّة ومُهمَّة. بلادُنا مُتَعَطِّشَةٌ إلى الأصالَةِ والبساطة، وروح الصلاة، وحياة الطاعة. ليُنعِمِ الله علينا أن نُجَسِّد هذا النوع من الحياة الحقيقيَّة.

* غالبًا ما تكونُ هذه الإحصائيَّة قد تغيَّرتِ اليومَ مقارنةً بزمن تأليف الكتاب الأصليّ. والمقصود بالموت جوعًا هو الموت نتيجة قلَّة الطعام، أو نتيجة الأمراض الناتجة عن قلَّته (الناشر).

٢

الجذور الكتابيَّة:
العهد القديم

كُلُّ الغِنى الذي ليس الله نفسه، هو عندي فقرٌ.

القديس أغسطينوس (St. Augustine)

البساطة مُتأصِّلة في إعلان العهد القديم. ففيه، أعلن الله عن ذاته وعن الكيفيَّة التي يريد للبشر أن يعيشوا بها. والفكرتان لا تنفصلان بعضهما عن بعض، فكلَّما تعمَّقنا في معرفةِ الله أكثر، فهمنا الطريقة التي ينبغي أن نعيش بها.

السؤال المُلِحُّ اليوم ليسَ ''هَل يوجَد إله؟'' وإنَّما ''مَا طبيعة هَذا الإلَه؟''. قَليلون هم الذينَ يُدافِعونَ بقُوَّةٍ عن الإلحاد بسبب الضعف المنطقيّ لفكرة عدم وجود إله، لَكِنَّ الكثيرين لَدَيهِم أسئِلَةٌ مُلحَّة عن هُويَّة هذا الإله. أهو قاسٍ أم صالح؟ باختصار، هل يُمكنُ الوثوقُ بِهِ؟ إنَّ بساطة القلب يُمكنُ فَقَط أن تَنمو في التربَة الخصبة للثقة بالله، وما يُعلِنُهُ العَهدُ القَديم عَن أمانَةِ الله وصَلاحه يفتح البابَ أمَامَ هَذِهِ الثقة.

إنَّنا أيضًا نُصارِعُ لكَي نفهم كيف ينبغي لنا أن نعيش. قليلون منَّا يقبلون الفكرة الساذجة التي تقول إنَّ تراكُم الأشياء الأكبر والأفضل، تُحقِّق لنا الشعور بالفرح والنجاح. كما أنَّنا أيضًا لا نطمئنُّ للمتقشِّف القاسي الذي يهاجِم بضَراوة ما يَصِفُهُ بشرِّ المقتنيات. نحن لا نُرِيدُ أن نَكونَ مادِّيِّين، نشتهي الامتلاك والتخزين. لكنَّ نموذج يوحنَّا المعمدان الذي كان يلبس ثيابًا من وبر الإبل ويأكل جرادًا وعسلًا برِّيًّا لا يَروقنا أيضًا. كيف يُمكن أن نضع المادِّيَّات في مكانها الصحيح في عالمٍ ملآن بفواتير أطبَّاء الأسنان ودروس البيانو؟ كيف يُمكن أن نُقَرِّرَ شِراء جهاز مايكروويف جديد أو غسَّالة أطباق من عدمه؟ هذا السجلُّ العتيق لإعلانات الله لشعبه في العهد القديم، يُقدِّم لنا إشارات مهمَّة لإجابة هذه الأسئلة.

إنَّها بالتأكيد رحلة طويلة من قادش برنيع إلى لندن أو شيكاغو سواء في المكان أم الزمان. والمسافة الكبيرة بين الثقافات يُمكن أن تستميلنا إلى أن نعُدَّ الإرشادات الكتابيَّة بشأن أسلوب الحياة– وإن كانت إرشادات إلهيَّة– دون أدنى علاقَةٍ بالحَياةِ المدنيَّة المُعاصرة، لكونها أُعطِيَت لرُعاة ومزارعين عاشوا في عصر موغل في القِدَم. فمثلًا، مَا علاقةُ شريعة الالتقاط خلف الحصَّادين بمؤشِّر الاستهلاك؟ وما الرابط بين سنة اليوبيل والعجز التجاريّ؟

إنَّها مشكلة حقيقيَّة، لكنَّ الأشخاص الصادقين يُدركون أنَّه بالرغم من أنَّ لهذه التشريعات المُحَدَّدة معاني مُباشرة مُرتبطة بذلك العصر، فإنَّ فيها مبادئ جوهريَّة لكُلِّ العُصور مَعَ اختلاف طريقة التطبيق. في واقع الأمر، يُقدِّم لنا إعلان العهد القديم بصيرةً نحو الحياة مُهمَّةً ومنقطعة النظير. وبلا شكٍّ، هذا لا يحُلُّ المُعضلة التفسيريَّة وكيفيَّة فهم هذه البصيرة، ولا يجيب بسهولة عن الأسئلة العمليَّة بشأن تطبيقها، لكنَّه بالتأكيد يحمينا من كبريائنا المُعاصر.

الاعتماد الكامل

تمثِّل قصَّة الخليقة نُقطة البداية في مفهومنا عن البساطة. في قلب الحدث، هناك الله الذي يقول كلمةً فيخرج الكون كُلُّه

مُسرعًا إلى الوجود. ثُمَّ تأتي ذروة خليقته، وهي الإنسان الذي خلقه ذكرًا وأُنثى.

إنَّ اعتماد الخليقة بالكامل على الله هو التعليم المحوريُّ في هذه الرواية المثيرة، ويجب أن يكون هذا هو المبدأ الحاسم في فهمنا للبساطة. إنَّنا مُعتَمِدون في وجودنا على الله، ولا نستطيع أن نوجد بمعزل عنه. كُلُّ كَينونَتِنا وما نَملُكُهُ مُستَمَدٌّ من الله.

في يومِنا هَذا، نَحتاجُ لأن نُنادي عاليًا بعَقيدة الخَلق الكتابيَّة، لا سيَّما حقيقة أنَّنا نحن بالتحديد مخلوقون. إنَّنا لسنا قادةَ أرواحنا ولا سادةَ مَصائِرِنا. إنَّنا جُزءٌ من نِظامٍ مَخلوقٍ، لذا نحن مُعتَمِدون على الله تمامًا. ويعني هذا أنَّنا لسنا في موضع الامتلاك المُتصلِّف، بل في موقف الثقة المُتَّضعة بمن يُمدُّنا بكلِّ شيء. كُلُّ ما لنا، أو ما سيكون لنا، في أيِّ وقتٍ من الأوقات، هو من يد الله المُنعِمة.

نحن مُعتَمِدون على الله حتَّى في إحساسنا بالقيمة بصفتنا أفرادًا. إنَّ فرادتنا وكرامتنا مُتأصِّلتان في حالتنا المخلوقة على صورة الله. وليست قيمتنا مُرتبطة بثروتنا، ولا مكانتنا، ولا إنجازاتنا، ولا مراكزنا. إنَّها عطيَّة. ومن الواضح، أنَّ هذه الحقيقة الهائلة تقع في مواجهة مباشرة مع المَيل المُعاصر لتقييم البشر بحسب ما يُنتجونه أو يمتلكونه.

إنَّ الواقع الرهيب لحقيقة السقوط هو أنَّه ليس سوى رفض اعتمادنا على الله. لقد أخَذَ آدمُ وحوَّاء ما منعهما الله منه، وكأنَّهما عمليًّا يقولان: ''سنعتمد على أنفسنا''. لقد فقدا الثقة في صلاح الله بتصديقهما لكذبة الحَيَّة أنَّ اللهَ كان يَحرِمُهُما من شيءٍ جَيِّد. وعِندَما فَعَلا ذلك، أدرَكا أنَّهُما عُريانان. إنَّ العُري الذي كانا فيه لم يَكُن غِيابَ الملابس بقَدر ما كان ذلك الشعور الرهيب بالعجز والوحدة الذي شَعَرا بِهِ عِندَما رَفَضا اعتمادَهُما عَلى الله. إنَّ الاستقلالَ دائِمًا ما يأتي بكُلفةٍ عالية، لا سيَّما عندما يكون استقلالًا عن نعمة الله وعطاياه.

وهكذا، فإنَّ البساطة تعني العودة إلى موقف الاعتماد على الله، مثلما يعتمد الأطفال بثقة على والديهم، وذلك بأن نَرَى أنَّ كُلَّ ما لَدَينا قد قبلناه بصفته عطيَّة.

الطاعة التامَّة

إذا كان الفكرُ الثاقب الأوَّل عن البساطة الذي نحصُل عليه من العهد القديم هو الاعتماد الكامل على الله، فإنَّ الثاني هو الطاعة التامَّة له. رُبَّما لا يتجلَّى ذلك مثلما يتجلَّى في حياة إبراهيم عندما دَعَاه الله لكي يقدِّم أغلى ما عنده، ابنه إسحاق. تكلَّم الله، فأطاع إبراهيم. لم تكُن لديه خُطَطٌ بَديلة، ولم يحاول المراوغة، ولم يُجادل أو يقدِّم أعذارًا. وطوال مسيرة طويلة مؤلمة، كانت حياة إبراهيم مؤَسَّسَة على حَقيقةٍ واحدة، وهي طاعة صوت يهوه الربّ. هذه ''الطاعة المقدَّسة'' هي الهيكل الذي تقوم عليه حياة البساطة.

إنَّ الطاعة التامَّة مُمكنة فقط عندما يكون الولاء تامًّا لله. لذا تبدأ الوصايا العشر بثلاثة تحذيرات قصيرة وقاطعة ضِدَّ الوَثَنيَّة. والوَثَنيَّة هي مُحاوَلَة تقديم الولاء لأيِّ شَيءٍ سوى الله أو أكثر من الولاء لله. فتصرخُ الوصايا العشر بأعلى صَوتٍ قائلةً ''لا''؛ فالإله الحقيقيُّ الواحد يَجبُ أن يكونَ مَركز عبادتنا وحياتنا.

إنَّنا اليوم نحتاج لأن نسمع مرَّةً أُخرى أنَّ اللهَ وَحدَهُ هُوَ المُستحِقُّ عبادتنا وطاعتنا؛ إذ إنَّ عِبادةَ الأشياء وباءٌ مُنتشر. إنَّ طَمَعَنا في المزيد هوَ مَصدَرُ الكَثيرِ مِن قراراتِنا. لاحظ أنَّ الوصيَّة الرابعة وهي وصيَّة الراحة في السبت، تضرب في قلب سَعيِنا المَحمومِ إلى التفوُّق. إنَّنا نَجدُ صُعوبَةً بالغةً أن نَستريحَ، في وقتٍ نتوق فيه إلى المزيد مِن العملِ لكي نرتقي فوق الآخرين. لا

يوجدُ احتياجٌ اليوم أكثر من الاحتياجِ إلى حُرِّيَّةٍ أن نضع عن عاتقنا حمل التفوُّق.

إنَّ الوصيَّة التي تَنهَانا عَن الطمع هي الوصيَّة العاشرة. وفي قلب خطيَّة الطمع توجد شَهوَةُ الامتلاك نفسُها. من الواضح أنَّه لا بأس في أن نمتلك شيئًا ما، لكنَّ المشكلة تقع في رغبة الامتلاك القهريَّة التي لا تتوقَّف. إنَّ ما يدينه الله هو الرغبات المُلِحَّة غير المُنضبطة، وما الطمع إلَّا العبادة الوثنيَّة للأشياء. لكنَّ المُشكلة الكُبرى هي أنَّنا كُلَّنا نَشعر بأنَّنا مُتحكِّمون تمامًا في رغبتنا في الأشياء، ولا نعترف بتاتًا بوجود روح الطمع غير المحكومة. والمُشكلة أنَّنا مثلُ مُدمِنِ الخَمرِ، غَيرُ قادِرِينَ أن نُدرِكَ المَرَض حالما يبتلعنا داخله. فقط بمعونة الآخرين، يُمكن أن نَستَشعِرَ الرُّوحَ الداخليَّة التي تضع الثروة قبل اللهِ في حياتنا. ويجب علينا أن نخشى تلك الروح الوثنيَّة التي تقبع خلف الطمع، لأنَّه في اللحظة التي تحظى فيها الأشياء بموقع الصدارة في حياتنا، تُصبح الطاعة التامَّة لله مُستحيلة.

سخاء الله

إنَّ النغمة السائدة في شهادة العهد القديم هي جود الله، الذي يُعطي أولاده بسخاء. مِرارًا وتَكرارًا في قصَّة الخلق، نجد أنَّ كُلَّ شيءٍ في الأرض حسنٌ جدًّا. لقد كان اللهُ يُغدِقُ بوفرةٍ على آدم وحوَّاء.

دعا اللهُ أبرامَ من أور الكلدانيِّين لكي يكون أبًا لأُمَّةٍ جديدة. ومع هذِهِ الدعوَة، كان الوعدُ أن يجعلَ أبرام أُمَّةً عظيمةً وأن يَجعَلَهُ مُثمِرًا ومُزدهرًا مادِّيًّا (تكوين ١٢: ١-٧). وقد تحقَّق هذا الوعد بكُلِّ تأكيد، إذ نقرأ: ''وكانَ أبرامُ غَنيًّا جِدًّا في المَواشي والفِضَّةِ والذَّهَبِ'' (تكوين ١٣: ٢).

وأيضًا إسحاق ابن الموعد، كان غنيًّا: ''...وبارَكَهُ الرَّبُّ. فتعاظَمَ الرَّجُلُ وكانَ يتَزايَدُ في التَّعاظُمِ حتَّى صارَ عظيمًا جِدًّا. فكانَ لهُ مَواشٍ مِنَ الغَنَمِ ومَواشٍ مِنَ البَقَرِ وعَبيدٌ كثيرونَ. فحَسَدَهُ الفِلِسطينيُّونَ'' (تكوين ٢٦: ١٢-١٤).

حتَّى يعقوب، الذي أخذ البركة الأبويَّة من إسحاق بالخداع، كان أيضًا مُبارَكًا. وعندما أراد العودة إلى أرضِهِ، قدَّم إلى عيسو أخيه هدِيَّةً لا يُمكِنُ إلَّا لرجُلٍ ثريٍّ جدًّا أن يُقدِّمها: ٤٩٠ من الحيوانات الثمينة، منها ثلاثون من الجِمال مع صغارها (تكوين ٣٢: ١٣-٢١). يوسف وأيُّوب اجتازا في اختبار الطاعة، وكافأهُما الله بسخاءٍ في النهاية. سُليمان اختار الحكمة قبل الثروة، فأعطاه الله كليهما بسخاء.

سفرُ التثنية حافلٌ بوعود البركة المادِّيَّة، ونُخطئ في فهم السِفر إذا رَوحنَّا هذه البركات. لقد كانت بركات مادِّيَّة حرفيَّة من الأرضِ والغنم والمواشي التي قال الله إنَّه سيُبارك بها شعبه: ''ويُحِبُّكَ ويُبارِكُكَ ويُكَثِّرُكَ ويُبارِكُ ثَمَرَةَ بَطنِكَ وثَمَرَةَ أرضِكَ: قمحَكَ وخمرَكَ وزَيتَكَ ونِتاجَ بَقَرِكَ وإناثَ غَنَمِكَ، علَى الأرضِ التي أقسَمَ لآبائكَ أنَّهُ يُعطيكَ إيَّاها'' (تثنية ٧: ١٣). ويصوِّرُ العدد الكتابيُّ تثنية ١٦: ١٥ جوهر هذا التشريع الذي يتكرَّر في الناموس: ''سبعَةَ أيّامٍ تُعَيِّدُ للرَّبِّ إلهِكَ في المَكانِ الذي يَختارُهُ الرَّبُّ، لأنَّ الرَّبَّ إلهَكَ يُبارِكُكَ في كُلِّ مَحصولكَ وفي كُلِّ عَمَلِ يَدَيكَ، فلا تكونُ إلَّا فرِحًا''. لاحِظ أنَّ الفرح هو بسبب البركة المادِّيَّة والوُفرة من يدِ الربّ.

حتَّى سِفر عاموس الذي كان يُهاجِمُ بشراسةٍ تراكُم الثروة وعدم الشفقة على الفقير، رأى أنَّه سيأتي اليوم الذي فيه...

يُدرِكُ الحارِثُ الحاصِدَ، ودائسُ العِنَبِ باذِرَ الزَّرعِ،
وتَقطُرُ الجِبالُ عَصيرًا، وتَسيلُ جميعُ التِّلالِ.
وأرُدُّ سبيَ شَعبي إسرائيلَ فيَبنونَ مُدُنًا خَرِبَةً ويَسكُنونَ،

وَيَغرِسونَ كُرومًا وَيَشرَبونَ خمرَها،
وَيَصنَعونَ جَنَّاتٍ ويأكُلونَ أثمارَها.
وأغرِسُهُمْ في أرضِهِمْ، ولَنْ يُقلَعوا بَعدُ
مِنْ أرضِهِمِ التي أعطَيتُهُمْ، قالَ الرَّبُّ إلهُكَ.
(عاموس ٩: ١٣-١٥)

ويُعلن النبيُّ ملاخي بكلِّ وضوحٍ أنَّ الشعب إذا فتحوا قُلوبهُم وأطاعوا الربَّ وأعطوا ممَّا لهم، فإنَّ الله سيفتحُ عليهم كُوى السماوات، ويفيضُ عليهِم بركةً حتَّى لا تُوسع (ملاخي ٣: ١٠).

إنَّنا لا نحتاجُ إلى تأكيد على أنَّ الوعد بالبركةِ المادِّيَّة كان وعدًا مشروطًا، إذ لم يكُن ''شيكًا على بياض''، إنَّما كان هُناك شروط. ''إنْ شِئتُمْ وسَمِعتُمْ تأكُلونَ خَيرَ الأرضِ'' (إشعياء ١: ١٩). يعني هذا أنَّهُ كان هُناك تشديدٌ قويٌّ على الطبيعةِ الداخليَّة للبساطة– الطاعةُ المُقدَّسة– والتي كانت شرطًا لكلِّ وُعودِ البركة. وقد كان العطاءُ الشفوقُ للفُقراءِ والمُحتاجين جانبًا مُهِمًّا مِن جوانب هذه الطاعة.

وما المانع في أن تكون نغمات الطاعة العالية مصحوبة بنغمات جماليَّة منها نغمات البركة؟ فإنَّ الله سيكونُ غريبًا جدًّا إذا كافأ الطاعة يومًا ما بمنع بركاتِ الأرضِ عن الذين يُطيعونه. لكنَّ الحقيقة أنَّ هذا كان يحدث أحيانًا، كما يشهدُ كاتِبُ المزمور الذي عبَّر عن حيرتِهِ إزاءِ الأشرار الذين كانوا يزدهِرون بينما كان هو يُعاني مع كلِّ أمانتِهِ (مزمور ٧٣). إنَّ الله أحيانًا يمنعُ البركة المادِّيَّة، لكنَّ هذا استثناءٌ لقاعدة السخاء، وهذا المنعُ أيضًا يكون لخيرنا بطريقة أُخرى. إنَّ الله يُريدُ أن يُعطِي أولادهُ دائِمًا عطايا صالحة.

إنَّ للرَّبط بين الطاعة والبركة دلالةً حقيقيَّة، وهذه الدلالة ليست في مفهوم المكافأة على الطاعة. إنَّ هذا موجود، لكنَّه الأمر الأقلُّ أهمِّيَّة، ولعلَّها أهمِّيَّة طفوليَّة حتَّى. **لكنَّ الحقيقة الأعمق في الطاعة هي في الروح التي تزرعها الطاعةُ فينا.** إنَّها رُوحٌ تصلِبُ الطمع والشهوة. إنَّها روحُ الشفقة والرحمة والخروج خارج الذات والوصول إلى الآخرين. إنَّها روحُ الحساسيَّة والثقة. وما إن يتمكَّن هذا الميلُ من شخصيَّاتنا، حتَّى لا يعودُ في وُسع البركات المادِّيَّة أن تؤذينا لأنَّها عِندئذٍ ستُستخدمُ للأهدافِ الصحيحة، وسنُدركُ أنَّ البركات المادِّيَّة ليست مُعطاةً لِخيرِنا فقط بل لخيرِ الجميع.

هذا يقودنا إلى عاملٍ مُهِمٍّ آخر في فهمِ تشديد العهد القديم على البركات المادِّيَّة. كانت البركاتِ المادِّيَّة الموعودة لخيرِ المُجتمع كُلِّه أكثر من كونِها للفرد، ويكادُ يكونُ هذا بلا استثناءٍ واحِدٍ. فقد كان التركيزُ على مصلحة الأُمَّة بأسرها والقبيلة والعشيرة. أمَّا فِكرةُ أن يقتطع المرءُ قِطعةً من الكعكة ليستمتِع بها بمفرده بمعزلٍ عن الآخرين، فكانت غير واردة.

السخاء يجلبُ السخاء

إنَّ سخاءِ إلهنا العظيم يُحرِّرنا لكي نسخى نحنُ أيضًا نحو الآخرين، ولأنَّه يُعطينا، فنحنُ أيضًا نُعطي الآخرين. هذا الاحتِفالُ بالسخاءِ والكرَم الإلهيَّين نراه في سنة اليوبيل (لاويِّين ٢٥). كانت سنةُ اليوبيلُ دعوةً إلى التحرُّر من الاهتمام بالامتلاك بسبب جود الله وإحسانه، وإعادة تنظيم المجتمع على أساسٍ من العدالة الاجتماعيَّة.

كلَّ خمسين سنة، في يوم الكفَّارة، يُطلَق صوت البوق مُناديًا ''بالعِتقِ في الأرضِ لجميعِ سُكَّانِها'' (لاويِّين ٢٥: ١٠). كُلُّ العبيدِ يُطلَقون أحرارًا. وكلُّ الديون تُلغى. وكلُّ الأراضي تعودُ إلى أصحابِها الأصليِّين.

والجوهريُّ في مفهومِ اليوبيل هو الروح الخالية من الهموم والملآنة بثقة الفرح؛ أنَّ الله يُمكِنُ الاعتمادُ عليه لكي يُعطي عند الحاجةِ، فقد وعد ''فإنِّي آمُرُ ببَرَكَتي لكُمْ...'' (لاويِّين ٢٥: ٢١). لقد كانت روحُ الثقة هي التي تُعطيهم القُدرة على إطاعةِ شريعةِ اليوبيل.

لقد كانت هُناك قاعِدةٌ اجتماعيَّةٌ مُهِمَّةٌ في اليوبيل، التي إذا طُبِّقَت بأمانة (وهذا لم يحدث!)، لكانت قد قضت على المُشكلة العويصة في كون الغنيِّ أكثر غنًى والفقير أكثر فقرًا. لقد كانت، عمليًّا، نوعًا من العدالة القضائيَّة لمصلحة الفقير؛ أي آليَّة شرعيَّة مؤسَّسيَّة لحلِّ هذه المشكلة الاجتماعيَّة والروحيَّة. إنَّ الدائرة المفرغة للفقر يُمكن كسرها. كان الآباء الذين فقدوا كُلَّ شيء واضطُرُّوا إلى بيعِ أنفسهم عبيدًا لكي يبقوا على قيد الحياة، يعلمون أنَّ أولادهم لن يُضطرُّوا لأنْ يرثوا الديون وينسحقوا تحت ذلك الميراث، بل يُمكن أن يبدأوا من جديد. وفي المقابل أيضًا، فإنَّ الأثرياء لن يستمرُّوا إلى الأبد مُسيطرين على الأقلِّ حظًّا.

إنَّنا نُحسن الصنيع اليوم إن تأمَّلنا ذلك الأسلوب الفريد لتحقيق العدالة الاجتماعيَّة، في زمنٍ اتَّسعت فيه الهُوَّة لأبعادٍ مهولةٍ بين من لديهِم ومن ليس لديهِم. بالتأكيد، سيكونُ تبسيطًا مُخِلًّا أن نفترض أنَّنا نستطيع أن نأخُذ قانونًا قديمًا محليًّا ونُعَمِّمه ونطبِّقه على المشهدِ العالميِّ المُعقَّد. لكنَّ الفِكرة الجوهريَّة التي في شريعةِ اليوبيل ليست بعيدةً تمامًا عن أن نُحاوِل أن نستلهِم منها في عصرِنا. في واقع الأمر، يمكنها أن تُعطينا بعض البصيرة في كيفيَّة أن نكون عالمًا أكثر تعقُّلًا وعدلًا.

من الأشياء الأخرى المثيرة للاهتمام بشأن سنة اليوبيل، هو منظورها عن الأرض، وهو منظورٌ يُميِّز فِكرَ العهد القديم. فليست للأرض قيمة في ذاتها، وإنَّما في عدد المحاصيل التي تُنتجها حتَّى وقت اليوبيل (لاويِّين ٢٦: ١٦). لم تكُن الأرض تُستخدَم في الاستثمار، كما هو شائعٌ هذه الأيَّام. كانت الفكرة أنَّ بني إسرائيل لم يمتلكوا الأرض، إنَّما كانوا فقط يستخدمونها. وقد كان الله هو مالك الأرض: ''والأرضُ لا تُباعُ بَتَّةً، لأنَّ ليَ الأرضَ، وأنتُمْ غُرَباءُ ونُزَلاءُ عِندي'' (لاويِّين ٢٥: ٢٣). كما هي الحال لأمين الصندوق أو رئيس خَدَم المنزل، كانت سُلطة البشر على الأرض نوعًا من الإشراف وليس المُلكيَّة. وقد قسَّم الله الأرض بصورة تجعل الجميع يستفيدون من محصولِها.

هذه القاعدة من التوزيعِ العادِلِ بدلًا من تراكُم الثروة، والإدارة بدلًا من المُلكيَّة، كانت فكرة ثوريَّة في ذلك الوقت، تمامًا مثلما هي الآن. ماذا كان ليحدُثَ لو جرى قبول هذه الفكرة اليوم، وهي أنَّ الهدف من الأرض هو أن تخدم احتياجات البشر بدلَ أن تكون فُرصةً لتعظيمِ الذات على حساب الآخرين؟ ماذا يكونُ ردُّ الفعلِ في أوساطِ الاستثمارات العقاريَّة؟ رُبَّما لن يلقى هذا الأسلوب قبولًا واسعًا. لكن ماذا يحدث إذا آمن المسيحيُّون أنَّ الأرض هي لخيرِ الجميعِ على حدٍّ سواء؟ هل من الممكن أن تُطلق هذه المجموعة وحدها مواردها لتجتثَّ الجُوع من على وجهِ الأرض؟

ليس لدينا دليلٌ تاريخِيٌّ أنَّ الشعب طبَّقوا شريعة اليوبيل بالفعل. لكنَّ هذا يدُلُّ فقط على كونِهم في أغلب الوقت شعبًا صلب الرقبة عديم الطاعة، لا على مدى إمكانيَّة تطبيق هذا النظام، أو حتَّى مدى الاحتياج إليه. إنَّ شريعة اليوبيل تكشف لنا اهتمام الله العميق والثابت بالعدالة والمساواة.

شريعة الباكورة أيضًا توضِّح أنَّ سخاءنا ينبُعُ من سخاء الله. لقد كانت هذه الشريعة تفرضُ على المُزارعين أن يُقدِّموا أوَّل ما ينضُجُ من المحصول لله، وهذا كان عملًا من أعمالِ الثقةِ في الجُودِ الإلهِيّ. لقد كان الشعب يعطون الباكورة واثقين أنَّه سيُمكنهُم أن يحصلوا على باقي المحصول بعد أن ينضج. لقد كان هذا العطاء نوعًا من الاعتراف العمليِّ بالله بصفته المُعطي الكريم لكُلِّ خيرٍ.

وعلى مثال شريعة الباكورة، كانت شريعة العُشر نوعًا من الاحتفال المُبهِج. في أيَّام يسوع، كان يُساء استخدام تلك الشريعة، كما هي الحال في أيَّامنا. من المُحزن أن نرى العشور، التي كان المقصود بها التعبير عن الحُرِّيَّة والفرح، قد تحوَّلت إلى طريقة لوضع القيود على الناس.

ذُكِرت عادةُ إعطاءِ العُشر أوَّل مرَّة في الكتاب المقدَّس مع إبراهيم. فعند عودته من الغارة الانتقاميَّة على ملوك المنطقة، قدَّم إبراهيم بسرورٍ إلى ملكي صادق عُشر الغنائم وأعطى الباقي كُلَّهُ لملِكِ سدوم. وبالرغم من أنَّ الملك لم يقبل، فقد أصرَّ إبراهيم: ''...فلا تقولُ: أنا أغنَيتُ أبرامَ'' (تكوين ١٤: ١٧- ٢٤). أعطى إبراهيمُ بسخاءٍ ابتهاجًا واحتفالًا بالنصر الذي أعطاه له الله على أعدائه. لم يكُن يعدُّ كُلَّ شاقل فضَّة ليتأكَّد أنَّه أبقى على حصَّته، إنَّما كان يريد أن يتخلَّص من الغنائم كلِّها. لقد كانت هناك روح فرحٍ وحُرِّيَّة مُرتبطة بالعطاء، وليس خوفًا وقيودًا.

تُصِرُّ الشريعةُ المُوسويَّة دائمًا على رُوحِ الفرح والاحتفال؛ إذ كان عُشر الدخل لكُلِّ واحِدٍ من بني إسرائيل، بعد الباكورة، يُقدَّمُ للهِ احتفالًا بجود الله وإحسانه. كان هذا المال يُستخدَم لإعالة اللاويِّين، والغُرباء والفُقراء والمُحتاجين. كما أنَّهُ كان يُستخدَمُ أيضًا لتسديدِ تكاليف الاحتفالات التي كانت تقامُ ابتهاجًا بالحصاد والكرم الذي يغدقه الله على شعبه:

> ''تعشيرًا تُعَشِّرُ كُلَّ مَحصول زَرعِكَ...وتأكُلُ أمامَ الرَّبِّ إلهِكَ، في المَكانِ الذي يَختارُهُ ليُحِلَّ اسمَهُ فيهِ، عُشرَ حِنطَتِكَ وخمرِكَ وزَيتِكَ، وأبكارِ بَقَرِكَ وغَنَمِكَ، لكَيْ تتَعَلَّمَ أنْ تتَّقيَ الرَّبَّ إلهَكَ كُلَّ الأيّامِ...وأنفِقِ الفِضَّةَ في كُلِّ ما تشتَهي نَفسُكَ في البَقَرِ والغَنَمِ والخمرِ والمُسكِرِ وكُلِّ ما تطلُبُ مِنكَ نَفسُكَ، وكُلْ هناكَ أمامَ الرَّبِّ إلهِكَ وافرَحْ أنتَ وبَيتُكَ. واللاويُّ الذي في أبوابِكَ لا تترُكهُ، لأنَّهُ ليس لهُ قِسمٌ ولا نَصيبٌ معكَ'' (تثنية ١٤: ٢٢-٢٧).

أي أنَّ العُشور كانت تسدِّد كلَّ نفقات تلك العُطلة الدينيَّة، فتُنفَق أموال العشور لإقامة احتفال مقدَّس مجيد! ويعني هذا أنَّه في قلب شريعة العشور، هناك مفهوم العبادة والفرح والاحتفال.

ولم يكُن هذا كُلَّ شيء؛ إذ يُمكننا في شريعة العشور أن نرى اهتمام الله بالفقراء والمحتاجين، الذي هو مُكوِّنٌ أساسيٌّ من مُكوِّنات البساطة. في السنة الثالثة، كانت أموال العشور التي تُجمع تُستخدَم بصورةٍ خاصَّةٍ لإعالةِ من لا يستطيعون إعالة أنفسهم. ''في آخِرِ ثَلاثِ سِنينَ تُخرِجُ كُلَّ عُشرِ مَحصولكَ في تِلكَ السَّنَةِ وتَضَعُهُ في أبوابِكَ. فيأتي اللاويُّ، لأنَّهُ ليس لهُ قِسمٌ ولا نَصيبٌ معكَ، والغَريبُ واليَتيمُ والأرمَلَةُ الذينَ في أبوابِكَ، ويأكُلونَ ويَشبَعونَ، لكَيْ يُبارِكَكَ الرَّبُّ إلهُكَ في كُلِّ عَمَلِ يَدِكَ الذي تعمَلُ'' (تثنية ١٤: ٢٨-٢٩). في المُجتمع الزراعِيِّ، كانت الأرض هي المصدر الأساسيَّ لإعالة البشر، لذلك فإنَّ اللاوي والغريب الذين لم تكن لهُم أراضٍ، كانوا غير قادرين على إعالة أنفُسِهِم. وفي ثقافةٍ أبويَّةٍ كتلك، كان اليتيم (الذي بلا أبٍ) أيضًا غير قادرٍ على إعالة نفسه. وبالنظر إلى بُنية الثقافة اليهوديَّة في تلك الحِقبة، كانت هذه المجموعات البشريَّة الأربع هي الأقلَّ قُدرةً على إعالة أنفسهم وبسبب شفقة الله واهتمامه بهم، كانت إعالتهم منصوصًا عليها في شريعة العُشر.

ومن المُهمِّ الآن أيضًا، بالنظر إلى تركيبة المجتمع المعاصر، أن نتعرَّف إلى المجموعات البشريَّة المُقابلة للَّاويِّين والغرباء والأيتام والأرامل. هل هناك في ثقافتنا مجموعات غير قادرة على إعالة أنفسها؟ وإذا كان الأمر كذلك، أليست مسؤوليَّة الباقين أن يتجاوبوا مع احتياجاتهم؟

يجب أيضًا مُلاحظة أنَّ العهد الجديد لا يستخدم مفهوم العشور أو الباكورة. لقد قال يسوع الكثير عن توجُّهاتنا نحو

الممتلكات الماديَّة، لكنَّه ذكرَ العشور مرَّتين فقط، وفي المرَّتين كان ذكره لها سلبيًّا (لوقا ١٨: ٢١؛ متَّى ٢٣: ٢٢). وتكلَّم الرسول بولس أيضًا كثيرًا عن العطاء، لكنْ يُلاحَظ أنَّه لم يُشِر إلى شريعة العشور ولا غيرها من شرائع العهد القديم المثيلة. لم يجعل أيٌّ من بولس أو المسيح من العُشورِ أساسًا للوكالة المسيحيَّة. وسنكتشِفُ سبب ذلك في الفصل الثالث.

رُبَّما يكونُ إبراهيمُ نموذجنا لفهمِ مبدأ الكرَم. فها هو رجُلٌ قد أُعطِي ثروة عظيمة لكنَّهُ لم يكُن ممَّن يُخزِّنون الثروات أو مِمَّن تتحكَّم فيهم الأموال، لكنَّه كان يُشاركُ كُلَّ ما لهُ مع عشيرته. لقد كان إبراهيم يُمثِّل موقفًا غير عادِيٍّ من الاسترخاء والحُرِّيَّة تجاه الممتلكات. عندما أدَّت روح الطمع لدى لوط إلى حدوث خلاف بينهما، أعطاهُ إبراهيم حرفيًّا الحرِّيَّة أن يختار الأرض التي يريدها (تكوين ١٣: ٥- ١٢). مجَّانًا أخذ؛ مجَّانًا أعطى.

الدعوة إلى تحقيق العدل

إنَّ الدعوة إلى تحقيق العدل هي أحد الموضوعات الكبيرة التي تتردَّد في أسفار العهد القديم كُلِّه. يُمكِنُنا أن ننال نظرةً مُهمَّةً بشأن الدعوة إلى تحقيق العدل من الكلمة العبريَّة ''**مِسفات**''. لقد كانت هذه كلمة كثيرة الاستخدام وغنيَّة في المعنى، وهي مصطلح قانونيٌّ يحمل أيضًا إشاراتٍ أخلاقيَّة ودينيَّة. إنَّ كلمة ''**مِسفات**'' تحمل بُعدًا أخلاقيًّا علاوةً على العدالة القانونيَّة الصارمة؛ فهي تتضمَّن مُراعاة عادةٍ حسنة ومُمارسةٍ مستقرَّة في الثقافة، وهي التوزيعُ العادل للأرض. وكانت تُستخدَم باستمرارٍ مرتبطةً بالكلمة العبريَّة التي تُعبِّر عن البرِّ، لذا يعتقد الباحث الكتابيُّ ڤولكمار هيرنتريش (Volkmar Herntrich) أنَّ المفهومَين معًا يُعدَّان مترادفَين.[١] ويُرى هذا بوضوح في الدعوة المُلتهبة التي يقدِّمها النبيُّ عاموس: ''لَكِنْ لِيَجْرِ العَدلُ مُتَدَفِّقًا كَالمَاءِ، وَالبِرُّ كَجَدوَلٍ دَائِمِ التَدَفُّقِ وَالجَرَيَانِ'' (عاموس ٥: ٢٤، الترجمة العربيَّة المبسَّطة).

يخبرنا سِفرُ التثنية أنَّ يهوه هو ''الصانِعُ حَقَّ اليَتيمِ والأرمَلَةِ، والمُحِبُّ الغَريبَ ليُعطيَهُ طَعامًا ولِباسًا'' (تثنية ١٠: ١٨). ثُمَّ يُعلن كاتب المزمور: ''الرَّبُّ مُجري العَدلِ والقَضاءِ لجميعِ المَظلومينَ'' (مزمور ١٠٣: ٦).

كان العدل يتضمَّنُ الحِكمة في إدارة علاقاتٍ مُتوازنة ومُنسجمة بين أفراد الشعب. صلَّى الملك سُلَيمان لكي يحصُل من الله على حكمة لكي يحكم الشعب، فاستجاب الله له وقال: ''لأنَّكَ طَلَبتَ...القُدرَةَ على تمييزِ ما هوَ حَقٌّ **(مِسفات)**'' (١ملوك ٣: ١١).

كان على القادة السياسيِّين أن يُمارسوا هذا النوع من الرحمة الأخلاقيَّة بالنيابة عن كُلِّ الشعب. وقد اتَّهم النبيُّ ميخا حُكَّام إسرائيل بأنَّهم يأكلون لحم البشر اقتصاديًّا بظُلمِهِم الفاحش. وصار يرثي للحال التي وصلت إليها إسرائيل قائلًا: ''...والذينَ يأكُلونَ لَحمَ شَعبي، ويَكشُطونَ جِلدَهُمْ عنهُمْ، ويُهَشِّمونَ عِظامَهُمْ، ويُشَقِّقونَ كما في القِدرِ، وكاللَّحمِ في وسَطِ المِقلَى'' (ميخا ٣: ١-٣). وكان إرميا كسير القلبِ بسببِ غياب العدالة عن أورشليم، حيث إنَّ المرء يبحثُ في الشوارع عمَّن يعمل بالعدل فلا يجد (إرميا ٥: ١).

وقد أُعلِنت تحذيرات مُتكرِّرة ضدَّ الفشل في إجراء العدل: ''مَلعونٌ مَنْ يُعَوِّجُ حَقَّ الغَريبِ واليَتيمِ والأرمَلَةِ...'' (تثنية ٢٧: ١٩).** وعلى الجانب الآخر كانت البركات الموعود بها لمن يُجرون العدل عظيمة: ''[طوباه] المُجري حُكمًا للمَظلومينَ، المُعطي خُبزًا للجياعِ...'' (مزمور ١٤٦: ٧).

لم يدَّخر الأنبياء وُسعًا في التنديد بالفشل الذريع في إجراء العدل. ومثالٌ لاذعٌ لذلك كانت دعوة عاموس التي تردَّدت عبر نُبوَّته كلِّها حيث اتَّهم الشعب أنَّهم ''باعوا البارَّ بالفِضَّةِ، والبائسَ لأجلِ نَعلَينِ'' (عاموس ٢: ٦). كما اتَّهم النساء أنَّهنَّ

يظلمنَ المساكين ويسحقنَ البائسين، في سعيهِنَّ إلى تحقيق مستوًى معيشيٍّ أعلى (عاموس ٤: ١). لقد امتلأ الشعبُ جدًّا بالطمع والجشع حتَّى إنَّهم لا ينتظرون أن ينتهي السبت، قبل أن يُصغِّروا الإيفة ويُكبِّروا الشاقل ويُعوِّجوا موازين الغشِّ (عاموس ٨: ٤-٦). كانت الرشوة الممارسة اليوميَّة المُعتادة، وكان القُضاة العادلون الذين يتكلَّمون بالحقِّ مُحتقرين (عاموس ٥: ١٠، ١٢). فلا عجب إن كان عاموس يصرخ أن يجريَ ''...العَدلُ مُتَدَفِّقًا كَالمَاءِ، وَالبِرُّ كَجَدوَلٍ دَائِمِ التَدَفُّقِ وَالجَرَيَانِ''.

وبينما كان عاموسُ يهاجم ما يحدث في إسرائيل في الشمال، كان إشعياء في المملكة الجنوبيَّة يشجُب قائلًا: ''كُلُّ واحِدٍ مِنهُمْ يُحِبُّ الرَّشوَةَ'' (إشعياء ١: ٢٣). وقد صوَّر إشعياء مشهد قاعة محكمة فيه كان الله مُمثِّل الادِّعاء الذي يفضح الممارسات الظالمة للحُكَّام: ''...ما لكُمْ تسحَقونَ شَعبي، وتَطحَنونَ وُجوهَ البائسينَ؟...'' (إشعياء ٣: ١٣-١٥).

لقد امتدَّ ظُلمُ مملكة يهوذا حتَّى وصل إلى الأحكام الرسميَّة والسجلَّات القانونيَّة. وبعد أن أسَّس الله عدالة رحيمة، أقام الحُكَّام والرؤساء نظامًا من العدالة القاسية الباطشة: ''ويلٌ للذينَ يَقضونَ أقضيَةَ البُطلِ، ولِلكتبةِ الذينَ يُسَجِّلونَ جَوْرًا'' (إشعياء ١٠: ١-٢). ويُخبرنا الكتاب المقدَّس أنَّ الله يرفُضُ طُقوس يهوذا الدينيَّة لأنَّها كانت مُلوَّثةً بالظُّلم الاجتماعيّ. إنَّ الحياة التي تُرضي الربَّ ليست في سلسلة الواجبات الدينيَّة وإنَّما في الطاعة والعدل. إنَّ الصوم المقبول عند الله هو بحسب ما قال: ''أليس هذا صَوْمًا أختارُهُ: حَلَّ قُيودِ الشَّرِّ...وإطلاقَ المَسحوقينَ أحرارًا...أليس أنْ تكسِرَ للجائعِ خُبزَكَ، وأنْ تُدخِلَ المَساكينَ التائهينَ إلَى بَيتِكَ؟...'' (إشعياء ٥٨: ٥-٧).

ومن بين الأنبياء، لم تكُن هُناك دعوةٌ أكثر حُزنًا من صوت إرميا، الذي لم يُسمَّ ''النبيَّ الباكي'' من دون سبب. كم أحبَّ المدينة العظيمة، أورشليم، وتألَّم بسبب خطيَّة شعبها، ورجاهُم أن يتوبوا! كم انكسر قلبُهُ عندما تحقَّقت نبوَّاته بخراب أورشليم! لقد كان في هذه الأوقات اليائسة شخصيَّة حزينة لكنْ أمينة.

ومثل الآخرين من قبله، دعا إرميا الشعب قائلًا: ''أجروا حَقًّا وعَدلًا، وأنقِذوا المَغصوبَ مِنْ يَدِ الظَّالِمِ، والغَريبَ واليَتيمَ والأرمَلَةَ'' (إرميا ٢٢: ٣). مِرارًا وتَكرارًا، دعا سامعيه أن يقضوا في دعوى اليتيم ويقضوا قضاء الفقير والمسكين (٥: ٢٨، ٢٢: ١٥). لكن كان عليه أن يعترف حزينًا بالقول: ''لأنَّ عَينَيكَ وقَلبَكَ لَيسَتْ إلَّا علَى خَطفِكَ، وعلَى الدَّمِ الزَّكيِّ لتَسفِكَهُ، وعلَى الِاغتِصابِ والظُّلمِ لتَعمَلهُما'' (إرميا ٢٢: ١٧).

وكانت المأساة أنَّ السبي كان يُمكن تجنُّبه لو أنَّ الشعب كان قد عاد إلى الله تائبًا: ''لأنَّكُمْ إنْ أصلَحتُمْ إصلاحًا طُرُقَكُمْ وأعمالكُمْ، إنْ أجرَيتُمْ عَدلًا بَينَ الإنسانِ وصاحِبِهِ، إنْ لَمْ تظلِموا الغَريبَ واليَتيمَ والأرمَلَةَ، ولَمْ تسفِكوا دَمًا زَكيًّا في هذا المَوْضِعِ، ولَمْ تسيروا وراءَ آلِهَةٍ أُخرَى لأذائكُم فإنِّي أُسكِنُكُمْ في هذا المَوْضِعِ، في الأرضِ التي أعطَيتُ لآبائكُمْ مِنَ الأزَلِ وإلَى الأبدِ'' (إرميا ٧: ٥-٧). لكِنَّ السبي حدث فعلًا، وتردَّدت مأساته عبر القرون. لقد دفع تضافُر الظلم مع عبادة الأوثان، اللهَ أن يُرسل إسرائيل إلى الأسر على يد أعدائهم.

الدعوة إلى الرحمة

إنَّنا نجِدُ موضوع الرحمة مُمتدًّا في نسيج العهد القديم كلِّه ويُمكن أن نراه بوضوحٍ وحيويَّة في الكلمة ذاتِ المعاني اللاهوتيَّة الغنيَّة **خِسِد**. هذه الكلمة ملآنة بالمعاني التي صارع المُترجمون لكي يجدوا لها مُقابلًا باللغات المعاصرة، وعادةً ما كانوا يُترجِمونها ''المحبَّة العطوفة'' (Loving Kindness) أو ''الرحمة'' (Mercy). لكنَّ **خِسِد** تحمل أيضًا معنى الصبر والاحتمال والأمانة. إنَّ هذه الكلمة كثيرًا ما تُستخدَم للإشارة إلى رحمة الله التي لا تتوقَّف من نحو شعبه. فرحمة الربِّ إلى الدهر والأبد (مزمور ١٠٣: ١٧). للأبد رحمته (مزمور ١٠٦: ١). هذه الرحمة التي لا حدود لها هي ما أعلنه الله لموسى عندما

طلب أن يرى مجده: ''الرَّبُّ إلهٌ رحيمٌ ورؤوفٌ، بَطيءُ الغَضَبِ وكثيرُ الإحسانِ **(خِسِد)** والوَفاءِ. حافِظُ الإحسانِ **(خِسِد)** إلَى أُلوفٍ. غافِرُ الإثمِ والمَعصيَةِ والخَطيَّةِ'' (خروج ٣٤: ٦-٧).

لكن (وهنا يكمُن التحدِّي الكبير) هذه المحبَّة العهديَّة، وهذه الرحمة المثابرة، المحوريَّة في شخصيَّة الله، يجبُ أن تنعكس أيضًا في شخصيَّاتنا نحنُ البشر. يُعلن الله بفم هوشع النبيِّ: ''إنِّي أُريدُ رَحمَةً لا ذَبيحَةً، ومَعرِفَةَ اللهِ أكثَرَ مِنْ مُحرَقاتٍ'' (هوشع ٦: ٦). وتقدِّم حكمة الأمثال هذه النصيحة: ''التَّابِعُ العَدلَ والرَّحمَةَ يَجِدُ حياةً، حَظًّا وكرامَةً'' (أمثال ٢١: ٢١).

لكن الأكثر عجبًا هو الطريقة التي يربط بها كُتَّاب العهد القديم بين العدل (مِسفات) والرحمة (خِسِد). وهذا لأنَّ إعطاء الناس حقوقهم هو شيء، أمَّا طبيعة القلب الذي يدفعنا في تعاملنا مع هؤلاء الناس، فهذا شيءٌ آخر. استقبل زكريَّا هذه الكلمة العظيمة من الله: ''هكذا قالَ رَبُّ الجُنودِ قائلًا: اقضوا قَضاءَ الحَقِّ **(مِسفات)**، واعمَلوا إحسانًا ورَحمَةً **(خِسِد)**، كُلُّ إنسانٍ مع أخيهِ. ولا تظلِموا الأرمَلَةَ ولا اليَتيمَ ولا الغَريبَ ولا الفَقيرَ، ولا يُفَكِّرْ أحَدٌ مِنكُمْ شَرًّا علَى أخيهِ في قَلبِكُمْ'' (زكريَّا ٧: ٩-١٠). وفي دعوة هوشع إلى التوبة، يرجو النبيُّ شعبه بِرِقَّة: ''وأنتَ فارجِعْ إلَى إلهِكَ. اِحفَظِ الرَّحمَةَ **(خِسِد)** والحَقَّ **(مِسفات)**، وانتَظِرْ إلهَكَ دائمًا'' (هوشع ١٢: ٦). ويُمكننا أن نحسب الأعداد الكتابيَّة التالية من أكثر الأعداد تلخيصًا وبصيرةً لمهمَّتنا هذه في البحث في العهد القديم، وهو اقتباسٌ من نبوَّة النبيِّ ميخا نجد فيه التطبيق الخارجيَّ للعدل منسوجًا مع روح الرحمة والمحبَّة:

> قد أخبَرَكَ أيُّها الإنسانُ ما هو صالِحٌ، وماذا يَطلُبُهُ مِنكَ الرَّبُّ، إلَّا أنْ تصنَعَ الحَقَّ وتُحِبَّ الرَّحمَةَ، وتَسلُكَ مُتَواضِعًا مع إلهِكَ (ميخا ٦: ٨).

يدعونا مزيج العدل والرحمة إلى بساطة الحياة. فالعهد القديم مُرصَّع بما أسمِّيه شريعة الرحمة والاهتمام. رُبَّما واحدة من الشرائع التي يُمكن إدراكها بسرعة في هذا المجال، شريعة الالتقاط (لاويِّين ١٩: ٩-٢٠، ٢٣: ٢٢؛ تثنية ٢٤: ١٩-٢٠). في الحصاد، كان على المزارع أن يترك بعضًا من محصوله على حدود حقله، والحبوب التي تتساقط منه وهو يعمل، لتكون من حقِّ الفقراء أن يلتقطوها. ''وعندما تحصُدونَ حَصيدَ أرضِكُمْ، لا تُكَمِّلْ زَوايا حَقلِكَ في حَصادِكَ، ولُقاطَ حَصيدِكَ لا تلتَقِطْ. للمِسكينِ والغَريبِ تترُكُهُ. أنا الرَّبُّ إلهُكُمْ'' (لاويِّين ٢٣: ٢٢). وبالمثل لا تُحصَد الكُروم وأشجار الزيتون بالكامل وذلك حتَّى يكون هناك ما يعيش عليه المُحتاجون. ويقدِّم لنا سِفر راعوث صورةً حيَّةً عن الرفق الذي في هذه الشريعة. كانت نُعمِي وكنَّتها راعوث، قد أتيَتا إلى إسرائيل بلا زوجٍ ولا أرضٍ، لذا كانتا عاجزتَين عن إعالة نفسيهما، لكنْ سُمِحَ لراعوث بالالتقاط من حقل بوعز (راعوث ٢: ١).

إنَّ في قلب الله رحمةً واهتمامًا بالمنكسرين واليائسين والمحتاجين. وبشريعة الالتقاط، وضع اللهُ في اقتصاد إسرائيل معونةً لمن، لسببٍ أو لآخر، أصبحوا في حالة لا يُحسدون عليها. ويبدو أنَّهُ كانت هُناك لامُبالاة مُقدَّسة نحو السؤال عمَّا إذا كان ذلك الإنسانُ قد استحقَّ أن يكون فقيرًا أم لا، فقط تكفي الحقيقة البسيطة أنَّه بلا مورد لكي تُسدَّد احتياجاته.

يمكن أيضًا أن نتأمَّل اللطف والرحمة في الشرائع القديمة بشأن الارتهان. إذا اقترض شخصٌ من جاره محراثًا وترك لديه رداءهُ رهنًا، كان يجب أن يُعيد إليه الرداء قبل غروب الشمس حتَّى وإن لم يكن قد انتهى من استخدام المحراث. لماذا؟ لأنَّ ريح المساء تكون باردة والجار يحتاج إلى ردائه ليستدفئ به. وإذا رفضتَ وصرخ الجار إلى الربِّ في الليلة الباردة، فالله يُحذِّر قائلًا: ''فيكونُ إذا صَرَخَ إلَيَّ أنِّي أسمَعُ، لأنِّي رَؤوفٌ'' (خروج ٢٢: ٢٦-٢٧). ويجعلُ سِفرُ التثنية هذه القاعدة مُلزِمةً،

لا سيَّما إذا كان الذي يرهن ثوبه رجلٌ فقيرٌ؛ لأنَّهُ على الأرجح ليس لديه ثوبٌ آخر يبقيه دافئًا (تثنية ٢٤: ١٢). ولا يُمكن أخذ رداء أرملةٍ ليكون رهنًا، فهي عاجزة بما يكفي (تثنية ٢٤: ١٧). أيضًا، لا يُمكن أخذُ حجر الرحى رهنًا، فهي من مصادر الرزق للإنسان (تثنية ٢٤: ٦). كما كان ممنوعًا اقتحام بيت الآخر لأخذ الشيء المُرتهن، إذ كان يجب أن تنتظر عند الباب الخارجيِّ لكي يُحضره لك (تثنية ٢٤: ١٠-١١). كان الأدبُ واللباقة أمرَيْن يجبُ أن يتخلَّلا كُلَّ العلاقات البشريَّة، حتَّى علاقات العمل.

لاحِظ طريقة التعامُل مع الديون. لأنَّ المديونين في الأغلب يكونون من الفقراء والضعفاء، فإنَّ تحصيل فائدة على الدين كان يُعَدُّ استغلالًا لأوضاع الآخر لا يليق بالأُخوَّة، ومن شأنه أن يزيد من احتياج الآخر واعتماديَّته (تثنية ٢٣: ١٩).

وكان ينبغي أن تُدفع الأجور للفقير في اليوم نفسه الذي يتمُّ فيه العمل دون تأجيل، لأنَّ المال رُبَّما يكون ضروريًّا لشراء وجبة العشاء (تثنية ٢٤: ١٤-١٥). وإذا جُعتَ، فيمكنك أن تأكل من الكرمة أو حقل الحبوب الذي لجارك، لكنَّه غير مُصرَّح لك أن تجمع أيَّ عنب أو حبوب في دلو (تثنية ٢٣: ٢٤). وهكذا. تدورُ هذه الوصايا كُلُّها حول الرحمة والشفقة والحكمة في العلاقات بين الناس.

هذا النوعُ من الرحمة امتدَّ حتَّى إلى الحيوانات والأرض. كثيرًا ما ننسى أنَّ شريعة الراحة في السبت تتضمَّن أيضًا الماشية: ''سِتَّةَ أَيَّامٍ تعمَلُ عَمَلكَ. وأمَّا اليومُ السَّابعُ ففيهِ تستَريحُ، لكَيْ يَستَريحَ ثَوْرُكَ وحِمارُكَ، ويَتَنَفَّسَ ابنُ أمَتِكَ والغَريبُ'' (خروج ٢٣: ١٢). وتحتاج الأرض نفسها إلى ''سنة عُطلة'' (لاويِّين ٢٥: ٥). في السنة السابعة لا زرع ولا حصاد، لأنَّ الأرض ''تسبِتُ الأرضُ سبتًا للرَّبِّ'' (لاويِّين ٢٥: ٢). حتَّى تُربة الكروم، كان يجب ألَّا يجري إرهاقها بزرع محاصيل أخرى بين خطوطها (تثنية ٢٢: ٩). والثيران التي تحرث، لا تُكمُّ لكي يُسمح لها بأن تأكل وهي تعمل (تثنية ٢٥: ٤). يُمكن أخذ الطيور الصغيرة، لكنَّ الدجاجة الأمُّ يجب أن تُترك لكي ترعى بقيَّة البيض وتنتج طيورًا جديدة (تثنية ٢٢: ٦-٧).

كان الغرض من هذه التعليمات أن يكون سُلطاننا، نحن البشر، على الأرض وعلى كلِّ الحيوانات الصغيرة التي تزحف عليها، سُلطانًا رحيمًا. يجب ألَّا نغتصب الأرض بل أن نرعاها بلُطفٍ ومحبَّةٍ ورِقَّة.

إنَّ من شأن هذه الشرائع والتنظيمات والأحكام الأخلاقيَّة القديمة أن تُليِّن عُنقَنا البشريَّ وتُهدِّئه. كما هي الحال مع ذلك المنِّ الغامض الذي كان ينزل من السماء، كان هُناك ما يكفي لتسديد احتياجات الفرد، لكن ليس للتخزين. هُناك حُدودٌ للخيرات، وعندما يتجاوز المرءُ هذه الحدود، فإنَّ الخير ينقلب إلى شرٍّ. ودَورُنا هو أن نُعيد الأشياء إلى المنظور الذي يقصدُهُ الله. وتعطينا شرائع العهد القديم هذه إشارات مهمَّة إلى ذلك المنظور.

الدعوة إلى السلام والاكتمال

إن رُؤية العهد القديم للاكتمال والسلام التي تُشرقُ كمنارةٍ بين طيَّات أسفاره، تُعطينا بصيرةً مهمَّة بشأن البساطة المسيحيَّة. ونجد هذا الموضوع يتبلور بصورةٍ مدهشة في الكلمة العبريَّة **شالوم**، وهي تُمثِّل مفهومًا متكاملًا يُردِّدُ صدى الاكتمال والسلام والوحدة والاتِّزان.[٢] الاجتماع بسلام يعني أن يكون هُناك مُجتمعٌ متناغمٌ وعطوفٌ، حيث اللهُ في المركز بصفته حافظه الأوَّل وساكنُهُ الأمجد. هذه الرؤية العظيمة **للشالوم** تفتتحُ كتابنا المُقدَّس وتختتمُه. في رُواية الخلق، خلق الله النظام والتناغُم من الفوضى، وفي رؤيا يوحنَّا اللاهوتيِّ، نرى الاكتمال والسلام التامَّ في الأرض الجديدة والسماء الجديدة. الطفلُ المسيانيُّ الذي يولد يصيرُ رئيس السلام (إشعياء ٩: ٦). العدلُ والبرُّ والسلامُ يُميِّزون مملكتهُ (إشعياء ٩: ٧). والمحوريُّ في حُلم **الشالوم** هذا، هو الرؤية العجيبة لكلِّ الأمم بينما يتدفَّقون إلى هيكل الربِّ فوق جبل صهيون لكي يتعلَّموا طُرُق الربِّ ويسلكوا

فيها، ويطبعوا سُيوفهُم سِككًا ورماحهم مناجل (إشعياء ٢: ٢-٥؛ ميخا ٤: ١-٤). تحملُ كلمة **شالوم** حتَّى فكرة الوحدة والانسجام في نظام الخليقة، حيث يصبح الدبُّ والبقرة صديقين، ويرقد الأسدُ والحمل معًا وطفل صغير يقودهما (إشعياء ١١: ١-٩). نصبح في حالة تناغمٍ مع الله ويسود الولاء. يصبح الإنسان في تناغمٍ وانسجامٍ مع قريبه الإنسان، ويسود العدل والرحمة ونُصبح في تناغُم مع الطبيعة، ويسودُ السلام وتتحقَّق الوحدة والاكتمال.

وفي مشهدٍ رقيقٍ استثنائيٍّ، يرثي إرميا حالة الفساد والطمع والسرقة التي أصابت الأنبياء والكهنة قائلًا: ''ويَشفونَ كسرَ بنتِ شَعبي علَى عَثَمٍ قائلينَ: سلامٌ، سلامٌ. ولا سلامَ'' (إرميا ٦: ١٤)، أي أنَّ إرميا رفع قضيَّة إهمالٍ مِهَنيٍّ جسيم ضِدَّ رجال الدِّين الدجَّالين المُدَّعين الذين وضعوا ضمادة تافهة فوق جرح اجتماعيٍّ عميق وقالوا: ''«شالوم، شالوم»، كلُّ شيءٍ على ما يُرام''. لكنَّ إرميا أرعد بصوته ونادى بما مفاده: ''«إنشالوم»، كلُّ شيء **ليس** على ما يُرام. العدالة غائبة، والفقراء مسحوقون، والأيتام متروكون. لا سلام ولا اكتمال ولا شفاء''.

لكنَّ سلام الله الشافي لن يُبدَّد إلى الأبد. لقد تنبَّأ إشعياء بيوم فيه تصبح المُصالحة بين الشعب حقيقة واقعة- يومٍ يسود فيه العدل والبرُّ، تنبَّأ بوقتٍ يحكم فيه سلام الله وفيه الشعب ''يَسلكُ في نُورِ الرَّبّ'' (إشعياء ٢: ٤-٥).

وفي عددٍ كتابيٍّ فريدٍ ومثيرٍ للمشاعر، يربط الكتابُ المُقدَّس تلك المفاهيم العبرانيَّة الثلاث: العدل والرحمة والسلام. فيشير كاتب المزمور إلى يومٍ فيه ''الرَّحمَةُ والحَقُّ التَقَيا. البِرُّ والسَّلامُ تلاثَما'' (مزمور ٨٥: ١٠).

ما كلمةُ الله إلى العالم الذي نعيشُ فيه اليوم؟ هل يرى العدل والبرَّ يزدادان بيننا؟ هل يُحزنُهُ غيابُ الرحمة؟ هل يوجد من يعتنقون سلامه كأسلوب حياة؟

إنَّني لا أُقدِّمُ هذه الأسئلة فقط إلى العالم بالعموم. إنَّني أتساءلُ بشأننا نحن الذين نعرف المسيح ونعدُّه حياتَنا. هل يمكن أن يُسرَّ اللهُ برؤية الشرور الكثيرة والمتزايدة بيننا؟ ألا يحزن بسبب كبريائنا التي تجعلنا نُراكم الثروة ونترك إخوةً وأخوات لنا يُعانون ويموتون؟ أليس من الواجب علينا أن ننظر أبعد من اهتماماتنا المحلِّيَّة، حتَّى يجري العدل كمياه والبرُّ كنهر دائم الجريان؟ ألا يوجد واجبٌ علينا أن نصنع الحقَّ ونُحبَّ الرحمة ونسلك متواضعين مع إلهنا إذا كُنَّا نريد أن نعيش في سلامه العجيب؟ أعلم أنَّ هذه أسئلة صعبة، لكنَّها أسئلة يجب أن نسألها إذا كُنَّا نريد أن نأخذ بجدِّيَّة كلمة الربِّ لنا من أسفار العهد القديم.

** اقرأ أيضًا خروج ٢٣: ٦؛ تثنية ٢٤: ١٧؛ أيُّوب ٣٦: ٦؛ إشعياء ١٠: ٢؛ إرميا ٥: ٢٨.

٣

الجذور الكتابيّة:
العهد الجديد

إنَّني لا أُعطي قيمةً لأيِّ شيءٍ أمتلِكُهُ، إلَّا بحسب علاقته بملكوت الله.

ديڤيد ليڤينغستون (David Livingstone)

في البيان الرسميِّ لخدمة يسوع للفقراء، أعلن يسوع نِيَّتَهُ بأن ''...أُرسِلَ المُنسَحِقينَ في الحُرِّيَّةِ'' (لوقا ٤: ١٨). وعندما كان يسير وسط الناس يُعلِّم ويشفي، كان يلاحظ الكثير من المظالم التي يُعانيها الناس، وكان ذلك يُثقل قلبَهُ كثيرًا. كان يسعى لكي يرفع الأحمال من على أعناقهم، وبينما كان يفعل ذلك كان يتكلَّم مِرارًا وتَكرارًا، وبشِدَّة، عن أحد أكبر الأحمال الموضوعة على أعناق الناس، وهو حِملُ تدبير المال الذي يُوفِّر لهم الأمان في المُستقبل.

لقد رأى يسوع الناس منسحقين تحت نير المجهود الثقيل ليوفِّروا لأنفسهم الغِنى والثروة. وأدرَك شعورهم بالخوف بسبب اعتقادهم أنَّ المسؤوليَّة تقع عليهم أن يجنوا المال، ويبحثوا عن الارتقاء في السُّلَّم الاجتماعيّ. يقول الرسول بولس إنَّ هؤلاء الذين يريدون أن يصيروا أغنياء ''طَعَنوا أنفُسَهُمْ بأوجاعٍ كثيرَةٍ'' (١تيموثاوس ٦: ٩-١٠). وقد لاحظ يسوع هذه الطعنات التي تطعن قلوب الكثيرين– طعنات الرغبة في الغنى.

كما رأى يسوعُ أيضًا أنَّ الناس كانوا مُنسحقين تحت وطأة الفشل في تحقيق الغنى والثروة. في عصره، كان الفقر علامة على عدم رضى الله عن الإنسان. ومَن فشلوا في الحصول على الخيرات المادِّيَّة في العالم، لا يَسَعهُم إلَّا أن يشعروا بأنَّ الله ضِدَّهُم بصورةٍ أو بأُخرى. لذلك لك أن تتخيَّل تعجُّب التلاميذ عندما قال لهُم إنَّ دخول جَمَل من ثقب إبرةٍ أيسر من دخول غنيٍّ إلى ملكوت الله (متَّى ١٩: ٢٤). هذا التعَجُّب كان مبدئيًّا بسبب إيمانهم بأنَّ غنى الشابِّ الغنيِّ كان عَلامَةً على رِضَى الله عنهُ، لذلك لا عَجَبَ أنَّهُم قالوا: ''إذًا مَنْ يستطيعُ أنْ يَخلُصَ؟'' (متَّى ١٩: ٢٥). لقد رأى يسوع أنَّ الناس كانوا مُعذَّبين ومُنسحقي الروح تحت وطأة الفقر من ناحية، وتحت شعورهم بعدم رضى الربِّ من ناحية أُخرى. ومرَّةً تلو الأُخرى، كان يُقاوِم هذه العقيدة الخاطئة المُدمِّرة مُعلنًا أنَّ الحقيقة هي بخلاف ذلك؛ ففي اقتصاديَّات الله، ينال الفقير والعاجز والمُنكسر بركة واهتمامًا أكبر من عند الله (متَّى ٥: ١-١٢). وبالكلام والأعمال، كان يَرفعُ النيرَ مِن على كاهل المُحبطين واليائسين.

وأبعد من ذلك، رأى يسوع الحِملَ الثقيل الذي يرزح تحته أيضًا من حصلوا على الثروات، إذ يُحاولون الاحتفاظ بهذه الثروات وحمايتها. لقد كان يعرف الطبيعة السرطانيَّة للثروة وكان كثيرًا ما يُحَذِّرُ مِن مخاطِرِ الغِنَى. كَانَ يتكلَّم عن ''غرور الغنى''، والغرور هو الخداع (متَّى ١٣: ٢٢). إنَّ الغِنَى أمرٌ مُخادِعٌ لأنَّه يقودنا إلى الوثوق به، ويسوعُ كان يرى في ذلك فخًّا ودمارًا روحيًّا. لقد كان ذلك الهَمُّ هو ما يُثقل كاهل الشابِّ الغنيّ؛ فالأمر ليس أنَّه يملك مُمتلكات كثيرة، بل الأهمُّ من ذلك أنَّ تلك المُمتلكات الكثيرة هي التي كانت تتملَّكه. لقد كان الأكثر فقرًا من الناحية الروحيَّة.

لكلِّ هؤلاء الذين يحملون حِملَ الغد، أو أحمالًا أُخرى، يقدِّم يسوع دعوةً كريمة: ''تعالَوْا إلَيَّ يا جميعَ المُتعَبينَ والثَّقيلي

الأحمالِ، وأنا أُريحُكُمْ. احمِلوا نيري علَيكُمْ وتَعَلَّموا مِنِّي، لأنِّي وديعٌ ومُتَواضِعُ القَلبِ، فتجِدوا راحَةً لنُفوسِكُمْ. لأنَّ نيري هَيِّنٌ وحِملي خَفيفٌ'' (متَّى ١١: ٢٨-٣٠). إنَّ هدفنا في الصفحات التالية هو أن نحاول أن نفهم التعليم التي بُنِيَت عليه هذه الدعوة إلى بساطة الحياة والتحرُّر من همِّ المال.

المسيح هو المركز

أكثر الفقرات الكتابيَّة إشراقًا بشأن البساطة المسيحيَّة هي الواردة في الأصحاح السادس من إنجيل متَّى[١]؛ لأنَّها ببساطة تتلألأ بالفرح والثقة بالله. في وقتٍ سابق، كان يسوع قد أعلن أنَّ ملكوت الله قد اقتحم المشهد البشريّ، لذلك يمكننا أن نعيش في حرِّيَّةٍ روحيَّةٍ داخليَّةٍ مجيدة، قوامها العطاء والصلاة والصوم دون أن نحتاج لأن نُظهِر ذلك أمام الناس لننال استحسانهم. يمكننا أن نطيع الوصيَّة الواضحة المحدَّدة ألَّا نكنز لأنفسنا كنوزًا على الأرض (متَّى ٦: ١٩)، بل أن نعيش حياة تركِّز على أن نكنِزَ ''الكنوز في السماء'' (متَّى ٦: ٢٠). يمكن أن نعيش متحرِّرين بصورةٍ ملحوظةٍ جدًّا من القلق والهموم لأنَّنا نحظى بعناية ذلك الإله الذي يعتني بطيور السماء وزنابق الحقل. كما لا نحتاج لأن نحمل على ظهورنا حِملَ العالم الذي يسحق الروح، والذي يحمله من هُم ليسوا من شعب الله. وبعَينَين تَرَيان رؤيةً واحدةً واضحةً، وقلبٍ موحَّدٍ، نستطيع بكلِّ حُرِّيَّةٍ أن نطلب أوَّلًا ملكوت الله وبرَّه عالمين أنَّ كلَّ شيءٍ آخر سيُزاد لنا (متَّى ٦: ٣٣).

يعلِّمنا يسوع ذلك بوصيَّتين إحداهما سلبيَّة والأُخرى إيجابيَّة: ''لا تكنِزوا لكُمْ كُنوزًا علَى الأرضِ''، وأيضًا: ''اكنِزوا لكُمْ كُنوزًا في السماءِ'' (متَّى ٦: ١٩-٢٠). إنَّ ''الكنوز'' التي يتكلَّم عنها هنا ليست فقط الثروات المادِّيَّة الكبيرة، وإنَّما كلُّ الأشياء التي نثق ونتمسَّك بها. أولادي مثلًا عندما كانوا صغارًا كانت لديهم كنوزٌ خاصَّة بهم. عندما كنتُ أنظر إلى تلك الأشياء التي يتمسَّكون بها بحماسة، كنتُ أندهش؛ لأنَّها كانت مجرَّد بعض الأحجار اللامعة، والعصيّ غريبة الشكل، أو كومة من الشرائط المطَّاطيَّة. يحذِّرنا يسوع أنَّه مهما كانت كنوزنا الأرضيَّة، فإنَّنا يجب أن نحذَرَ تمامًا من التمسُّك بها أكثر من اللازم، لأنَّها ستُحبطنا في يومٍ من الأيَّام، والأهمُّ أنَّها ستمنعنا من أن نعيش مع الله بالقوَّة والحرِّيَّة التي نريدها. إنَّه يعلم أنَّنا نُعاني ممَّا يكاد يكون حاجةً قهريَّةً أن نؤمِّن أنفسنا باستخدام الأشياء الأرضيَّة. لكنَّه يوصينا ألَّا نفعل ذلك، ثُمَّ يُعطينا أسبابًا لكوننا لا ينبغي أن نكنز لأنفسنا كنوزًا أرضيَّة بل سماويَّة.

السبب الأوَّل هو أنَّ هذا العالم ليس مكانًا آمنًا (متَّى ٦: ١٩-٢٠). رُبَّما لم تعد لدينا الآن مشكلة مع العثِّ والسوس والصدأ التي يمكن أن تفسد ثرواتنا، لكنَّنا نكاد لا نجد حالةً لا يمكن فيها لمعدَّلات التضخُّم السُّكَّانيِّ أن ''تنقب وتسرق'' ما قد كنزناه. يدفعنا يسوع لأن نرى أنَّه مهما كانت ثرواتنا آمنة، فإنَّها ستخوننا في يومٍ من الأيَّام.

السبب الثاني الذي يشير يسوع إليه هو حقيقة أنَّ كلَّ ما نُركِّز عليه بصفته كنزنا سيُسيطر على كلِّ حياتنا: ''لأنَّهُ حَيثُ يكونُ كنزُكَ هناكَ يكونُ قَلبُكَ أيضًا'' (متَّى ٦: ٢١). لم يقُل إنَّ القلب ''يجب'' أو ''يجب ألَّا'' يكون حيث الكنز، وإنَّما يقول إنَّه **سوف** يكون هناك لا محالة.

لا خيار في هذا الأمر: أذهاننا بالكامل ستكون مُركَّزة على كنزنا. وعندما قال يسوع إنَّه لا أحد يقدر أن يخدم سيِّدَين، لم يَعنِ أنَّه من السذاجة أن يخدم الإنسان سيِّدَين، لكنَّه قال إنَّه **أمرٌ مستحيل**. إذا كان كنزنا هو حسابنا في البنك، أو شهادة تعليميَّة، أو أيَّ شيءٍ أرضيٍّ آخر، فإنَّ أذهاننا لن تكونَ مُركَّزة على الله.

يوضح يسوع هذه الحقيقة بأعمقِ صورةٍ ممكنة. ''سِراجُ الجَسَدِ هو العَينُ، فإنْ كانتْ عَينُكَ بَسيطَةً فجَسَدُكَ كُلُّهُ يكونُ نَيِّرًا'' (متَّى ٦: ٢٢). إذا كان كلُّ ما فينا مركَّزًا على ملكوت المسيح بصفته كنزنا الوحيد، فإنَّنا عندئذٍ نعيش في نور

البساطة. والتعبير القديم ''العين البسيطة'' يشير إلى أمرَين هُما الهدف الواحد في الحياة، والروح الكريمة غير الأنانيَّة. إنَّ الفكرَتَين مرتبطتان في العقليَّة العبرانيَّة حتَّى إنَّه يمكن التعبير عنهما بعبارةٍ واحدة. الهدف الواحد المتوجِّه نحو الله وسخاء الروح هما توأمان. ويُقابل العين البسيطة ''العين الشرِّيرة''، التي في التعبير الساميِّ تعني الطبيعة الطمَّاعة الشهوانيَّة.[٢]

كان يسوع يعيش بساطة الهدف الواحد مع الله بالتمام حتَّى إنَّه استطاع أن يقول بلا مواربة إنَّه لم يفعل شيئًا من ذاته (يوحنَّا ٥: ١٩). كانت كلماته هي كلمات الآب، وأعماله هي أعمال الآب. وبصورةٍ مذهلةٍ، كان يدعونا بطريقتنا الصغيرة أن تكون لنا وحدة الهدف والقصد ذاتها التي كانت له. إنَّه يدعونا إلى حياة ''العين البسيطة'' التي بها يغمر النور الشخصيَّة بأكملها. وعندما تكون عيوننا على المسيح في المركز، فإنَّنا نعيش بقلوبٍ سعيدةٍ وسخيَّة. هذه هي البساطة.

السبب الثالث الذي يقدِّمه لنا يسوع لكيلا نكنِز لأنفسنا كنوزًا على الأرض، هو أنَّ الله يهتمُّ بنا، حيث تشهد طيور السماء وزنابق الحقل عن النظام الذي في ملكوت الله، والذي فيه يعول الله كلَّ المخلوقات. إنَّ الله يوفِّر لنا ما نحتاج إليه، كما يوفِّر للنباتات والحيوانات ما تحتاج إليه.

ولا يوصينا يسوع أن نتوقَّف عن العمل لتسديد احتياجاتنا. إنَّنا نفقد معنى التعليم تمامًا إذا فهمناه هكذا. وإلَّا لكُنَّا عندما نجتمع إلى العشاء، نقول: ''يقول الكتاب المقدَّس إنَّنا يجب ألَّا نهتمَّ بطعامنا، ما نأكل أو ما نشرب، لذلك لم نُعِدَّ العشاء''. لا، إنَّنا نعمل، لكنَّنا نعمل بإيمانٍ، وليس بقلقٍ وعدم ثقة. على المستوى العمليِّ، فعند هذه النقطة يأتي حلُّ المعضلة الملحَّة الخاصَّة ''بالإيمان والأعمال''. نحن نعيش حياةً متمحورة حول الثقة والإيمان، ويجب أن تنبع كلُّ أفعالنا وأعمالنا من ذلك المركز. ليس الخوف والقلق بشأن الغد ما يدفعنا إلى العمل، بل الطاعة للأمر الإلهيّ. إنَّنا ندبِّر حالنا بالطريقة السليمة والصحيحة (كما تفعل الطيور عندما تبحث عن طعامها). وما يأتي إلينا ليس نتاجَ عملنا بقدر ما هو عطيَّة الله الكريمة. إنَّنا عندئذٍ نعيش ونعمل في حياةٍ متحرِّرة من القلق والهمِّ نحو الممتلكات.

عندما تتخلَّل هذه الثقة كلَّ مجهوداتنا، فإنَّنا نفهم الجهل الكامن في القلق بشأن الغد. في ذلك الوقت، لا يشتِّت انتباهنا الهمُّ بشأن الغد، إذ نطلب أوَّلًا ملكوت المسيح وبِرَّه، ويكون محور تفكيرنا وكلامنا وأفعالنا هو المسيح المركَز.

التوحُّد بالفقراء

ترتبط حياة البساطة المسيحيَّة ارتباطًا وثيقًا بالاهتمام بالفقراء وغير القادرين على حماية أنفسهم. لا نستطيع أن نعيش في المركز الإلهيِّ لوقتٍ طويلٍ دون أن نشعر به يدفعنا نحو أن نعتني بقريبنا. في فِكر المسيح، كانت محبَّة الله ومحبَّة القريب واجهتَين لبابٍ واحدٍ يجب أن نجتازهما معًا للعبور من الباب. ومثل السامريِّ الصالح، فإنَّنا سرعان ما سنكتشف أنَّ طريقنا يقودنا نحو البشريَّة الكسيرة المجروحة النازفة.

ربَّما لا يضاهي أيُّ سِفرٍ من أسفار العهد الجديد إنجيلَ لوقا في تقديمه لنا دعوةً قلبيَّة مستمرَّة لأن نذهب إلى الفقراء والمحتاجين. إنَّ لوقا هو إنجيل الفقراء، وصوتُ من لا صوت له. أيُّ دراسةٍ إحصائيَّةٍ للعهد الجديد يمكنها أن تكشف أنَّ لوقا يعطي الاهتمام الأكبر للفقراء والمحتاجين. لكنَّ الأمر ليس فقط إحصائيَّات؛ فلوقا لديه حساسيَّة خاصَّة للمتألِّمين والعاجزين. يقدِّم لنا هذا الإنجيل نقطة انطلاق قيِّمة نحو البساطة.

لوقا وحده هو الذي يسجِّل ترنيمة العذراء مريم '' تعظِّم نفسي الربَّ''. إنَّ جمال هذه الترنيمة رُبَّما يجعلنا لا ندرك أنَّها صرخةٌ بالنيابة عن المتَّضعين والمحتاجين.

صَنَعَ قوَّةً بذِراعِهِ.
شَتَّتَ المُستَكبِرينَ بفِكرِ قُلوبهِمْ.
أنزَلَ الأعِزَّاءَ عن الكَراسيِّ ورَفَعَ المُتَّضِعينَ.
أشبَعَ الجياعَ خَيراتٍ
وصَرَفَ الأغنياءَ فارِغينَ (لوقا ١: ٥١ -٥٣).

كما أنَّ قصَّة الميلاد نفسها تروي في إنجيل لوقا ببساطةٍ ملحوظة طاعة العذراء مريم، واتِّضاع المذود وأمانة سمعان الشيخ وحنَّة النبيَّة. وكثيرًا ما كُنَّا نتعجَّب من اختيار الله لبيت لحم المتواضعة والرعاة البسطاء ليكونوا شهود الميلاد الملكيّ. رُبَّما يكون قصد الله أن يُعلِّمنا شيئًا محوريًّا عن الحياة بحسب الإنجيل بالطريقة التي وُلِد بها ابن الله الوحيد.

ولنتأمَّل أيضًا الوصيَّة التي يوصي بها يوحنَّا المعمدان سامعيه: ''«مَنْ لهُ ثَوْبانِ فليُعطِ مَنْ ليس لهُ، ومَنْ لهُ طَعامٌ فليَفعَلْ هكذا». وجاءَ عَشَّارونَ أيضًا ليَعتَمِدوا فقالوا لهُ: «يا مُعَلِّمُ، ماذا نَفعَلُ؟». فقالَ لهُمْ: «لا تستَوْفوا أكثَرَ مِمَّا فُرِضَ لكُمْ». وسألهُ جُنودٌ أيضًا قائلينَ: «وماذا نَفعَلُ نَحنُ؟». فقالَ لهُمْ: «لا تظلِموا أحَدًا، ولا تشوا بأحَدٍ، واكتَفوا بعَلائفِكُمْ»'' (لوقا ٣: ١١-١٤). الهدف من هذه الوصايا هي طبيعتها المبسَّطة– وصايا قصيرة بسيطة ومحدَّدة وتهتمُّ بمصلحة الآخرين.

كما رأينا، إنَّ لوقا هو وحده الذي يسجِّل إعلان يسوع في الناصرة في دفاعه الرقيق عن الفقراء والمسحوقين:

روحُ الرَّبِّ علَيَّ، لأنَّهُ مَسَحَني لأُبَشِّرَ المَساكينَ،
أرسَلَني لأشفيَ المُنكَسِري القُلوبِ،
لأُناديَ للمأسورينَ بالإطلاقِ وللعُميِ بالبَصَرِ،
وأُرسِلَ المُنسَحِقينَ في الحُرِّيَّةِ،
وأكرِزَ بسَنَةِ الرَّبِّ المَقبولَةِ (لوقا ٤: ١٨-١٩).

لاحِظ العجز الكامن في كلِّ هذه المجموعات البشريَّة: المساكين (الفقراء)، المأسورين، العُمي، المنسحقين. هذا بالتأكيد يكشف لنا عن اهتمام يسوع، الذي يجب أن يكون اهتمام كلِّ تابعيه.

تتميَّز التطويبات الواردة في إنجيل لوقا بتركيزها على بُعْدٍ اقتصاديّ:

''طوباكُمْ أيُّها المَساكينُ...طوباكُمْ أيُّها الجياعُ الآنَ...طوباكُمْ أيُّها الباكونَ الآنَ...ولكن ويلٌ لكُمْ أيُّها الأغنياءُ...ويلٌ لكُمْ أيُّها الشَّباعَى...ويلٌ لكُمْ أيُّها الضَّاحِكونَ الآنَ...'' (لوقا ٦: ٢٠-٢١، ٢٤-٢٥). المساكين والجياع والحزانى في مقابل الأغنياء والشباعى والفرحين. فيبدو الأمر كما لو كانت هذه الفئات التي نشعر بأنَّها غير مبارَكة وغير قابلة للبركة، يغمرها الله بكرامةٍ خاصَّة. وفي المقابل، فإنَّ مَن نظنُّهم في حالةٍ أفضل، يتلقَّون الويلات. بركاتٌ على المساكين، وويلاتٌ على الأغنياء.

هل تعني هذه التطويبات أنَّ الله لا يهتمُّ بالأغنياء والمكتفين؟ هل يقاوم الله مَن لديهم إمكانيَّات مادِّيَّة؟ حالما نضع هذا التساؤل، فإنَّنا نُدرك مدى سُخفِه. ففي عمق أعماقنا، نعلم أنَّ محبَّة الله لا تميِّز. لكن كيف نفهم هذه التطويبات؟ من الواضح أنَّ يسوع كان يستخدم أسلوب التعليم المتَّبع في الثقافة اليهوديَّة في ذلك الوقت وهو استخدام المبالغات الأدبيَّة لتقوية المعنى المراد، ألا وهو اهتمام الله بالضعفاء والمحرومين. يوجد اهتمامٌ إلهيٌّ خاصٌّ بهؤلاء الذين لا يستطيعون

الاهتمام بأنفسهم. وفي هذه التطويبات، يعبِّر يسوع عن تثقُّله بالمنكسرين والمترضِّضين في هذه الحياة، ويدعونا أن نحمل التثقُّل نفسه.

نرى هذه الشفقة ورِقَّة القلب لأجل مَن لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم مرَّةً أُخرى في وصيَّة المسيح لمضيِّفه على العشاء أن يدعو الفقراء، والعرج والعمي والمشوَّهين، عندما يقيم وليمة (لوقا ١٤: ١٢-١٤). الهدف من دعوة مثل هؤلاء، ليس التباهي الاجتماعيّ، بل لأنَّهم يحتاجون إلى المساعدة.

ومَثَل الرجل الغنيّ ولعازر الفقير الذي يُورده لوقا يؤكِّد المنظور ذاته (لوقا ١٦: ١٩-٣١). لم يكن الرجل الغنيُّ شرِّيرًا بالطريقة التي عادةً ما نتصوَّر بها الشرّ. لم يكن هو السبب في فقر لعازر، على الأقلّ ليس بطريقةٍ مباشرة. ولم يطرُد لعازر ويمنعه من الجلوس أمام باب بيته، كما يميلُ كثيرون منَّا أن يفعلوا. لقد تجاهله فقط. لكنَّ هذا التجاهل كان الاعتداء الصادم! وبحسب يسوع، فإنَّ العذاب في الجحيم هو جزاء عدم تجاوبه مع محنة لعازر الفقير.

بعد وليمة غداء مع يسوع، قام زكَّا وأعلن: ''ها أنا يا رَبُّ أُعطي نِصفَ أموالي للمَساكينِ، وإنْ كُنتُ قد وشَيتُ بأحَدٍ أرُدُّ أربَعَةَ أضعافٍ'' (لوقا ١٩: ٨). إنَّ الأمانة والسخاء والاهتمام بالفقراء مبادئُ مرتبطة بعضها ببعض. لقد كان ذلك التصرُّف كافيًا ليُعرِب يسوع قائلًا: ''اليومَ حَصَلَ خَلاصٌ لهذا البَيتِ'' (لوقا ١٩: ٩).

وتعبِّر رسائل العهد الجديد عن الاهتمام ذاته. فبحسب الرسول بولس، حثَّ مَجمَع أورشليم مَن يخدمون بين الأمم أن ''يذكروا الفقراء'' (غلاطِيَّة ٢: ١٠، وانظُر أيضًا أعمال الرسل ١٥: ٣٥). كان ينبغي لمَن كان يمارس السرقة في الماضي أن يتعلَّم أن يعمَل ''ليكونَ لهُ أنْ يُعطيَ مَنْ لهُ احتياجٌ'' (أفسس ٤: ٢٨). حتَّى الأرامل عليهنَّ أن يتميَّزنَ بمساعدة المتضايقين (١تيموثاوس ٥: ٩).

وبحسب الرسول يعقوب، فإنَّ تعريف الديانة الطاهرة النقيَّة عند الله الآب هي هذه ''...افتِقادُ اليَتامَى والأرامِلِ في ضيقَتِهِمْ، وحِفظُ الإنسانِ نَفسَهُ بلا دَنَسٍ مِنَ العالَمِ'' (يعقوب ١: ٢٧). وأنَّه يجب ألَّا يتلقَّى الأغنياء معاملة متميِّزة في الاجتماعات المسيحيَّة (يعقوب ٢: ٢-٩). وإذا كان هناك أخٌ أو أختٌ في عوز، يجب أن نُسدِّد ذلك العوز بدلًا من أن نقول بعدم اهتمام ''امضيا بسَلامٍ، استَدفِئا واشبَعا'' (يعقوب ٢: ١٥). ويوحنَّا، رسول المحبَّة، يُذكِّرنا أنَّنا إن أغلقنا قلوبنا في وجه الاحتياجات الواضحة لشخصٍ آخر ولم نساعده، فلا توجد فينا محبَّة الله (١يوحنَّا ٣: ١٧).

مخاطر الثراء

يحذِّر العهد الجديد باستمرارٍ وبشِدَّةٍ من مخاطِر الثروة. الكثير من تصريحات يسوع بشأن الغنى والاهتمام بالفقراء تصل إلينا بصورةٍ حاسمة تثير مخاوفنا. مثلًا، هناك الوصيَّة القاطعة التي تبدو مندفِعةً وغير مبالية ''وكُلُّ مَنْ سألكَ فأعطِهِ، ومَنْ أخَذَ الذي لكَ فلا تُطالِبهُ'' (لوقا ٦: ٣٠)، والتي يلحقها بأُخرى تقول: ''...أحسِنوا وأقرِضوا وأنتُمْ لا ترجونَ شَيئًا...'' (لوقا ٦: ٣٥). وإذا أخذ أحدهم رداءنا، فعلينا أن نتخلَّى عن ثوبنا أيضًا (لوقا ٦: ٢٩). وأيضًا أوصى: ''بيعوا ما لكُمْ وأعطوا صَدَقَةً'' (لوقا ١٢: ٣٣). لم يكن كافيًا للشابِّ الغنيِّ أن تكون له روحٌ داخليَّة من الانفصال عمَّا يمتلك، إنَّما أوصاه المسيح حرفيًّا أن يبيع كلَّ ما له إذا كان يريد ملكوت الله (لوقا ١٨: ٢٢). وبوضوحٍ شديدٍ، يُعلِن الربُّ: ''فكذلكَ كُلُّ واحِدٍ مِنكُمْ لا يترُكُ جميعَ أموالِهِ، لا يَقدِرُ أنْ يكونَ لي تِلميذًا'' (لوقا ١٤: ٣٣).

إذا كانت كلمات المسيح القويَّة هذه تصدمنا حتَّى إنَّنا نُحاول أن نتراجع عن هذه الوصايا المباشرة عائدين إلى

الإرشادات الأكثر عموميَّة، فإنَّنا لا نجد إلّا القليل من الراحة. حذَّر يسوع أحد الذين كانوا يريدون أن يكونوا تلاميذه قائلًا: ''للثَّعالِبِ أوجِرَةٌ، ولِطُيورِ السماءِ أوكارٌ، وأمَّا ابنُ الإنسانِ فليس لهُ أين يُسنِدُ رأسَهُ'' (لوقا ٩: ٥٨). وروى يسوع أيضًا مَثَل المزارع الذي كانت حياته متمركزة حول الجمع والتخزين وأسماه الغنيَّ الغبيّ (لوقا ١٢: ١٦-٢١). كما أوصى تلاميذه ألَّا يحملوا معهم الكثير في أثناء السفر: ''لا تحمِلوا شَيئًا للطريقِ: لا عَصًا ولا مِزوَدًا ولا خُبزًا ولا فِضَّةً، ولا يكونُ للواحِدِ ثَوْبانِ'' (لوقا ٩: ٣، وانظُر أيضًا لوقا ٢٢: ٣٦). قال يسوع: ''انظرُوا وتَحَفَّظوا مِنَ الطَّمَعِ، فإنَّهُ مَتَى كانَ لأحَدٍ كثيرٌ فلَيسَتْ حَياتُهُ مِنْ أموالِهِ'' (لوقا ١٢: ١٥). لقد كان يسوع يشنُّ حربًا على المادِّيَّة المعاصرة له. كان التعبير الأراميُّ للثروة يُسمَّى ''مامون''، وكان يسوع يدينه حاسبًا إيَّاه إلهًا آخرَ منافسًا لله. ''لا تقدِرونَ أنْ تخدِموا اللهَ والمالَ (مامون)'' (لوقا ١٦: ١٣). وبتعبيرٍ بلاغيٍّ واضح، شبَّه صعوبة دخول غنيٍّ إلى ملكوت الله بدخول جملٍ من ثقب إبرة. مع الله، بالتأكيد كلُّ شيء ممكن، لكنَّ يسوع كان يعلم هذه الصعوبة لأنَّه كان يرى أنَّ الغنى يستحوذ على الإنسان.

وتميَّزت الرسائل باللغة ذاتها التي لا تساوم. فأعلن الرسول بولس: ''وأمَّا الذينَ يُريدونَ أنْ يكونوا أغنياءَ، فيَسقُطونَ في تجرِبَةٍ وفَخٍّ وشَهَواتٍ كثيرَةٍ غَبيَّةٍ ومُضِرَّةٍ، تُغَرِّقُ الناسَ في العَطَبِ والهَلاكِ'' (١تيموثاوس ٦: ٩). وبحماسةٍ مثيرةٍ للحرج، يُندِّد يعقوب بالأغنياء قائلًا: ''هَلُمَّ الآنَ أيُّها الأغنياءُ، ابكوا موَلوِلينَ علَى شَقاوَتِكُمُ القادِمَةِ. غِناكُمْ قد تهَرَّأ، وثيابُكُمْ قد أكلها العُثّ. ذَهَبُكُمْ وفِضَّتُكُمْ قد صَدِئا، وصَدأُهُما يكونُ شَهادَةً علَيكُمْ، ويأكُلُ لُحومَكُمْ كنارٍ! قد كنَزتُمْ في الأيّامِ الأخيرَةِ'' (يعقوب ٥: ١-٣). وقبل ذلك، كان يهاجم القتل والحروب من أجل شهوة الامتلاك: ''...تشتَهونَ ولَستُمْ تمتَلِكونَ. تقتُلونَ وتَحسِدونَ...'' (يعقوب ٤: ١- ٢).

قال بولس إنَّ الأُسقف يجب ألَّا يكون ''مُحبًّا للمال'' (١تيموثاوس ٣: ٣)، والشمامسة يجب ألَّا يكونوا ''طامِعينَ بالربحِ القبيحِ'' (١تيموثاوس ٣: ٨). ونَصحَ كاتب رسالة العبرانيِّين قارئيه: ''لتَكُنْ سيرَتُكُمْ خاليَةً مِنْ مَحَبَّةِ المالِ. كونوا مُكتَفينَ بما عِندَكُمْ، لأنَّهُ قالَ: «لا أُهمِلُكَ ولا أترُكُكَ»'' (عبرانيِّين ١٣: ٥). وكان بولس يسمِّي شهوة المال وثنيَّة، وأوصى أهل كورنثوس أن يمارسوا انضباطًا صارمًا تجاه أيِّ إنسانٍ طمَّاع (أفسس ٥: ٥؛ ١كورنثوس ٥: ١١). وأورد الطمع ضمن قائمةٍ تتضمَّن الزنى والسرقة وصرَّح أنَّ مَن يعيشون هذه النوعيَّة من الحياة لن يرثوا ملكوت الله. وأشار بولس على الأغنياء ألَّا يعتمدوا على ثرواتهم، بل على الله، وأن يكونوا كرماء في العطاء للآخرين (١تيموثاوس ٦: ١٧-١٩). وقد وجَّه الروح القدس كلماتٍ شديدةً إلى كنيسة لاودكيَّة الفاترة، التي كانت تشعر بالخمول والاكتفاء: ''لأنَّكَ تقولُ: إنِّي أنا غَنيٌّ وقَدِ استَغنَيتُ، ولا حاجَةَ لي إلَى شَيءٍ، ولَستَ تعلَمُ أنَّكَ أنتَ الشَّقيُّ والبَئسُ وفَقيرٌ وأعمَى وعُريانٌ'' (رؤيا يوحنَّا ٣: ١٧). يا لها من كلماتٍ شديدةٍ ولاذعةٍ بحقّ!

إنَّنا نشعر في هذه الكلمات بدعوة صارمة ومخيفة نحو التلمذة. إنَّها كلمات لا تعترف بما يُسمَّى ''المسيحيَّة السهلة'' أو ''النعمة الرخيصة''، كما يُسمِّيها بونهوفر. لكن ليس هذا هو السبب الوحيد الذي يجعل هذه التصريحات مخيفة لنا (ويمكنك أن تُضيف أنَّني أيضًا خائف من مثل هذه اللهجة الشديدة). تُرعبنا هذه الكلمات لأنَّنا نقرأها بصفتها قوانين يجب التزامها في كلِّ الأحوال. وهكذا، فإنَّنا لا نرى طريقة للحدِّ منها. لكنَّنا يجب أن نفهم أنَّ كُتَّاب العهد الجديد لا يقصدون أن يقدِّموا لنا مجموعة قوانين جديدة، فإنَّ تعليم العهد الجديد كلّه يدور حول المبدأ البسيط: محبَّة الله والقريب. قال د. دالاس ويلارد (Dallas Willard): ''إنَّ المحبَّة هي الاهتمام العاقل بخير الجميع''.[٣] المحبَّة لا تمارس رؤيةً ضيِّقة الأُفق. إذا أدخلتُ المحتاج إلى بيتي ممَّا أدى إلى تدمير أسرتي، فإنَّني مدفوعٌ بشيءٍ آخر غير المحبَّة. يجب أن تُفهَم هذه الوصايا التي يقدِّمها المسيح وتُطبَّق في إطار المحبَّة نحو الجميع. فالوصايا الكتابيَّة لا تستهدف تدميرنا بل تحريرنا من أسرِ المال

والشهرة والسلطة.

يجب علينا ألَّا نُغالي في نقد العهد الجديد للثروة. فيسوع، وإن كان بعيدًا جدًّا عن الغنى، لم يأتِ من الغالبيَّة الفقيرة في الأمَّة العبرانيَّة. يكتب باحث العهد الجديد مارتن هنغل (Martin Hengel) أنَّ يسوع، بوصفه نجَّارًا، كان يأتي من ''الطبقة المتوسِّطة في الجليل، وهي طبقة العمَّال المهرة''.[٤] وكان تلاميذه الاثنا عشر على وجه العموم من هذه الطبقة نفسها. ومن الواضح أنَّ زبدي والد يوحنَّا ويعقوب كان يمتلك أُسطول صيدٍ ويعمل لديه صيَّادون آخرون عدا عن ابنَيه (مرقس ١: ٢٠). ويتَّضح أيضًا أنَّ متَّى كان يشغل منصبًا مرموقًا في جماعة موظَّفي الضرائب قبل أن يدعوه المسيح (مرقس ٢: ١٤). وبالرغم من أنَّهم تركوا أعمالهم المعتادة ليتبعوا يسوع، فإنَّهُم تلقَّوا مساعدات من نساءٍ ثريَّات كنَّ يخدمنَ يسوع وتلاميذه من أموالهنَّ (لوقا ٨: ٣).

كان يسوع دائمًا بين الفقراء، لكن كانت لديه أيضًا اتِّصالاتٌ متكرِّرة مع الأغنياء وأصحاب المناصب والامتيازات. أكثر من مرَّةٍ دُعي إلى ولائم عشاء من فرِّيسيِّين أثرياء (لوقا ٧: ٣٦؛ ١١: ٣٧؛ ١٤: ١). يوسف الراميُّ كان رجلًا غنيًّا وتلميذًا ليسوع (متَّى ٢٧: ٥٧). أيضًا نيقوديموس، الذي جاء إلى يسوع ليلًا ثُمَّ صار من تلاميذه بعد ذلك، من الواضح أنَّه أيضًا كان يحوزُ إمكاناتٍ مادِّيَّةً لافتة.

كان يسوع بعيدًا كلَّ البُعدِ عن التشدُّد والتقشُّف حتَّى إنَّه اتُّهم أنَّه أكولٌ وشرِّيب (لوقا ٧: ٣٤). من الواضح أنَّ هذه التهمة كانت محض افتراء، لكنَّها تُشير إلى حقيقة أنَّ الاحتفال والفرح كانا عنصرَين مهمَّين من عناصر حياته. كان قادرًا على الفرح مع عروسَين شابَّين في حفل زفافهما، حتَّى إنَّه وفَّر الشراب للجميع (يوحنَّا ٢: ١-١١).كما أنَّ الربَّ سمح بسكب طيب ناردينٍ يساوي أجر عمل سنة كاملة على قدمَيه بينما تذمَّر تلاميذه على ذلك بسبب احتياجات الفقراء (متَّى ٢٦: ٦-١٢). كان الرسول بولس أيضًا يقول إنَّه كان يشعر بالرضى مع الفقر ومع الوفرة.

إنَّ ما نكتشفه من شهادة العهد الجديد هو ذلك المزيج من النقد اللاذع للرغبة المحمومة في الثراء، وفي الوقت نفسه، عدم التزمُّت ضدَّ المُمتلكات في حدِّ ذاتها. إنَّهُ مزيج قلَّما وُجِد اليوم.

الجماعة الناريَّة

عندما تفجَّرت حياة ملكوت الله وقوَّته في المشهد البشريِّ في يوم الخمسين، كان ذلك عاملًا مُحفِّزًا للتعبير القويِّ للبساطة المسيحيَّة. كانت لكنيسة أورشليم الوليدة شهادةٌ قويَّةٌ عن هذه الحقيقة. إلى أن حلَّ يوم الخمسين، كان التلاميذ جماعة متعدِّدة الأطياف تدور بينها المشاحنات والنميمة والتنافُس على المناصب، يتشاجرون حول مَن ينال المكانة الأولى. وحيث لم تكن لديهم رؤية ولا هدف، لم يعرفوا بساطة الحياة. لكن بمرور الوقت، كان يسوع قد كوَّنَ مُجتمَعًا يعيش في حالة طاعة مقدَّسة (وهذه دائمًا السمة الأكثر وضوحًا للبساطة). أخيرًا، أصبحوا جماعةً عندما يقول الله لهم ''انتظِروا''، فإنَّهم ينتظرون، وعندما يقول ''اذهَبوا''، فإنَّهُم يذهبون. رجالٌ ونساءٌ أشدَّاء صَقلَتهم التجارب وخبرات الفشل قبل النجاح. كانوا غير كاملين ويجهلون الكثير من الأشياء، لكنَّهم كانوا شعبًا مستعدًّا. وعندما قال الله: ''انتظِروا''، انتَظَروا لكونهم منضبِطين طائِعين، فنزل عليهم لهيب نار الروح القدس.

وظلَّت أخبار التداعيات الاقتصاديَّة لهذا النوع الناريِّ من الحياة تنبض بالفرح والحرِّيَّة في كلِّ الجماعة: ''وجميعُ الذينَ آمَنوا كانوا مَعًا، وكانَ عِندَهُمْ كُلُّ شَيءٍ مُشتَرَكًا. والأملاكُ والمُقتَنَياتُ كانوا يَبيعونَها ويَقسِمونَها بَينَ الجميعِ، كما يكونُ لكُلِّ واحِدٍ احتياجٌ'' (أعمال الرسل ٢: ٤٤-٤٥). كان المبدأ المتَّبع هو: ''كما يكونُ لكُلِّ واحِدٍ احتياجٌ''، فإنَّ الآخرين يشاركون

المُحتاج بمواردهم حتَّى يُسدَّد ذلك الاحتياج.

لقد كان هناك تكاملٌ جميل، يكاد يكون لاواعيًا بين مشاركة المادِّيَّات والانضباطات الروحيَّة، مثل التعليم والصلاة: ''وكانوا يواظِبونَ علَى تعليمِ الرُّسُلِ، والشَّرِكَةِ، وكسرِ الخُبزِ، والصَّلَواتِ'' (أعمال الرسل ٢: ٤٢). كان برنابا نموذجًا للسخاء التلقائيِّ ببيعه حقلًا لكي يوفِّر احتياجات الجماعة الناشئة (أعمال الرسل ٤: ٣٦-٣٧).

من المهمِّ أن تتذكَّر أنَّه لا توجد لدينا إشارةٌ أنَّ ما حدث في الأيَّام الأولى قد حدث بناءً على أمرٍ من القادة مثلًا، أو أنَّ هذا هو الشيء الصحيح الذي كان ينبغي أن يحدث. ولم يكن هذا نمطًا يجب اتِّباعه بطريقةٍ سلطويَّة استعباديَّة، لكنَّ ما نراه كان عملًا من أعمال الحرِّيَّة للتعبير التلقائيِّ عن محبَّة الله والقريب. تحت سُلطان المسيح، كان هؤلاء المؤمنون الممتلئون بالروح قد تحرَّروا لكي يجرِّبوا طُرُقًا جديدة بها يحبُّون بعضهم بعضًا.

أليس هذا نموذجًا لنا لنحتذيه؟ ليس بوصفه قانونًا بالتأكيد، لكنَّه نموذجٌ من ممارسة الحرِّيَّة لاكتشاف معنى أن نعيش معًا بصفتنا تلاميذَ للمسيح. إنَّ المحبَّة والرعاية المتبادلة بين المؤمنين في سِفر أعمال الرسل يكشفان لنا الاتِّجاه الذي تحبُّ أن تهبَّ فيه رياح الروح القدس.

من المهمِّ لنا أن نفهم الارتباط بين الحرِّيَّة المادِّيَّة التي كانت لهذه الجماعة والقوَّة الروحيَّة التي كانت تتمتَّع بها. ففي تصريحٍ واحد، نسمع حقيقة أنَّ ''آيات وعجائب'' كانت تجري على أيدي الرسل، وفي التصريح نفسه، نكتشف هذا: ''جميعُ الذينَ آمَنوا كانوا مَعًا، وكانَ عِندَهُمْ كُلُّ شَيءٍ مُشتَرَكًا'' (أعمال الرسل ٢: ٤٣-٤٤).
ثُمَّ نقرأ عن اجتماع الصلاة العجيب حيث تزعزع المكان الذي كانوا يصلُّون فيه و''...امتَلأَ الجميعُ مِنَ الروحِ القُدُسِ، وكانوا يتَكلَّمونَ بكلامِ اللهِ بمُجاهَرَةٍ''. وفي العدد التالي مباشرةً نكتشف أنَّه ''كانَ لجُمهورِ الذينَ آمَنوا قَلبٌ واحِدٌ ونَفسٌ واحِدَةٌ، ولَمْ يَكُنْ أحَدٌ يقولُ إنَّ شَيئًا مِنْ أموالِهِ لهُ، بل كانَ عِندَهُمْ كُلُّ شَيءٍ مُشتَرَكًا'' (أعمال الرسل ٤: ٣١-٣٢). وفوق ذلك– كأنَّ هذا لا يكفي– مرَّةً أُخرى نجد العدد الكتابيَّ الذي يلي ما سبق يعود إلى نغمة القوَّة المعجزيَّة: ''وبقوَّةٍ عظيمَةٍ كانَ الرُّسُلُ يؤَدّونَ الشَّهادَةَ بقيامَةِ الرَّبِّ يَسوعَ، ونِعمَةٌ عظيمَةٌ كانتْ علَى جميعِهِمْ'' (أعمال الرسل ٤: ٣١-٣٣)، ويتردَّد في العدد التالي صدى الشركة القريبة، فيتبادل ذِكرُ الشركة القريبة والقوَّة العظيمة وكأنَّهما حبلان مضفوران معًا.

لا يُقصَد بهذه الفقرات أن تكون نوعًا من اللاهوت النظاميِّ، وليست لديَّ رغبة أن أصوغ منها تعليمًا معياريًّا يكون مُلزِمًا للكنيسة في كلِّ مكان. إنَّ ما أُحاول أن أعبِّر عنه هو أنَّ هؤلاء الناس كانوا مأسورين تمامًا بحياة الروح القدس الذي بدَّل حياتهم بكلِّ جوانبها. كانوا يعيشون على مستوًى جديدٍ من الاختبارات. كانت الآيات والعجائب من كلِّ نوعٍ كثيرة. كانت قوَّة الروح القدس منظورة وملموسة. وفي إطار هذا السكيب العجيب من حياة الله، كانت مشاركة الموارد تجري بحرِّيَّةٍ وسخاء. ولِمَ لا؟ لقد كان الناس يُشفون، والعلاقات تُصحَّح، والقيادة الخادمة تَظهَر في أفضل صُوَرِها. ولكي نكون أُمناء، فإنَّ مشاركة كلِّ شيء لا تكون صعبةً عندما تُستعلن قوَّة الله بهذه الصورة وسط الشعب. كانت يد الله القويَّة وذراعه الممدودة هناك لتحمل الناس وتطمئنهم على كلِّ شيء. فما الذي يخافونه عندئذٍ؟ أيُّ أمانٍ اقتصاديٍّ أكثر من ذلك يمكنهم الحصول عليه؟ وإذا وُجِدت أيَّة صورة من صُوَر الخداع، كما في حالة حنانيَّا وسفِّيرة، كان يجري التعامل معها بسرعة بالتمييز الروحيِّ وقوَّة الله (أعمال الرسل ٥: ١-١١).

في بعض الأحيان، يجد الناس المشاركة الفرِحة التي كانت تسود كنيسة أورشليم أمرًا صعب التصديق. والسبب مفهوم: فهُم لم يروا شيئًا كهذا في خبرة حياتهم من قبل، لكنَّني من خِبرتي المحدودة، أستطيع أن أشهد عن تلك الحقيقة. عندما

يفيضُ حضور الله الملموس على جماعةٍ **مستعدَّة بما يكفي**، تحدث مشاركة بالموارد بصورةٍ حرَّةٍ وحماسيَّة، بل مخيفة إلى حدٍّ ما. وإنَّني أودُّ أن أُشدِّد هنا على مفهوم الإعداد الكافي لأنَّه، كما كان في الخبرات المبكِّرة للتلاميذ، من الممكن أن نختبر خبراتٍ مجيدةً من قوَّة الله دون أن يكون لتلك الخبرات تأثيرٌ مستمرٌّ في الطبيعة المنحصرة في الذات (قارِن مثلًا، لوقا ٩: ١ بلوقا ٩: ٥٤). لكن عندما يجتمع شعبٌ تحت الصليب والطاعة المقدَّسة، فإنَّ القوَّة الناريَّة للروح القدس يمكنها أن تشعل كلَّ شيءٍ، بما في ذلك العلاقات الاقتصاديَّة.

والآن ربَّما تتساءل: ''لماذا كلُّ هذا الكلام عن المعجزات والقوَّة الإلهيَّة والإعداد الروحيّ؟ ألا نستطيع أن نتحرَّك نحو قضيَّة تبسيط أسلوب الحياة دون كلِّ هذا الكلام عن الله؟''. إجابتي هي: تفضَّل وحاوِلْ، وليكن الله في عونك– فستحتاج إلى ذلك حاجةً هائلة. وبالرغم من أنَّني أتعاطف بعمقٍ مع هذه ''العجلة المقدَّسة'' للدخول في الأمر، فإنَّ الشهادة الواضحة للكتاب المقدَّس هي أنَّنا نحتاج إلى أكثر من مُجرَّد نيَّات حسنة وقوَّة إرادة لتغيير شخصيَّاتنا المنحصرة في الذات والمأسورة بالطمع حتَّى نصير ذلك المجتمع من الأشخاص الذين يحتَوون الجميع ويحبُّونهم.

لقد كان هناك وقتٌ من الأوقات كنتُ أحثُّ فيه الناس على بساطة الحياة بلا تمييز. وكنتُ أتملَّق الناس حينًا، وأدفعهم وأضغط عليهم حينًا آخر، وكثيرًا ما كان بعض الناس يغيِّر أسلوب حياته فعلًا. لكنَّني اكتشفتُ أنَّ كلَّ هذا كان مدمِّرًا. اكتشفتُ أنَّ البساطة تصير هي نفسها حِملًا محفوفًا بالقلق والتوتُّر والانحصار في الذات إلى أن يختبر الناس نعمة الله وقوَّته، وهو الذي يمدُّهم كلَّ يومٍ باحتياجاتهم. فقط عندما تخترقنا قوَّة الإنجيل، عندئذٍ نكون أحرارًا بما يكفي لنثق.

هل وجدت الأمر كذلك؟ رُبَّما تكون قد فتحت قلبك وفتحت جيبك للإخوة والأخوات في العالم ردًّا على عدم المساواة الرهيبة الموجودة في العالم. ورُبَّما قُدتَ معركةً من أجل بعض قضايا الإغاثة والرحمة في كنيستك ومجتمعك. ورُبَّما حتَّى حاولت تأسيس صندوقٍ أو أيَّة صورةٍ من صُوَر المشاركة الاقتصاديَّة. لكن لسببٍ ما، في أعماقك، يبدو كلُّ شيء جافًّا ومصطنعًا. لا أثر لزيت الروح القدس الذي يشفي العلاقات المجروحة. رُبَّما يكون العطاء قد حصل، لكن دون دفءٍ وحيويَّة. رُبَّما تكون مثل موسى في القديم، ترى الثِّقل الذي يرزح الشعب تحته، لكنَّك مثل موسى أيضًا، تحاول أن تخلِّصهم بالذراع البشريَّة، لتجد هذه الذراع البشريَّة تفشل مِرارًا وتَكرارًا. ومع كلِّ الصلاح الذي حصل، فإنَّك لا تزال تشعر بأنَّ شيئًا محوريًّا لا يزال مفقودًا. هل يمكن أن يكون الأمر أنَّنا نحتاج لأن نتَّبع خطى التلاميذ الذين تعلَّموا بخبراتٍ مريرة أنَّ أولويَّتهم القصوى هي أن يطلبوا أوَّلًا ملكوت الله، والذين اكتشفوا أنَّهم متى تعمَّدوا بحياة الملكوت وقوَّته، فإنَّهم عندئذٍ سوف يتمتَّعون بالحرِّيَّة التي تجعلهم يهتمُّون بعضهم ببعض بطرقٍ غير مسبوقة؟

حرِّيَّةُ أن نتخلَّى عن حقوقنا

إنَّ القدرة على التخلِّي عن الحقوق من أجل خير الآخرين محوريَّةٌ في كلِّ ما يختصُّ بالبساطة، وهي قدرة تتميَّز بالجاذبيَّة والفرح. تظهر هذه الحقيقة بقوَّةٍ وباستمرارٍ في خبرة المجتمع المسيحيِّ الأوَّل. وقد كانت مؤسَّسةً بقوَّة على مثال المسيح، الذي من أجلنا افتقر وهو غنيٌّ ''وأطاعَ حتَّى الموتَ، موتَ الصَّليبِ'' (٢كورنثوس ٨: ٩، فيلبِّي ٢: ٨).

تأمَّلِ الطريقة الرحيمة التي جرى بها حلُّ مشكلة الأرامل اليونانيَّات (أعمال الرسل ٦: ١-٧). كانت هذه الجماعة يهودًا ناطقين باليونانيَّة، وكانوا مختلفين ثقافيًّا عن نُظرائهم العبرانيِّين. ومن الواضح أنَّه في خضمِّ الأنشطة الكثيرة، أُغفل عن هؤلاء الأرامل المتكلِّمات باليونانيَّة في التوزيع اليوميِّ للطعام وغيره من أشكال الخدمة. وبلا شكٍّ، كان هذا الإغفال غير مقصود، لكن كان يُمكن أن يُسبِّب حدوث انقسام بين المسيحيِّين الأوائل. لكن تحت سلطان الروح القدس حُلَّ بأرقِّ الصور

وأكثرها شفقة. بكلِّ حكمةٍ، توقَّف الرسل عن بتِّ هذه الأمور وطلبوا أن يجري اختيار سبعة رجال من كنيسة أورشليم، مملوئين بالروح القدس والحكمة. وظهرت حكمة الروح القدس ونعمته في أنَّ السبعة كلَّهم اختيروا من الجانب الذي تعرَّض للظلم؛ فكلٌّ واحد منهم كان له اسمٌ يونانيّ! لقد تخلَّى المؤمنون العبرانيُّون عن حقوقهم. لم يُصرُّوا أن يفعلوا الأمور بطريقتهم. لقد تحرَّروا من الطمع والأنانيَّة والرغبة في المكانة الأولى. ولأنَّ التحرُّر من الانحصار في الذات كان سائدًا بينهم، جرى رعاية الأرامل وتحقيق العدالة وشفاء العلاقات المقطوعة.

يا له من موقفٍ يشجِّعنا ويعلِّمنا! إنَّه مثالٌ لبساطة القلب في أفضل صُوَرِها. رُبَّما كنتَ تتوقُ دائمًا مثلي إلى أن تزيد قدرتك على أن تتخلَّص من ذلك الحِمل الثقيل الذي يجعلك تريد دائمًا أن تسيرَ الأمور بطريقتك. وكثيرًا ما كنت تُصلِّي أن تزداد هذه القدرة بين الجماعة المسيحيَّة التي تنتمي إليها. ألا يجعلُ فشلنا في ذلك من تلك الخبرة المملوءة بالروح التي كانت للكنيسة الأولى أكثر إبهارًا لنا؟ وقد كانت النتيجة مُدهشة: ''وكانتْ كلِمَةُ اللهِ تنمو، وعَدَدُ التلاميذِ يتَكاثَرُ جِدًّا في أورُشَليمَ...'' (أعمال الرسل ٦: ٧).

يقع مبدأ العطاء من أجل خير الآخرين في قلب التعليم الأخلاقيِّ لبولس الرسول. لقد أشار على المؤمنين في كورنثوس أنَّه في حالة وجود شكوى بينهم، يجب أن يتنازلوا بعضهم لبعض بدلًا من أن يجلبوا العار على اسم المسيح بالذهاب إلى المحاكم. ''لماذا لا تُظلَمونَ بالحَريِّ؟ لماذا لا تُسلَبونَ بالحَريِّ؟'' (١كورنثوس ٦: ٧). ولمَ لا؟ فالمسيح ظُلم من أجلنا ونحن مدعوُّون لكي ''...تتَّبِعوا خُطواتِهِ...الذي إذ شُتِمَ لَمْ يَكُنْ يَشتِمُ عِوَضًا، وإذ تألَّمَ لَمْ يَكُنْ يُهَدِّدُ بل كانَ يُسَلِّمُ لمَنْ يَقضي بعَدلٍ'' (١بطرس ٢: ٢١، ٢٣).

كان الرسول بولس يمتلك المؤهِّلات التي تجعله يوصي أهل كورنثوس أن يتخلَّوا عن حقوقهم في سبيل المسيح وملكوته؛ إذ إنَّه فعل الشيء نفسه بينهم. لقد كان لديه الحقُّ أن يتلقَّى معونة مادِّيَّة في أثناء السنة والنصف التي خدم فيها بينهم. وبكلِّ وضوحٍ سألهم: ''ألَعَلَّنا ليس لنا سُلطانٌ أنْ نأكُلَ ونَشرَبَ؟...إنْ كُنَّا نَحنُ قد زَرَعنا لكُمُ الرُّوحيَّاتِ، أفَعظيمٌ إنْ حَصَدنا مِنكُمُ الجَسَديَّاتِ؟ إنْ كانَ آخَرونَ شُرَكاءَ في السُّلطانِ علَيكُمْ، أفَلَسنا نَحنُ بالأولَى؟''. بالتأكيد كان له الحقُّ، وكان يعلم ذلك، وهم أيضًا كانوا يعلمون. لكنَّه أضاف: ''لكنَّنا لَمْ نَستَعمِلْ هذا السُّلطانَ، بل نتحَمَّلُ كُلَّ شَيءٍ لئَلَّا نَجعَلَ عائقًا لإنجيلِ المَسيحِ'' (١كورنثوس ٩: ٤، ١١-١٢). بدلًا من أن يستغلَّ حقَّه الشرعيَّ عليهم، سدَّد احتياجاته بنفسه بواسطة صُنع الخيام، حتَّى تنتشر كلمة المسيح وتزداد في كورنثوس.

بعد أن قدَّمتُ هذَين المثالَين، فإنَّني يجب أن أُسارع بالتأكيد أنَّه من الممكن أن يُحوَّلا إلى قوانين تقيِّد بدلًا من أن تحرِّر، وأتمنَّى أن نقاوم مثل ذلك الإغراء. رُبَّما تكون هناك أوقات يكون الذهاب إلى المحاكم هو الخيار الصحيح، وكثيرًا ما يجب تقديم التعضيد المادِّيِّ لخدمة الإنجيل وقبوله بتواضع ومحبَّة. لم يقدِّم بولس قانونًا، لكنَّه قدَّم مثالًا عن تقديم بعضنا بعضًا في المحبَّة (رومية ١٢: ١٠).

من جهة بولس، كان السبب الذي من أجله يكسب المال، ليس أن يبدأ مشروعًا ناجحًا، إنَّما لكي يشارك في احتياجات الآخرين (أفسس ٤: ٢٨). كما أنَّه كان يحثُّ الكورنثيِّين أن يُسهموا في صندوق المساعدات الذي أسَّسته الكنيسة في مكدونية من أجل فقراء أورشليم (٢كورنثوس ٨). كما كان يعقوب يحثُّ التجَّار أن يُخضِعوا بيعهم وشراءهم لأهداف إلهيَّة عُليا. كان يريدهم أن يروا أنَّ الحياة أكبر من صفقات العمل ومراكمة الثروة. لقد كان يقدِّم لهم منظورًا مغايرًا. ''...لأنَّهُ ما هي حَياتُكُم؟ إنَّها بُخارٌ، يَظهَرُ قَليلًا ثُمَّ يَضمَحِلُّ'' (يعقوب ٤: ١٤).

شجَّع الرسولان بطرس وبولس ممارسة ضيافة الغرباء، التي تتضمَّن، كما يعرِف كلُّ صاحب بيتٍ، صعوباتٍ كبيرةً يجري تحمُّلها من أجل الآخرين (١بطرس ٤: ٩؛ رومية ١٢: ١٣؛ ١تيموثاوس ٣: ٢، ١: ٨). ويقول يعقوب بوضوح تامٍّ إنَّه إن كان هناك أخٌ أو أختٌ عريانَين ومعتازَين للقوت اليوميِّ، فإنَّنا يجب أن نقدِّم لهما ما يحتاجا إليه (يعقوب ٢: ١٤-١٧).

ويقول لنا يوحنَّا الرسول في رسالته الأولى إنَّ المسيح قدَّم حياته من أجلنا لذلك علينا أن نقدِّم حياتنا بعضنا من أجل بعض. ثُمَّ يواصل يوحنَّا ليصِفَ بطريقة محدَّدة الكيفيَّة التي ينبغي لنا بها أن نبذل حياتنا بعضنا من أجل بعض: ''وأمَّا مَنْ كانَ لهُ مَعيشَةُ العالَمِ، ونَظَرَ أخاهُ مُحتاجًا، وأغلَقَ أحشاءَهُ عنهُ، فكيفَ تثبُتُ مَحَبَّةُ اللهِ فيهِ؟'' (١يوحنا ٣: ١٧). السؤال بالتأكيد سؤالٌ استنكاريّ. إنَّ محبَّة الله تتجسَّد لحمًا ودمًا في هذه الأفعال العمليَّة البسيطة التي فيها ''بالمحبَّة نخدم بعضنا بعضًا'' (غلاطِيَّة ٥: ١٣).

لاحِظ أنَّ مصلحة الآخرين كانت هي المبدأ الحاكم في كلِّ موقف، حيث يُستبعَد بالتمام الهَوَس المسيطر على الجميع، وهو مطالبة الإنسان بحقِّه. إنَّ الأولويَّة القصوى هي مصلحة الجماعة كُلِّها وانتشار كلمة المسيح.

دعوة جذريّة

إنَّ يسوع المسيح وكلَّ كُتَّاب العهد الجديد يدعوننا أن نتحرَّر من شهوة المال ونعيش في الثقة المبهجة بالله الذي يسدِّد احتياجاتنا. إنَّ انتقادهم الجذريَّ للثروة يرتبط بروح السخاء غير المشروط. إنَّهم يوجِّهوننا نحو أسلوب حياة فيه نقبل كلَّ ما لدينا بصفته عطيَّة، وفيه نوكِّل كلَّ ما نمتلكه إلى عناية الله، ونجعل كلَّ ما لنا متاحًا للآخرين عندما يكون ذلك صالحًا ومناسبًا. هذه الحقيقة تشكِّل قلب البساطة المسيحيَّة. إنَّها وسيلة التحرُّر، والقدرة على فعل الصواب ومقاومة قُوى الخوف والطمع.

في الفصل السابق الذي تناولتُ فيه شريعة العشور في العهد القديم، وعدتُ أن أذكُر سبب عدم جعل كتَّاب العهد الجديد مبدأ العشور أساسًا للعطاء المسيحيّ. إنَّ السبب غاية في الوضوح والعجب، لا سيَّما في حالة بولس الرسول. لقد أعطاه صندوق الإغاثة الذي أسَّسه لفقراء أورشليم، فرصة سانحة لتأكيد مبدأ العشور إذا كان يريد أن يجعل من ذلك ناموسًا. لكن لماذا تجنَّب يسوع وبولس وكلُّ الرسل استخدام تقليدٍ كتابيٍّ راسخ مثل العشور؟

الآن، بعد أن اجتزنا في فقرات العهد الجديد التي تتعامل مع قضيَّة البساطة، لا سيَّما التصريحات التي يقدِّمها العهد الجديد عن الغنى والثروة، فإنَّ إجابة السؤال رُبَّما تكون قد صارت واضحة أمامك. إنَّ مبدأ العُشر ليس جذريًّا بما يكفي لتجسيد مبدأ عدم القلق بشأن الممتلكات الذي يميِّز الحياة في ملكوت الله. يسوع المسيح هو ربُّ **كلِّ** الخيرات والعطايا، وليس فقط العُشر. والمسألة هنا هي أنَّه يُمكننا أن نحافظ على قانون العُشر دون أن نتخلَّى عن شهوة المال. وبالتالي، يُمكننا أن نحسبَ المبلغ الذي نقدِّمه شهريًّا للكنيسة كافيًا لتطبيق شريعة يسوع، دون أن نجتثَّ الطمع والشهوة من قلوبنا بتاتًا. من الممكن أن نُعشِّر كلَّ شيء وفي الوقت نفسه، نسحق الفقير والمسكين والمحتاج. لقد أرعد يسوع في تعليمه ضدَّ الكتبة والفرِّيسيِّين قائلًا: ''ويلٌ لكُمْ أيُّها الكتبةُ والفَرِّيسيُّونَ المُراؤونَ! لأنَّكُمْ تُعَشِّرونَ النَّعنَعَ والشِّبِثَّ والكَمّونَ، وتَرَكتُمْ أثقَلَ الناموسِ: الحَقَّ والرَّحمَةَ والإيمانَ. كانَ يَنبَغي أنْ تعمَلوا هذِهِ ولا تترُكوا تِلكَ'' (متَّى ٢٣: ٢٣). كان النعنع والشبثُّ والكمُّون أعشابًا تنبت في حديقة المطبخ، حتَّى إنَّ عُشرهم من شأنه أن يكون حفنة قليلة جدًّا. وإنَّه لمن المأساويِّ أن يكون الإنسان دقيقًا جدًّا في هذه الأمور الصغيرة وأعمى عن الأمور الكبيرة مثل الحقِّ والرحمة والإيمان.

لا شكَّ أنَّك لاحظت أنَّ يسوع لم يَدِن العشور في حدِّ ذاتها: ''كانَ يَنبَغي أنْ تعمَلوا هذِهِ ولا تترُكوا تِلكَ''. ليست

العشور شيئًا شرِّيرًا بالضرورة، لكنَّها ببساطة لا تكفي لكي تكون الأساس لدعوة يسوع أن نعيش حياةً متحرِّرةً من محبَّة المال. إنَّها لا تكفي لكي تُنزل إله المادِّيَّة الزائف من على عرشه الذي ينافس اللهَ عليه. إنَّها لا يمكن أن تحقِّق الحرِّيَّة التي تميِّز الشركة الاقتصاديَّة بين أبناء الملكوت. رُبَّما يمكن أن تكون العشور بداية الاعتراف بالله بصفته مالكًا لكلِّ شيء. لكنَّها فقط البداية وليست النهاية.

عندما كان يسوع يشاهد التقدِمات التطوُّعيَّة في خزانة الهيكل، تأثَّر بالعطيَّة المُضحِّية للأرملة الفقيرة. ما الذي أثَّر فيه في عطائها؟ كان تعليق يسوع على ذلك العمل البسيط: ''لأنَّ الجميعَ مِنْ فضلَتِهِمْ ألقَوْا، وأمَّا هذِهِ فمِنْ إعوازِها ألقَتْ كُلَّ ما عِندَها، كُلَّ مَعيشَتِها'' (مرقس ١٢: ٤٤).

كان عطاؤها يتميَّز بطبيعة التخلِّي المندفع دون حساب. لقد كانت تقدِّم دليلًا على التكريس الكامل الذي يميِّز وصيَّة محبَّة الربِّ من كلِّ القلب وكلِّ النفس، وكلِّ الذهن وكلِّ القوَّة. في واقع الأمر، تَرِدُ هذه القصَّة في إنجيل مرقس في إثر كلام يسوع عن الوصيَّتَين العُظمتَين، كما لو كانت تفسيرًا لهما. عملٌ بسيط، يبلور كلَّ الشهادة المسيحيَّة. ها هي امرأة متحرِّرة من عبودية المال، خالية من الطمع والجشع. امرأةٌ تُعطي بسخاءٍ يتجاوز العقل والحسابات. أرملةٌ عاجزةٌ بلا مُعيل تعلَّمت أن تثق بالآب السماويِّ ليُسدِّد احتياجاتها يومًا بيوم. امرأة طلبت أوَّلًا ملكوت الله وبرَّه واثقةً بأنَّ كلَّ شيء خلاف ذلك سيُزاد لها. هل نجرؤ أن نقتدي بها؟

٤

البساطة بين القدِّيسين

أوصيكم بالبساطة المقدَّسة.

فرنسيس السالسي (Francis de Sales)

للتاريخ طريقة عجيبة في تحريرنا من الثقافة المعاصرة. فهو يفتح أمامنا آفاقًا غنيَّة من ''شركة القدِّيسين''، فندرك بوضوحٍ أكثر من ذي قَبل أنَّ الله تكلَّم في الماضي، وأنَّنا لسنا الوحيدين الذين سَعَينا لكي نعيش في توافقٍ أمينٍ مع كلمته. إنَّه لأمرٌ يبعث على التواضع أن نكتب عن البساطة المسيحيَّة ونكتشف مجلَّدًا كبيرًا من القرن الخامس عشر كتبه جيرولامو ساڤونارولا (Girolamo Savonarola) بعنوان ''**بساطة الحياة المسيحيَّة**'' *(The Simplicity of the Christian Life)*. من شأن مثل هذه الخبرات تدمير كبريائنا المعاصرة.

من السمات البارزة لمعلِّمي المسيحيَّة العظماء، ذلك الثبات المذهل لشهادتهم بالرغم من اختلاف الشخصيَّات وتنوُّعها. وبكلمات وليم جيمس (William James): ''للقدِّيسين صورة واحدة مركَّبة من أجزاء كثيرة جدًّا''.[١] أشخاصٌ من ثقافاتٍ مختلفة وحِقَب زمنيَّة متباعدة تبدو عليهم سمات مشتركة ومتقاربة بصورةٍ مدهشة. وتُعدُّ البساطة المسيحيَّة واحدة من أكثر سماتهم ثباتًا. أشخاصٌ متباعدون ومختلفون مثل اختلاف أغطسينوس أُسقف هيپو (Augustine of Hippo) وفرنسيس الأسيزيّ (Francis of Assisi) وبلايز پاسكال (Blaise Pascal) ومادام جيون (Madame Juno) وريتشارد باكستر (Richard Baxter) وجوليان من نورويتش (Julian of Norwich)، كلُّهم دَعوا إلى بساطة الحياة.

نحن نحتاج لأن ننتبه إلى هذه الأصوات التي ترتفع من الماضي، ونسمع شهاداتهم، ونتَّبع خُطاهم. في هذا الفصل، سنبحث في ستَّة ''نماذج'' مختلفة من البساطة المسيحيَّة. ولا شكَّ أنَّ هذه النماذج هي مُجرَّد مُمثِّلين للشهادة الغنيَّة للمسيحيِّين عبر القرون.

لا يوجد نموذجٌ كاملٌ لأيِّ شيء. ما دُمنا بشرًا محدودين، فإنَّنا لا بُدَّ أن نرتكب أخطاءً ونشوِّه الحقَّ بطريقةٍ أو بأخرى. إنَّ الحركات التي قامت على مدار تاريخ الكنيسة كلِّه ليست استثناءً من هذه الحقيقة؛ إذ تشهد كلُّ مجموعة سنبحث فيها عن عيوبٍ ونقائص بصورةٍ أو بأُخرى. لكنَّ هذه الحقيقة بشأن الوجود البشريِّ يجب ألَّا تُعوِّق بأيَّة حالٍ من الأحوال تقديرنا لشهادتهم الساطعة عن طريقةٍ من طُرُق المسير مع الله ''المتحرِّرة من القيود الخارجيَّة''.[٢] في كلِّ حالةٍ، سنولي انتباهنا إلى الإسهامات البارزة لهذه الحركة في قضيَّة البساطة. وفي النهاية، سنجمع كلَّ التحفُّظات بالنظر في ثلاث قطعٍ كلاسيكيَّة أدبيَّة في مجال البساطة المسيحيَّة.

مشاركةٌ غزيرةٌ واهتمامٌ كبير

في المرحلة التي تَلَت عصر الرُّسل مباشرةً، كان المسيحيُّون يمارسون حالةً من المشاركة الغزيرة والاهتمام الكبير بعضهم ببعض وبالآخرين. هذه الحالة كانت فريدةً من نوعها في العالم القديم. وقد اعترف الإمبراطور جوليان المرتدُّ (Emperor

Julian)، وقد كان عدوًّا للمسيحيَّة، أنَّ ''هؤلاء الجليليِّين الكافرين لا يطعمون فقراءهم فقط، بل فقراءنا أيضًا''.[٣] وكتب ترتليان (Tertullian) أنَّ أعمال المحبَّة التي كان المسيحيُّون يقومون بها كانت نبيلةً حتَّى إنَّ العالم الوثنيَّ اعترف بها في ذهولٍ قائلين: ''انظُر كيف يحبُّون بعضهم بعضًا''.[٤] ما الذي كان يفعله هؤلاء المسيحيُّون حتَّى إنَّهم أثاروا ردود الفعل هذه من أعدائهم؟

أوَّلًا، كان أعضاء مجتمع الإيمان يمارسون حالةً من تسديد احتياجات بعضهم بعضًا بصورةٍ شديدة التحرُّر من الخوف ومن التمسُّك بالممتلكات الشخصيَّة. مثلًا، كان كتاب ''**الديداخي**'' (The Didache) (كتاب تعليم الرسل الاثنَي عشر) يحثُّ المسيحيِّين: ''لا تلتفت بعيدًا عن المحتاج، بل يجب أن تشارك كلَّ شيء مع أخيك ولا تقُل إنَّ شيئًا مُلكك''.[٥] وبحلول سنة ٢٥٠ ميلاديَّة، كان المسيحيُّون في روما يرعون نحو ألفٍ وخمس مئة محتاج. في واقع الأمر، كان سخاؤهم غزيرًا حتَّى إنَّ إغناطيوس (Ignatius of Antioch) استطاع أن يقول إنَّهم كانوا ''يقودون بالمحبَّة''، والأسقف ديونيسيوس الكورنثيُّ (Dionysius of Corinth) ذكَر أنَّهم كانوا يرسلون ''إمدادات لكنائس عدَّة في كلِّ المدن''.[٦] وعندما انضمَّ مارسيون (Marcion)، وهو مالك سفن ثريٌّ، إلى مسيحيِّي روما، قدَّم لهم مبلغًا ضخمًا من المال يبلغ مئتَي ألف سيسترتيوس.

ونحصل أيضًا على لمحة عن المجتمع المسيحيِّ الخيِّر من كليمندس الأوَّل (Clement I): ''ليكن كلُّ إنسانٍ خاضعًا لجاره...ليرعَ الغنيُّ احتياجات الفقير، وليبارك الفقير الله، لأنَّه عيَّن شخصًا يسدِّد منه احتياجاته''.[٧] وسجَّل ترتليان قائمةً طويلة من المجموعات التي كان المسيحيُّون يرعونها. كانوا ينفقون على الفقراء ويدفنوهم عندما يموتون، ويسدِّدون احتياجات الأيتام والمتروكين من آبائهم وأمَّهاتهم، والمُسنِّين غير القادرين على مغادرة بيوتهم، والذين تحطَّمت بهم السفن في أثناء السفر وفقدوا كلَّ ما لهم، وكان يرعون أيضًا الذين جرى نفيهم إلى جزر بعيدة أو كهوف سحيقة بسبب إيمانهم وأمانتهم لقضيَّة المسيح.

والذين كانوا يستطيعون العمل كانوا يشجِّعونهم أن يعملوا، حتَّى يمكنهم أن يساعدوا من لهم احتياج. ذكرت الأدبيَّات المنسوبة إلى كلميندس أنَّ القادرين على العمل يجب أن يعملوا، والذين لا يمتلكون مهارات يجب تعليمهم مهارة، والذين لا يستطيعون العمل يجب أن تُعيلهم الجماعة''. [٨]

كما كان المسيحيُّون يدبِّرون حال من فقدوا وظائفهم بسبب إيمانهم بالمسيح. مثلًا، كان من المعروف أنَّ الكنيسة كانت تُنفق على الممثِّل في المسرح الرومانيِّ الذي أصبح مسيحيًّا، وذلك لأنَّه كان يضطرُّ إلى ترك وظيفته بسبب تورُّط هذه الوظيفة في الأساطير الوثنيَّة.

كان المسيحيُّون مستعدِّين للمساعدة ومتشوِّقين إليها في أيَّة حالةٍ طارئةٍ أُخرى. عندما هجر مسيحيُّو نوميديا سنة ٢٥٣ ميلاديَّة بسبب غزوات البدو على بلادهم، جمع لهم سيبريان (Cyprian) مئة ألف سيسترتيوس من مجموعة صغيرة من قرطاج.

ولم يقتصر عطاؤهم على المسيحيِّين، فقد عاش هؤلاء المؤمنون في بساطة وثقة بالله حتَّى إنَّهم كانوا يشاركون مواردهم بسرورٍ وحُرِّيَّةٍ مع أيِّ محتاج. شهد الأسقف يوحنَّا ذهبيُّ الفم (John Chrysostom) قائلًا: ''الكنيسة هنا تُطعم يوميًّا ثلاثة آلاف شخص. وعلاوةً على ذلك، فإنَّ الكنيسة توفِّر يوميًّا طعامًا وملابس للسجناء ومرضى المستشفيات والمهاجرين والعاجزين ورجال الكنيسة، وغيرهم''.[٩] وعندما انتشرت الأوبئة في قرطاج والإسكندريَّة، هُرِع المسيحيُّون لمساعدة مَن كان لديهم احتياج. قال يوستينوس الشهيد (Justin Martyr) إنَّ مجتمع الإيمان جمع مالًا لرعاية الأيتام والأرامل والمرضى

والمسجونين والغرباء، و ''بجُملة واحدة، كان [مجتمع الإيمان] يهتمُّ بكلِّ من لديه احتياج''.[١٠]

لا يمكن تفسير أعمال المحبَّة والتضحية المتكرِّرة والمستمرَّة في ضوء سياسات كنسيَّة أو علمانيَّة. لقد كانت أعمالًا تنبع من تكريس عميق للمسيح ودعوته للاهتمام بالمحتاجين. كان هؤلاء المسيحيُّون يؤمنون بصدقٍ بأنَّ الله هو مالك الكلِّ وهو الذي يعطي الجميع عطايا حسنة. كان سخاؤهم محاكاةً لسخاء الله. لقد كانوا متحرِّرين من القلق؛ لأنَّهم كانوا يؤمنون بأنَّ الغد بين يدي الله. لذلك عاشوا في بساطة.

رُبَّما لم يستوعب أحدٌ روح البساطة المسيحيَّة وغزارة الرعاية والمشاركة مثل الفيلسوف المسيحيِّ أرِستايدس (Aristides) فكانت كلماته (التي كُتبت سنة ١٢٥ ميلاديَّة) مؤثرةً جدًّا حتَّى إنَّني سأقتبسها بالكامل هنا:

> إنَّهم يسيرون في تواضعٍ ولطفٍ وحنوٍّ، ولا يوجد بينهم زيفٌ، ويحبُّون بعضهم بعضًا. إنَّهم لا يحتقرون الأرملة، ولا يُحزِنون اليتيم. كانَ كلُّ من لديه وفرة يشارك بوفرة من لديه احتياج. إذا رأوا غريبًا، فإنَّهم يستقبلونه تحت سقفهم، ويفرحون به كما لو كان أخًا لهم؛ لأنَّهم يدعون أنفسهم إخوةً، وليست أُخوَّةً بالجسد، بل أخوَّةٌ في روح الله. وعندما يرحل أحد فُقرائهم عن العالم، ويراه أحدهم، فهو يتكفَّل بدفنه بحسب استطاعته، وإذا سمعوا أنَّ أحدهم مسجونٌ أو مضطهدٌ بسبب اسم مسيحهم كانوا كلُّهم يسدِّدون احتياجاته، وينقذونه إذا استطاعوا. وإذا كان بينهم إنسانٌ فقيرٌ أو محتاجٌ، ولم تكن لديهم وفرة في الموارد، كانوا يصومون يومًا أو اثنين ليوفِّروا الطعام الضروريَّ للمحتاج.[١١]

يخاطب هذا النموذج للبساطة حالتنا. ما أعظم حاجتنا لأن نكتشف طرقًا جديدة خلَّاقة لرعاية من لديهم احتياج ومشاركتهم!

قوَّة التخلِّي

تمثِّل قوَّة التنازل التي كانت تُرى في ''آباء الصحراء وأمَّهاتها'' نموذجًا ثانيًا من نماذج البساطة المسيحيَّة.

عندما بدأ اضطهاد المسيحيِّين الأوائل يتناقص، لم يعُد ممكنًا الشهادة للمسيح بالاستشهاد. لكنَّ العالم لم يغيِّر من عدم تسامحه مع رسالة الإنجيل، لكنَّه فقط غيَّر خططه، وبدأ استخدام الاحتواء بدلًا من الاضطهاد.

كان الهرب إلى الصحراء عند آباء الصحراء وأُمَّهاتها طريقةً للهرب من التوافق مع العالم. لقد أصبح العالم، بما في ذلك الكنيسة، تحت سيطرة المادِّيَّة العلمانيَّة حتَّى إنَّهم رأوا أنَّ الطريقة الوحيدة للشهادة له هي أن ينسحبوا منه. يكتب توماس ميرتون (Thomas Merton) في مقدِّمة كتابه ''**حكمة الصحراء**'' *(Wisdom of the Desert)*: ''كان آباء الصحراء يعدُّون المجتمع سفينة غارقة على كلِّ إنسانٍ أن يسبح لينجو بنفسه منها''.[١٢]

كانوا يحاولون إعادة إحياء التكريس المسيحيِّ الحقيقيِّ وبساطة الحياة بالرفض الشديد للعالم والتخلِّي عنه. وفي واقع الأمر، لا تزال خبرتهم ذات صِلةٍ وثيقةٍ بوضعنا؛ لأنَّ العالم الحديث يشبه العالم الذي كانوا يهاجمونه بضراوة. كان شعار عالمهم: ''كيف أحصل على المزيد؟''، وكان آباء الصحراء وأمَّهاتها يسألون: ''ما الذي أستطيع أن أستغنيَ عنه؟''. كان عالمهم يتساءل: ''كيف يمكن أن أجد نفسي؟''. أمَّا هُم فكانوا يتساءلون: ''كيف أبذل ذاتي؟''. كان عالمهم يسأل: ''كيف أكسب الأصدقاء وأؤثِّر في الآخرين؟''. أمَّا آباء الصحراء وأمَّهاتها، فكانوا يتساءلون: ''كيف أحبُّ الله؟''.

كان أنطونيوس (Antonius)، الذي دُعِيَ أبا الرهبان (٢٥١–٣٥٦م)، في الثمانين من عمره عندما سمع كلمات الإنجيل: ''...اذهَبْ وبعْ أملاكَكَ وأعطِ الفُقَراءَ، فيكونَ لكَ كنزٌ في السماءِ، وتَعالَ اتبَعني'' (متَّى ١٩: ٢١). وعندما خرج من الكنيسة، ذهب مباشرة وباع الأرض التي ورثها وكلَّ مقتنياته ووزَّع ثمنها على الفقراء، وأبقى فقط ما ينفق على أخته الصغيرة. وبعد أن عاش على حدود قريته لبعض الوقت، ذهب إلى الصحراء حيث عاش عشرين عامًا في وَحدةٍ تامَّة. في هذه الوَحدة، اضطُرَّ إلى مواجهة ذاته الزائفة الفارغة. تعلَّم أن يموت عن آراء الآخرين وتحرَّر من عبوديَّة البشر. لقد كانت التجارب التي واجهها قويَّةً وكثيرة.

عندما خرج من هذه الوَحدة في الصحراء، كان يتمتَّع باللُّطف والتسامح والمحبَّة والاحتمال والوداعة والتحرُّر من الغضب، وكان دؤوبًا في ممارسة الصلاة. كما لاحظ الناس فيه رحمةً وقوَّةً، وكثيرون تطلَّعوا إليه للحصول على المشورة الروحيَّة والصلاة الشافية. حتَّى الإمبراطور قسطنطين (Constantine the Great) طلب نصيحته. ولسنواتٍ عدَّة، كانت له خدمة فعَّالة ومتنوِّعة. وفي السنوات الأخيرة من حياته، اختلى مرَّةً أخرى في الصحراء حيث مات في عمر المئة وخمس سنوات.

تخلَّى آباء الصحراء وأمَّهاتها عن الممتلكات لكي يعرفوا معنى أن تكون للإنسان عينٌ بسيطة نحو الله. لقد كانوا مثل لاعبي رياضة في حياتهم مع الله– أرادوا التخلُّص من كلِّ العوائق. لا شكَّ أنَّه كان هناك بعضٌ من المبالغات في الممارسات الرهبانيَّة لآباء الصحراء، لكنَّها ليست مختلفة كثيرًا عن المبالغات في الاتِّجاه الآخر الموجودة في الكنيسة اليوم.

كان للتخلِّي الذي مارسه آباء الصحراء وأُمَّهاتها قوَّة مغيِّرة عظيمة. هؤلاء الرجال والنساء تخلَّوا عن ممتلكاتهم لكي يتعلَّموا الانفصال. لقد حصلوا على حرِّيَّة عظيمة عندما تنازلوا عن لهفة الامتلاك. من بين حكايا آباء الصحراء وأُمَّهاتها، قصَّة شخص رفيع المقام أعطى سلَّةً من القطع الذهبيَّة لأحد الكهنة طالبًا منه أن يوزِّعها بين الإخوة. فقال الكاهن: ''إنَّهم لا يحتاجون إليها''. لكنَّ الثريَّ الكريم أصرَّ ووضع سلَّة العملات أمام الطريق المؤدِّي إلى الكنيسة طالبًا من الكاهن أن يخبِّر كلَّ الإخوة أنَّ ''كلَّ من له احتياج، فليأخذ''. فلم يلمسها أحد، أو حتَّى اهتمَّ أحدٌ بالنظر فيها. فأخذ الرجل سلَّته الذهبيَّة مدهوشًا وقد تعلَّم درسًا.[١٣]

إنَّ الانفصال يحرِّرنا من سيطرة الآخرين. فلا نكون عرضةً للمناورة من الآخرين الذين بيدهم أرزاقنا. لا تعود الأشياء تغري مُخيِّلاتنا، ولا يتحكَّم البشر في أوضاعنا وأحوالنا في ما بعد.

كما تخلَّى آباء الصحراء وأُمَّهاتها عن الكلام أيضًا لكي يستطيعوا أن يتعلَّموا التحنُّن. كانت هناك قصَّةٌ مدهشة عن الراهب الأنبا مكاريوس الذي قال للإخوة في كنيسة برِّيَّة شيهيت: ''أيُّها الإخوة، اهربوا''. فسأله أحد الإخوة وهو متحيِّر: ''كيف نهرب أبعد من ذلك وأنت ترى أنَّنا في الصحراء؟''. أشار مكاريوس بإصبعه إلى فمه وقال: ''اهربوا من هذا''. عندما صلَّى آرسينيوس (Arsenius the Great) المعلِّم الرومانيُّ الذي تخلَّى عن مكانته وثروته من أجل الاختلاء في الصحراء قائلًا: ''يا ربّ، قدني إلى طريق الخلاص''، سمع صوتًا يقول له: ''اصمت''.[١٤]

يحرِّرنا الصمت من الاحتياج إلى السيطرة على الآخرين. من الأسباب التي تجعل من الصعب علينا أن نظلَّ صامتين، أنَّ الصمت يجعلنا نشعر بالعجز الشديد. إنَّنا معتادون أن نعتمد على الكلمات لكي نُدير العلاقات ونسيطر على الآخرين. عندما نريد التأثير في الآخرين وجعلهم مثلما نريد، فإنَّ سيلًا من الكلام يتدفَّق منَّا. إنَّنا نريد بإصرار شديد أن يتَّفقوا معنا، وأن يروا الأمور مثلما نراها. تجدنا نقيِّم الناس ونحكم عليهم وندينهم. ونفترس الناس بكلامنا. الصمت هو أحد أعمق التدريبات الروحيَّة لأنَّه يضع نهايةً لكلِّ هذا.

إنَّنا عندما نهدأ ونصمت بما يكفي لكي نطلق الآخرين أحرارًا، نتعلَّم الرحمة والشفقة عليهم، ونستطيع أن نكون معهم في جرحهم واحتياجهم. فيصير مُمكنًا أن نقول كلمةً واحدةً خارجةً من الصمت الداخليِّ من شأنها أن تطلقهم أحرارًا. لقد كان أنطونيوس يعلِّم أنَّ الاختبار الحقيقيَّ للروحانيَّة يكمن في حرِّيَّة العيش بين الناس برحمة: ''يمكننا أن نكون للقريب حياةً أو موتًا. إذا صنعنا الخير للإخوة، فنحن نفعله لله. لكن إذا كنَّا نصدم الإخوة، فإنَّنا نخطئ تجاه المسيح''. [١٥]

تخلَّى آباء الصحراء وأمَّهاتها عن النشاط حتَّى يتعلَّموا الصلاة. لقد كانت الصلاة في قلب خبرة الصحراء. أراد هؤلاء الرياضيُّون الروحيُّون أن يتخلَّصوا من أيِّ شيءٍ زائدٍ عن الحدِّ، لكي يُركِّزوا على الشيء الواحد الأكثر أهمِّيَّة واحتياجًا. أعلن الأب أغاثو (Agatho): ''لا يوجد عملٌ أعظم من الصلاة لله...مع كلِّ عملٍ يقوم به الإنسان في الحياة الدينيَّة، مهما كان ملتزمًا نحوه بكلِّ أمانةٍ وجدِّيَّة، هناك بعض الراحة، لكنَّ الصلاة هي الصراع العظيم الذي يستمرُّ حتَّى آخر نَفَس''. [١٦] إنَّ الصلاة تحرِّرنا من سيطرة كلِّ شيء آخر لنخضع لسلطان الله. الصلاة تغيِّرنا. لا توجد قوَّة محرِّرة في الحياة المسيحيَّة أكبر من قوَّة الصلاة. عندما ندخل محضر القدُّوس لا يمكن أن نظلَّ كما نحن. عندما يغمرنا النور وتغشانا سكينة الدهشة وفرح الاستسلام أمام وجهه الجميل، نتغيَّر ونتبدَّل ببطء وبثبات في الوقت نفسه. إنَّنا عندئذٍ نحصل على توجيهٍ داخليٍّ أغنى، وجوعٍ أعمق للتواصل. ونشعر كما لو كانت حياتنا قد صارت خاضعة ''لمركز تحكُّم'' آخر. وهذه هي الحقيقة.

قليلون منَّا، رُبَّما لا أحد، سيقودهم الله إلى أنواع التخلِّي التي ميَّزت حياة آباء الصحراء وأُمَّهاتها. لكنَّنا كلَّنا نحتاج لأن نطلب الله لكي يعطينا ''زقاقًا'' جديدة تبني في حياتنا بساطة القدرة على الانفصال عن الأشياء والتحنُّن على الآخرين والصلاة.

فرح البساطة

كان الراهب الفقير النحيل القدِّيس فرنسيس الأسيزيُّ وجماعته الصغيرة يمثِّلون نموذجًا آخر للبساطة المسيحيَّة. لقد تشرَّدوا في طول الأرض وعرضها ثملين بخمر محبَّة الله، وممتلئين بالفرح والنشوة الروحيَّة. كان الفرح البادي على وجوههم علامةً مميِّزة للبساطة التي كانوا يعيشونها.

كان فرنسيس (١١٨٢-١٢٢٦م) واحدًا من أكثر الشخصيَّات الساحرة في تاريخ الإيمان المسيحيّ. وُلد في المدينة الإيطالية العريقة أسيزي لوالدَين ثريَّين، وقضى سنوات المراهقة في اللهو واللعب دون تحمُّل همٍّ أيَّة مسؤوليَّة. وبوصفه قائدًا وسط مجموعة الشباب الأرستقراطيِّ في مجتمعه الصغير، كان دائمًا ما يبتكر أنواعًا جديدةً من اللهو والاستمتاع.

لكنَّ المرض والإحباط بدأا بالتأثير فيه وقيادة هذه الشخصيَّة الحسَّاسة في سلسلة طويلة من الصراعات الروحيَّة الشديدة. جاءت ذروة ذلك سنة ١٢٠٦م عندما أحضره والده الغاضب أمام الأسقف، لكي يحرمه من الميراث (حيث كان فرنسيس قد وزَّع الكثير من أموالٍ أخذها من أبيه على الفقراء). عندها، تخلَّى فرنسيس عن كلِّ شيءٍ وابتعد مصمِّمًا أن يتَّبع الربَّ في حالةٍ من الفقر الاختياريِّ الرسوليّ.

لم يمضِ وقتٌ طويل حتَّى تبع كثيرون الشابَّ فرنسيس بسبب تأثُّرهم بفرحه في الضيقات وارتباطه بما أسماها ''السيِّدة فقر''. بعد أن تلقَّى فرنسيس هذه الدعوة الواضحة، طلبت فتاة صغيرة اسمها كلارا (Clara) في السادسة عشرة من عمرها أن تنضمَّ إلى الحركة. وهكذا، بدأ فرعٌ نسائيٌّ للحركة الفرنسيسكانيَّة اسمها ''السيِّدات الفقيرات'' أو ''الكلاريَّات الفقيرات''، نِسبةً إلى كلارا. وبمرور الوقت، أصبحت تلك المجموعة البهيجة من الرجال والنساء واحدةً من أكبر الجماعات الرهبانيَّة في الإيمان الكاثوليكيّ.

جمعت الحركة الفرنسيسكانيَّة المبكِّرة بصورةٍ غير معتادة بين التأمُّل التنسُّكيِّ الصوفيِّ، والحماسة لإعلان البشارة. لعلَّ بول ساباتييه (Paul Sabatier) أهمُّ مَن اعتنوا بكتابة قصَّة حياة القدِّيس فرنسيس، إذ يكتب عن الحماسة لإعلان البشارة لدى فرنسيس الأسيزيِّ أنَّه ''لكونه يختبر السعادة التامَّة، كان يشعر بأنَّه مدفوعٌ ليشارك الآخرين بهذه السعادة وأن يُعلِن في زوايا العالم الأربع كيف يمكن للناس أن يحصلوا على مثل هذه السعادة'' .[١٧] وبحماسةٍ، عبَرَ فرنسيس أغلب مُدُن إيطاليا، وكرز لسلطان مصر، وخدم بين المسلمين في إسبانيا. كان متكلِّمًا يخلب القلوب، وكان اقتناعه العميق ومحبَّته المتوهِّجة يثيران في الناس حماسةً تكاد أن تصل إلى الهذيان.[١٨]

أرسل فرنسيس من أسماهم ''الإخوة الأصاغر'' في كلِّ أوروبَّا حتَّى إلى المغرب. وكان يسمِّي جماعته الصغيرة ''مهرِّجي الله'' الذين هدفهم ''إعادة إحياء قلوب الناس وقيادتهم نحو الفرح الروحيّ'' .[١٩]

لم يكن ''الإخوة الأصاغر'' فقط يَعِظون، لكن كانوا أيضًا يُرتِّلون بفرح. وكانت تغشاهم النشوة والفرح بصورةٍ فائقة عندما كانوا يعبدون الله. وبروحِ شاعرٍ، كان فرنسيس يرتجل ترانيمهم. من أشهر هذه الترانيم ''نشيد الشمس'' الذي يحتفي فيه بأختنا الشمس، وأخينا القمر، وأخينا الريح، وأختنا المياه. إنَّها عبادة مبتهجة لله خالق كلِّ شيءٍ حسن.

كانت محبَّتهم للخليقة من العلامات المميِّزة لهؤلاء الإخوة البسطاء. عاشوا قريبًا من الأرض وكانوا يفرحون بها بصورةٍ خاصَّةٍ جدًّا. في إحدى المناسبات، ذهب فرنسيس مع الأخ ماسيو (Masseo) يستعطي بعض الخبز من قريةٍ صغيرة. وعندما عادوا ببعض الكِسَر اليابسة، أخذوا يفتِّشون حتَّى وصلوا إلى نبعٍ يشربون منه، وصخرةٍ مستوية يستخدمونها كطاولة. وبينما كانوا يأكلون غداءهم الضئيل هتف فرنسيس مرَّات عدَّة: ''يا أخي ماسيو، إنَّنا لا نستحقُّ كنزًا كهذا!''. أخيرًا، اعترض الأخ ماسيو قائلًا إنَّ هذا الفقر لا يمكن أن يُسمَّى كنزًا. فلَم يكن هناك غطاءٌ يُمدُّ على ''المائدة'' التي كانوا يأكلون عليها، ولا سكِّين، ولا طبق، ولا وعاء، ولا منزل، ولا مائدة من الأساس. أجاب فرنسيس وهو ملآنٌ بالفرح: ''هذا ما أحسبُه كنزًا عظيمًا– حيث لا يوجد شيء أعدَّته أيادي البشر، فكلُّ شيءٍ لنا دبَّرته العناية الإلهيَّة الرحيمة: هذا الخبز، وتلك الصخرة الجميلة الملساء، وهذا النبع الصافي لنشرب منه''. وبعد أن انتهوا من وجبتهم بفرح، استمرُّوا في ترحالهم إلى فرنسا وهم ''يفرحون ويسبِّحون الربَّ''.[٢٠]

كانت الثقة الفرِحة بالربِّ تُميِّز بساطتهم. ذات يومٍ، جمع فرنسيس نحو خمسة آلاف أخٍ على سهلٍ مفتوح في ما يشبه اجتماعًا عامًّا. كان هناك القدِّيس دومينيك (Saint Dominic) وعددٌ آخر من الشخصيَّات البارزة ليشاهدوا الحدث. ثُمَّ جاء الوقت الذي وقف فيه فرنسيس وقدَّم عِظةً مؤثِّرةً ختمها بوصيَّة أنَّ الإخوة يجب ألَّا يهتمُّوا ''بما يأكلونه أو يشربونه أو أيِّ شيءٍ يختصُّ بالجسد بل يركِّزون فقط على تسبيح الله والصلاة. ويتركوا أمر أجسادهم للمسيح، لأنَّه يهتمُّ بهم اهتمامًا خاصًّا''.

عندما سمع دومينيك هذا الكلام شعر بالضيق، إذ بدت أنَّها وصيَّة غير حكيمة. ثُمَّ في وقتٍ قصير، بدأ الناس من القرى والبلاد المجاورة يتوافدون، حاملين معهم إمداداتٍ سخيَّةً من الطعام حتَّى صارت وليمةً احتفاليَّةً عظيمةً فَرِح فيها الرهبان بعطايا الله. تأثَّر دومينيك من المشهد حتَّى إنَّه جثا بوداعة أمام فرنسيس وقال: ''إنَّ الله بالفعل يهتمُّ بهؤلاء الرجال الفقراء الأصاغر. لذلك فإنَّني من الآن فصاعدًا أعِدُ أن أتبع فقر الإنجيل المقدَّس'' .[٢١]

لقد كان فرنسيس يعرف الفرح، لكنَّ فرحه كان متأصِّلًا في الصليب، وليس في الهرب منه. هناك قصَّةٌ مُبهِجة تروي ما جرى عندما علَّم فرنسيس الأخ ليو (Leo) معنى الفرح الكامل. بينما كانا يتمشَّيان معًا تحت المطر والبرد الشديدَين، بدأ فرنسيس يذكِّر ليو بكلِّ الأشياء التي يعتقد الناس أنَّها تجلب الفرح، وفي كلِّ مرَّةٍ يضيف قوله: ''الفرح التامُّ ليس في

ذلك''. وفي النهاية، سأله الأخ ليو يائسًا: ''أتوسَّل إليك في اسم الله أن تقول لي، في أيِّ شيءٍ يقع الفرح التامّ؟'' عندئذٍ، بدأ فرنسيس يعدِّد أكثر الأشياء إذلالًا ومهانةً يمكن أن يتخيَّلها، وفي كلِّ مرَّة يضيف: ''يا أخ ليو، اكتُب أنَّ هنا يكمن الفرح التامّ''. ولكي يختم الأمر ويشرحه قال له: ''فوق كلِّ نِعَم الروح القدس وعطاياه التي يعطيها المسيح لأصدقائه هي القدرة على هزيمة النفس والتحمُّل الطوعيِّ للألم والإهانة والإذلال والصعوبات من أجل محبَّة المسيح'' .[٢٢]

تُقدِّم لنا حياة القدِّيس فرنسيس نموذجًا صحِّيًّا للعزوبة (إذ يزخر تاريخ الكنيسة بنماذج العزوبة غير الصحِّيَّة). إنَّ قضيَّة حياة العازب قضيَّة لا ينبغي التعامل معها بخِفَّة. ولكي أكون صريحًا في الأمر، يجب أن أقول إنَّ حياة العزوبة ضروريَّة لممارسة بعض صور البساطة. ما كان فرنسيس ليستطيع أن يفعل ما فعله لو لم يكن عازبًا. ولا حتَّى يسوع.

ليست العزوبة ضروريَّة لممارسة حياة البساطة، لكنَّها ضروريَّةٌ لبعض صور هذه الحياة. إذا كنَّا نريد أن نعيش مثل فرنسيس، يستحسن ألَّا نكون متزوِّجين. إذا كنَّا نريد الزواج، فيُستحسن ألَّا نحاول أن نعيش مثل فرنسيس. إنَّ الفشل في فَهمِ هذه الحقيقة البسيطة قد يسبِّب قدرًا كبيرًا من البؤس في المجتمع.

لقد كان فرنسيس والإخوة الأصاغر يعرفون فرح الربّ. لقد تميَّزوا بالمحبَّة البسيطة والثقة الفرحة بالله. وقادوا ثورة سعيدة مبتهجة في مواجهة روح المادِّيَّة والفكر المزدوج بين الله والمال. إنَّ أكثر ما نحتاج إليه اليوم هو تلك البساطة التي تتميَّز بالفرح والنصرة.

اللاهوت في سبيل البساطة

يقدِّم الإصلاح البروتستانتيُّ بصيرةً مهمَّةً في الأُسُس اللاهوتيَّة للبساطة. رأى مارتن لوثر (Martin Luther) أنَّ تقاليد ذلك الزمن قد زعزعت سُلطة الكتاب المقدَّس، فرفع عاليًا مبدأ الكتاب المقدَّس فقط (Sola Scriptura). كما أنَّه أراد أن يكسر ذلك النظام لنوال الاستحقاقات الدينيَّة الذي كان سائدًا في عصره، فرفع شعار **النعمة فقط** (Sola Gratia). وعمل جاهدًا لكي يضع أساس حياة الأمانة مقابل البِرِّ بالأعمال الذي كان منتشرًا في زمانه، وذلك بالإصرار على مبدأ الإيمان فقط (Sola Fide). وكانت النتيجة هي تبسيط كلٍّ من العقيدة والحياة.

تعامل مارتن لوثر مع مسألة البساطة بطريقةٍ عميقةٍ وعمليَّةٍ في كتابه ''**حُرِّيَّة المسيحيّ**'' *(The Freedom of a Christian)*. لقد رأى لوثر بصورةٍ واضحةٍ أنَّ الإنجيل يحرِّرنا لكي نخدم القريب بقلبٍ موحَّد. وكما رأى لوثر، إذا كان خلاصُنا بالنعمة فقط، فإنَّنا لا نحتاج لأن نستمرَّ في محاولة ممارسة الكثير من الواجبات الدينيَّة لنُرضي الله. إنَّنا نحتاج لأن نتحرَّر من الاحتياج إلى قياس حرارتنا الروحيَّة باستمرار.

إنَّ تحرُّرنا من الخطيَّة يسمح لنا بأن نخدم الآخرين بحقّ. فقبل أن يحدث ذلك، تكون كلُّ خدمتنا في مصلحتنا؛ مجرَّد طريقةٍ لإصلاح علاقتنا بالله. يمكننا أن نعطي النعمة ذاتها للآخرين؛ فقط لأنَّ نعمة الله قد غمرتنا. عبَّر لوثر عن هذه الفكرة في المفارقة الشهيرة: ''المسيحيُّ سيِّدٌ حرٌّ تمامًا من كلِّ شيء، وليس عبدًا لأحد. وهو الخادم المطيع للكلِّ، وخاضعٌ للجميع''. [٢٣]

وكما رأى لوثر، وبنعمة الله وحدها، وليس بأيِّ عملٍ من أعمال البرِّ الذاتيِّ، نصل إلى حُرِّيَّة الإنجيل المجيدة. إنَّنا كُلَّنا سادة وملوك وكهنة. لقد تحرَّرنا من ناموس الخطيَّة والموت.

لكنَّ هذه الحُرِّيَّة ليست من أجلنا فقط– إنَّها أيضًا حُرِّيَّة أن نخدم الآخرين.

إنَّ لحظةً من التأمُّل من جانبنا تؤكِّد حقيقة ذلك الاستبصار الذي يقدِّمه لوثر. إذا كُنَّا لا نزال تحت سلطان الخطيَّة، فإنَّ خدمتنا ستنبُع من ذلك النبع الداخليّ؛ إذ لن تكون لدينا العين البسيطة التي تنير للآخرين. وسيستمرُّ الخوف والكبرياء والمناورة في السيطرة على أفعالنا. كما لن نكون أحرارًا لكي نخدم القريب. إذا كنَّا لا نزال مستعبَدين للآخرين، فإنَّ خدمتنا ستنبُع من ذلك المركَز المقيَّد، وستُسَيطِر علينا الرغبة في إبهار الآخرين، أو الحصول على مساعدتهم. لذا، دون الحرِّيَّة التي يمنحها الإنجيل، سنستمرُّ على الدوام في أن نقيس أنفسنا بمقاييس الآخرين، ولن نكون أحرارًا لنخدم القريب ببساطة قلب.

لكن ما إن تقتَحِم نعمة الله قلوبنا، حتَّى نتحرَّر عندئذٍ. وعندما نتحرَّر من سيطرة القريب، سنستطيع أن نطيع الله. وعندما نطيع الله بقلبٍ موحَّد، سنحصل على قوَّة ورغبة جديدتَين لخدمة القريب، وذلك من أنفُسنا المحرَّرة. لقد أصبحنا ''خُدَّامًا للجميع، وفي الوقت نفسه سادة الكلّ'' [٢٤]، ونكون الآن قد عرفنا بساطة الحياة. ويختتم لوثر القضيَّة قائلًا: ''المسيحيُّ يحيا ليس في ذاته، لكن في المسيح وفي قريبه. وإلَّا فإنَّه ليس مسيحيًّا''. [٢٥]

أمَّا جون كالڤن (John Calvin)، فقد وضع لاهوتًا للدولة كان مصدرًا لقوَّة اجتماعيَّة هائلة. ففي حين كان لوثر يميل إلى فصل الكنيسة عن الدولة، حاول كالڤن أن يُحدِثَ تكامُلًا بينهما، ليصنع نظامًا اجتماعيًّا عادلًا بإعطاء سُلطةٍ للأشخاص العادلين الأبرار. كان كالڤن يرى أنَّ المسيحيِّين هم أدوات الله لتغيير المجتمع بأكمله.

لقد اتَّخذ هذا الأسلوب بجِدِّيَّة مبدأ النشاط السياسيِّ المسيحيّ. إذ يجب أن يهتمَّ المسيحيُّون بقضايا العدالة والخدمة.

النظام الاجتماعيُّ الذي يخدم امتيازات طبقةٍ عُليا، بينما تُحرَم الجماهير من ضروريَّات الحياة، هو نظامٌ لا يمكن احتماله. لدى المسيحيِّين مسؤوليَّةُ تحقيق العدالة الاجتماعيَّة. هذه قضايا قريبة إلى قلب البساطة المسيحيَّة. وقد قال كالڤن بشأن السُّلطات الحكوميَّة: ''يجب ألَّا تخدم قراراتهم مصالحهم الشخصيَّة، بل المصلحة العامَّة، كما أنَّ سُلطاتهم لا ينبغي أن تكون بلا حدود، بل أن تكون حدودها كلَّ ما في مصلحة رعاياها'' [٢٦]. بكلماتٍ أُخرى، إنَّ للدولة مهمَّةً معطاةً من الله أن توفِّر العدالة لكلِّ الناس على حدٍّ سواء، والمسيحيُّون يحملون مسؤوليَّة أن يعملوا على حثِّ الدولة أن تقوم بوظيفتها.

على المسيحيِّين أن يمتدحوا الدولة إذا أجرت العدل، ويدينوها إذا فشلت في ذلك. وأكثر من ذلك، فإنَّ على المسيحيِّين أن ينخرطوا في الدولة لكي يعملوا من أجل قضايا العدالة والمساواة. يمكننا بالتأكيد أن نتجادل كثيرًا بشأن الوسائل الفعليَّة التي استخدمها كالڤن نفسه لتحقيق هذه القناعات، لكنَّنا يجب أن نشترك معه في تلك القناعات على الأقلّ.

يساعدنا لوثر وكالڤن أن نفهم أهمِّيَّة الحرِّيَّة والعدالة في إطار سعينا نحو البساطة المسيحيَّة. إنَّنا يجب أن نبحثَ عن حُرِّيَّة الإنجيل التي تمكِّننا من أن نخدم القريب بالمحبَّة. ونشترك في السعي نحو العدالة الاجتماعيَّة للمجتمع بأسره ممَّا يتيح للبشر أن يعيشوا في سلام.

الاستماع والطاعة

ولَّدت الطاعة المقدَّسة للصوت الحيِّ للمسيح في القرن السابع عشر صورةً قويَّة من صور البساطة بين جماعة الكويكرز (Quakers) المعروفين أيضًا باسم ''الأصدقاء''. بدأ جورج فوكس (George Fox) (١٦٢٤-١٦٩١م) يطلب الله مدفوعًا بضيقه من الشراهة التي وسمت عصره حتَّى وصل إلى نقطة تحوُّلٍ مهمَّة عندما سمع صوتًا يقول: ''يوجد واحد، هو يسوع المسيح، يستطيع أن يتعامل مع هذه الحالة''.[٢٧] وهكذا، فمن البداية، استندت جماعة الكويكرز إلى حقيقة أنَّ صوت

المسيح يمكن أن يُسمَع ويمكن أن تُطاع إرادته. هذا الاستماع هو ما قاد الكويكرز الأوائل نحو شهادةٍ من البساطة الثوريَّة.

وإذا كان لنا أن نلخِّص الوعظ المبكِّر للكويكرز في عبارةٍ واحدةٍ، يمكننا أن نقول: ''لقد جاء المسيح لكي يعلِّم شعبه طريقةً أن يكونوا مثله''. لقد كان الكويكرز يؤمنون بأنَّ المسيح هو تحقيق لنبوَّة النبيِّ الذي مثل موسى (تثنية ١٨: ١٥-١٨). وبصفته نبيًّا، فإنَّ المسيح قادرٌ أن يعلِّمنا بِرَّ الله. يمكننا أن نسمع صوته إن كُنَّا ننصت. كان تعليمه دائمًا متوافقًا مع العهد القديم، حيث إنَّ الكتاب يقدِّم لنا تسجيلًا أمينًا لتعليم المسيح للرسل.

إنَّ المسيح، ليس فقط يعلِّمنا بل أيضًا يعطينا القوَّة أن نطيع. يعلن جورج فوكس أنَّ ''الله يجتذب الناس من عدم بِرِّهم وعدم قداستهم إلى المسيح البارِّ والقدُّوس، النبيِّ العظيم الذي قال موسى عنه إنَّ الله سيُقيمه ومنه يسمع الشعب كلَّ شيء''. ويحثُّ فوكس كلَّ المسيحيِّين أن يفكِّروا ويقرِّروا إن كانوا بالفعل ''يؤمنون بأنَّ الله قد أقام هذا النبيَّ يسوع المسيح. وإن كان كذلك، هل يستمعون إليه؟'' .[٢٨]

إنَّ البساطة التي قرَّرت أن تبتعد عن كلِّ عادات زمنها، نتجت من الاستماع والطاعة لكلمة المسيح. شهد الكويكرز الأوائل عن البساطة في ملبسهم، إذ رفضوا الموضات السطحيَّة المبهرجة التي كانت منتشرة في وقتهم، وبدلًا من ذلك كانوا يتبنَّون الملابس البسيطة للطبقة العاملة. كانوا يرفضون أن يرفعوا قبَّعاتهم أمام طبقة النبلاء، لأنَّهم كانوا مقتنعين أنَّ كلَّ الناس يستحقُّون القدر ذاته من الكرامة.

كانوا يشهدون عن البساطة في كلامهم، حيث كانوا يتميَّزون بالأمانة والاستقامة. كان يقال إنَّ كلمة أيِّ فردٍ من الكويكرز هي أشبَهُ بعقد. والمُخاطبة بصيغة ''حضرتك'' أو ''جنابك'' أو ''معاليك'' التي كانت تُستَخدم لمخاطبة الطبقة العليا، كانوا يستخدمونها لمخاطبة الفلَّاحين والملوك على حدٍّ سواء. كانوا يرفضون القَسَم لأنَّه كان يوحي بمقاييس مزدوجة للحقيقة؛ فلم يحتاجوا إلى القَسَم لضمان أنَّهم يتكلَّمون بالحقِّ، فكانت **نعمهم نعم ولاهم لا**.

كانوا يشهدون عن البساطة بمقاومة الظلم والقهر بكلِّ قُوَّة. كانوا يدينون نظام التسعير الذي كان يُمارِس التمييز ضدَّ الفقراء والمحتاجين، ويصرُّون على سعرٍ واحدٍ للجميع. كانت كتاباتهم تُهاجِم بضراوة روح الاستهلاك التي كان يمارسها الأغنياء، والهوَّة السحيقة بينها وبين الفقر المدقع الذي كان منتشرًا في ذلك الوقت.

في كتاب ''**لا صليب، لا تاج**'' *(No Cross, No Crown)*، ندَّد وليَم پن (William Penn) بشِدَّة أنَّ ٩٥٪ من الإنتاج الزراعيِّ كان موجَّهًا إلى خدمة ''الشهوات الجامحة والاستهلاك المُسرف'' الذي كان يمارسه ٥٪ فقط من الشعب.[٢٩] وعندما برَّر الأثرياء هذا التبذير بأنَّه يقدِّم فرص عمل للفقراء، واجَهَ جورج فوكس هذه الحجَّةَ قائلًا: ''إذا كنت تقول: «كيف يعيش الفقراء إذا لم ألبس هذا أو ذاك؟»، أقترح عليك أن تعطيهم كلَّ ذلك المال الذي تنفقه على هذه الملابس الجميلة، حتَّى يعيشوا ولا داعي لكلِّ هذه الخيلاء'' .[٣٠]

هؤلاء الذين أسموا أنفسهم ''ناشري الحقيقة''، كانوا يتعاملون بجدِّيَّةٍ تامَّةٍ مع قضيَّة سماع صوت المسيح وطاعة كلمته. كانوا يتساءلون: ''ماذا يعني أن نعيش حياة أمينة في زماننا؟''. وكانوا يتوقَّعون أن يسمعوا من المسيح إجابةً عن ذلك السؤال بصورةٍ واضحة. كان المسيح يتكلَّم إليهم بالكلمة المقدَّسة، كما أنَّه كان يتحرَّك بصورة مباشرة في قلب كلِّ من كان مستمعًا منتبهًا. لقد كان الالتزام الجماعيُّ نحو الاستماع إلى المسيح يؤدِّي إلى قناعاتٍ جماعيَّة في كثير من الأحيان؛ لأنَّ معلِّمهم وعد أن يخلق بينهم وَحدة (متَّى ١٨: ١٨-٢٠). لكن لم يكن سماع كلمات المسيح كافيًا. كان الكويكرز الأوائل ينتظرون أيضًا أن يستقبلوا قُوَّة لطاعة الكلمة. لقد كان إيمانهم أنَّهم سيحصلون على هذه القوَّة مصدرًا لحيويَّتهم الدائمة.

كانوا يمشون على وجه الأرض بفرحٍ وابتهاج في قوَّة الربّ. كانوا يسمُّون صراعاتهم ''حرب الحَمَل'' وكانوا يؤمنون تمامًا بأنَّ حَمَل الله سيُعطيهم نصرة على ''الكبرياء، والعادات، وصيحات العصر التي انتشرت في جيلهم''.[٣١] وفي كلِّ تفاصيل حياتهم، كانوا يرجون دائمًا أن يعيشوا في طاعة مقدَّسة.

نحن الذين نعيش في عالمٍ من أنصاف الحقائق والتبريرات والتلاعُبات العقليَّة التي تمنعنا من سماع كلمة المسيح وطاعتها نحتاج لأنْ نسمع شهادة هؤلاء ''الأصدقاء''. لأنَّنا نعيش في ثقافة مختلفة، يجب أن نسأل أنفسنا مرَّة أُخرى عن معنى أن نعيش أُمناء في زماننا. لكنَّنا يجب أن نسأل متوقِّعين تمام التوقُّع أن يعطينا الله قوَّة أن نُطيع الدعوة.

البساطة العاملة

هناك الكثير من أمثلة البساطة المسيحيَّة في مجال الكرازة وخدمة الفقراء وفي قضيَّة العدالة الاجتماعيَّة. لقد كانت المجهودات الكرازيَّة القويَّة التي قام بها جون وسلي (John Wesley) والميثوديست (Methodists) الأوائل معروفة جدًّا. كانت بساطة أسلوب حياتهم تقدِّم شهادة حيَّة للإنجيل الذي يكرزون به. كُتب عنه إنَّه قال ذات مرَّة لأخته: ''المال لا يبقى بتاتًا معي. إذا بقي معي فإنَّه يحرقني. لذلك ألقيه من يدي في أسرع وقتٍ ممكن، لئلَّا يجد لنفسه طريقًا إلى قلبي''. وقال للجميع إنَّه عند موته، إذا كان يملك في حوزته أكثر من عشرة جنيهاتٍ استرلينيَّة، فيمكن أن يحسبَه الناس لصًّا.[٣٢] وقُرب نهاية حياته كَتَبَ في يوميَّاته: ''لم أترك مالًا لأيِّ إنسانٍ في وصيَّتي لأنِّي لا أمتلك أيَّ مال''.[٣٣]

ظلَّ فرنسيس آزبوري (Francis Asbury)،''رسول الميثوديَّة في أميركا''، عازبًا كلَّ حياته وعاش على دخلٍ قليلٍ جدًّا لكي يكرِّس كلَّ طاقاته لامتداد قضيَّة المسيح في أميركا. لقد كان تكريسه القلبيُّ الموحَّد واضحًا في مذكِّراته عندما كان يسافر بالبحر لزيارة المستعمرات. كتب ذات مرَّة: ''إلى أين أنا ذاهب؟ إلى العالم الجديد. لأفعل ماذا؟ لكي أجد تكريمًا؟ إذا كنتُ حقًّا أعرف قلبي، فالجواب هو لا. للحصول على المال؟ لا. إنَّني ذاهب لكي أعيش لله وأجعل آخرين يفعلون ذلك أيضًا''.[٣٤] مثل هذه البساطة في الحياة في مجال الكرازة يمكن أن نجدها مضاعفةً ألف مرَّة بين الجيش الأمين من الوعَّاظ الميثوديست المتجوِّلين.

لا يستطيع أحدٌ أن يقرأ يوميَّات ديڤيد برينارد (David Brainerd) دون أن تصدمه تلك الحياة شديدة البساطة، والتكريس الكامل للكرازة بالمسيح بين الهنود الأميركيِّين. كان البحث المهووس عن المكانة والبذخ القهريِّ يتناقضان تمامًا مع حياته ورسالته.

ومنذ بدايتها، كانت الحركة الإرساليَّة الحديثة متأصِّلة في التضحية والبساطة. من وليَم كاري (William Carey) إلى آيمي كارمايكل (Amy Carmichael)، ومن أدونيرام جدسون (Adoniram Judson) إلى ليلياس تروتر (Lilias Trotter)، ومن جاي. هدسون تايلور (J. Hudson Taylor) إلى غلاديس آيلوارد (Gladys Aylward)، ومن لوتي مون (Lottie Moon) إلى سي. تي. سْتَدْ (C. T. Studd)، ترك لنا كلُّ هؤلاء الرجال والنساء تراثًا من التكريس والبساطة. عندما كان جاي. هدسون تايلور يُعِدُّ نفسه لحَمْلِ رسالة الإنجيل إلى شعب الصين الكبير، علَّم نفسه أن يتحمَّل الصعوبات وأن يقتصد لكي يستطيع أن يساعد من هُم في احتياج. قال ذات مرَّة: ''سرعان ما اكتشفت أنَّني أستطيع أن أعيش على ما هو أقلُّ كثيرًا ممَّا ظننتُ في السابق أنَّه ممكن. توقَّفتُ عن استخدام الزبدة والحليب وغيرها من الرفاهيات، واكتشفتُ أنَّني يمكن أن أعيش فقط على الشوفان والأرزِّ مع بعض التنويع من آنٍ إلى آخر. كانت تكفيني كمِّيَّات قليلة جدًّا''. بهذه الطريقة، كان قادرًا أن يستخدم ثلثَي دخله لأجل أغراضٍ أُخرى. كتب تايلور: ''كانت خبرتي هي أنَّني كلَّما أنفقتُ أقلَّ على نفسي، وأعطيتُ الآخرين أكثر،

أصبحت روحي أكثر سعادةً وبركة''.[٣٥]

في القرن العشرين، يمكننا أن نتأمَّل مثال سادهو سندار سينغ (Sadhu Sundar Singh) الرجل الذي فعل أكثر من أيِّ شخص آخر لكي يجسِّد الإيمان المسيحيَّ في حياة الهند وثقافتها. تبنَّى سينغ الرداء الزعفرانيَّ الذي يميِّز الرجال الروحيِّين في الهند (Sadhus) وعاش حياةً من البساطة الشديدة حيث كان يسافر طول البلاد وعرضها. صار وجهه الملتحي وابتسامته المشرقة، ووعظه الآسر معروفين على نطاقٍ واسعٍ في بلدانٍ كثيرة. وسنة ١٩٢٩م، اختفى سندار سينغ عندما كان في إرساليَّة كِرازيَّة في التبت. يُعتَقد أنَّه استشهد بسبب إيمانه بالمسيح.

رفع المسيحيُّون أيضًا مقاييس البساطة في خدمة الفقراء. في سنِّ العشرين، أقنع أنطوان فريدريك أوزانام (Antoine Frédéric Ozanam) بعضًا من زملائه الطلَّاب أن يساعدوه في خدمة الفقراء والمحتاجين في فرنسا. وكانت هذه بداية مجتمع سان ڤنسنت دي پول (St. Vincent de Paul) الذي بدأ سنة ١٨٣٣م، وسرعان ما امتدَّ إلى بلادٍ كثيرة.

في ذلك القرن، أسَّس وليَم بوث (William Booth) ''جيش الخلاص'' بسبب رغبة ملتهبة داخله لمساعدة الفقراء والمهمَّشين في المدن الصناعيَّة. وعندما بدأ الخدمة في المناطق العشوائيَّة الفقيرة في لندن، كان هدفه أن يأتي بالمكسورين والمسحوقين إلى الكنائس. ولأنَّ الكنائس لم تكن مستعدَّةً لاستقبالهم، بدأت الكنائس ترفض بوث وتابعيه. لجأ بوث إلى اجتماعاتٍ غير تقليديَّة في الهواء الطلق مستخدمًا الطبول والدفوف والأبواق. وكان كتابه ''**خارج ظلام إنكلترا**''*(In Darkest England and the Way Out)* كاشفًا لاذعًا للأوضاع الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة والأخلاقيَّة في هذه المناطق. وفي هذا الكتاب، قدَّم بوث اقتراحات جريئة للتغلُّب على هذه الحالات. وقد نادى بإقامة بنك للفقراء، وبيوت لإنقاذ العاهرات وإعالتهم، وقرى نموذجيَّة في الضواحي، علاوةً على أمورٍ أُخرى.[٣٦]

أسَّس روبرت رايكس (Robert Raikes) حركة مدارس الأحد محاولًا تقديم فرص تعليميَّة لمن يعانون الفقر الشديد في اليوم الوحيد الذي ليس لديهم فيه عمل: يوم الأحد. كما ألهم جورج مولر (George Muller) الكثيرين للخدمة الأمينة في البيوت التي أسَّسها لأيتام بريستول (Bristol) التي بدأت واستمرَّت بالكامل بواسطة الصلاة من أجل الموارد المادِّيَّة المطلوبة لها. وأسَّس جورج وليَمز (George Williams) جمعيَّة الشباب المسيحيِّين (The Young Men's Christian Association–YMCA) لتقديم فرصٍ كرازيَّة واجتماعيَّة ورياضيَّة للمستويات الأدنى اقتصاديًّا من الطبقة العاملة في الوظائف المكتبيَّة.

في القرن العشرين، نذكُر مباشرةً آلبرت شڤايتزر (Albert Schweitzer) الذي كان شديد التنوُّع في أدواره؛ فقد كان دارسًا للعهد الجديد، وعازفَ أرغن متميِّزًا متخصِّصًا بموسيقا باخ، وفيلسوفًا ولاهوتيًّا متمكِّنًا. ومعَ كلِّ ذلك، فقد اختار أن يقدِّم الجزء الأكبر من عمله في سنِّ الرُّشد لخدمة شعوب أفريقيا الاستوائيَّة الناطقة بالفرنسيَّة بصفته مُرسَلًا طبِّيًّا.

كانت البساطة قوَّة شديدة أيضًا في قضيَّة العدالة الاجتماعيَّة. فكان ديڤيد ليڤنغستون (David Livingstone) معروفًا بنشاطاته الكرازيَّة العظيمة، لا سيَّما جهوده الحثيثة للقضاء على ما أسماه ''الجرح المفتوح للعالم''، الذي يقصد به تجارة الرقيق من أفريقيا. كان ليڤنغستون يعيش حياةً من البساطة الشديدة، سواءٌ في حالة القلب الداخليَّة، أم في أسلوب الحياة الخارجيِّ، وكان يدافع باستمرار عن قضيَّة المستَضعَفِين في أفريقيا. كان ليڤنغستون يقول إنَّ فظائع تجارة الرقيق تفوق أيَّة مبالغات. ''من المستحيل أن نبالغ في وصف شرور هذا الأمر''.[٣٧] من بين آخر كلمات كتبها في مذكِّراته: ''سأنسى كلَّ البرد والجوع والمعاناة والتجارب، إذا كان ممكنًا أن أكون وسيلة لوضع حدٍّ لهذه التجارة الملعونة'' .[٣٨]

وضع كلارِنس جوردان (Clarence Jordan) بصمة مهمَّة في أميركا القرن العشرين بواسطة حياة البساطة الجريئة التي عاشها

في سبيل العدالة الاجتماعيَّة. كان كلارِنس مؤسِّس مزرعة كوينونيا (Koinonia Farm) وكاتب النسخة العامِّيَّة للعهد الجديد (Cotton Patch Version). وقد كان يُسمَّى في بعض الأحيان ''اللاهوتيَّ الذي يلبس ثياب العمل''. تحمَّل جوردان الكثير من التحرُّشات والمقاطعات وإطلاق النيران من اللصوص الليليِّين لكي يقدِّم شهادة اجتماعيَّة جريئة للسلام والمجتمع والمساواة العرقيَّة.

بدأ جوردان تجربته في المصالحة العرقيَّة سنة ١٩٤٢م في مزرعة بالقرب من بلدة أميريكس في ولاية جورجيا، وظلَّ هناك حتَّى وفاته سنة ١٩٦٩م. وقد تميَّز في كلِّ شيء ببساطة الروح والحياة. وكانت دعوته إلى العدالة والسلام والبساطة في إطار المجتمع المسيحيِّ الأصيل تُعدُّ تحدِّيًا للميول المستمرَّة للتأقلُم مع الثقافة السائدة.[٣٩]

واليوم، نشأت مجموعات عدَّة تجارب من أجل العدالة الاجتماعيَّة من منطلق مسيحيّ. من بين أشهر هذه المجموعات: مجتمع الغرباء (The Sojourners Community) في واشنطن العاصمة والذي ينشر صحيفة ''الغرباء'' (Sojourners)؛ والمؤسَّسة المسيحيَّة لتنمية المجتمع (Christian Community Development Association) في شيكاغو، إيلينوي، والتي تمثِّل مؤسَّسات عدَّة شبيهة في أنحاء الولايات المتَّحدة تعمل على التغيير على مستوى القاعدة الشعبيَّة العريضة؛ وحركة العاملين الكاثوليك (Catholic Worker Movement) في الكثير من المراكز المدنيَّة الأميركيَّة والتي تنشر صحيفة ''الخادم الكاثوليكيّ'' (The Catholic Worker)؛ واللجنة المركزيَّة للمينونايت (Mennonite Central Committee) بمشروعها ''عشرة آلاف قرية'' الذي يوفِّر دخلًا حيويًّا عادلًا لشعوب العالم الثالث بتسويق أشغالهم اليدويَّة في أميركا الشماليَّة؛ وهيئة الإنجيليُّون للعمل الاجتماعيِّ (Evangelicals for Social Action) في فيلادلفيا وبنسلڤانيا والتي تنشر صحيفة ''المنشور'' (Prism). ومهما كانت تقصيرات هذه الحركات، يبقى فَهمُها أنَّ البساطة المسيحيَّة أصيلة في قضيَّة العدالة واحدة من أعظم ميِّزاتها.

كلمات نحيا بها

لا يُمكننا أن نَصِف أيَّة دراسةٍ للبساطة في إطار تاريخ الكنيسة بأنَّها شاملة دون قراءةٍ مختصرة على الأقلِّ لأدبيَّات البساطة. إذ يوجد في حوزتنا تراثٌ غنيٌّ من الكتابات في هذا الموضوع، من كتاب القدِّيس إكلمندس ''**خلاص الرجل الغنيِّ**'' *(The Rich Man's Salvation)* وكتاب كبريانوس ''**عن الأعمال الصالحة والعطايا**'' *(On Good Works and Alms Giving)* إلى ''**خطابات القدِّيس جيروم**'' *(Letters of St. Jerome)* وأعمال إكهارت (Eckhart) وتولر (Tauler) وسوزو (Suso)، ومن كتابات الإصلاح الجذريِّ *(Radical Reformation)* إلى ''**رسائل جورج فوكس**'' *(Epistles of George Fox)* وكتاب وليَم پن ''**لا صليب، لا تاج**'' *(No Cross, No Crown)*. ولا شكَّ أنَّ كثيرًا من الكُتَّاب المعاصرين تعاملوا مع هذه القضيَّة بحماسة مثل فرنسيس فلوراند (Francis Florand) في كتابه ''**مراحل البساطة**'' *(Stages of Simplicity)* وآرثر غيش (Arthur Gish) في كتاب ''**ما وراء سباق الفئران**'' *(Beyond the Rat Race)* وآرثر سيمون (Arthur Simon) في ''**كم يكفي؟**'' *(How Much is Enough?)* ورونالد سايدر (Ronald Sider) في ''**مسيحيُّون أغنياء في عصر الجوع**'' *(Rich Christians in an Age of Hunger)* والكتابات المتعدِّدة للكاتب ويندل بيري (Wendell Berry).

لقد اخترتُ ثلاثة أعمال تمثِّل نوعيَّات مختلفة يمكن أن تعطينا صورة مركَّبة عن الاهتمام بالبساطة المسيحيَّة في تاريخ الكنيسة: ''**بساطة الحياة المسيحيَّة**'' *(The Simplicity of the Christian Life)* لجيرولامو ساڤونارولا (Girolamo Savonarola)، ''**نقاء القلب أن يرغب في شيءٍ واحدٍ**'' *(Purity of Heart Is to Will One Thing)* لسورين كيركيغارد و''**اليوميَّات**'' *(The Journal)*، و''**طلبة من أجل الفقراء**'' *(A Plea for the Poor)* لجون وولمان (John Woolman).

يناقش كتاب ''**بساطة الحياة المسيحيَّة**'' لجيرولامو ساڤونارولا طبيعة الحياة المسيحيَّة الجيِّدة. في هذا الكتاب يحاول ساڤونارولا أن يُجيب عن السؤال: ''ما الذي يجعل الناس سُعداء؟''. ويكتب ساڤونارولا أنَّه من بين المخلوقات كلِّها، البشر وحدهم هم الذين عليهم أن يصارعوا لكي يكتشفوا دورهم في النظام الكلِّيِّ للوجود. نحن وحدنا الذين نبحث عن المعنى والهدف والسعادة. ويقول ساڤونارولا إنَّ الحياة المباركة لا توجد بصورة أساسيَّة في إشباع اللذَّة الحسِّيَّة ولا في البحث عن الشبع العقليِّ ولا حتَّى في السعي الروحيِّ، كما يُفهم عادة. الحياة السعيدة مؤسَّسة في الأصل على نعمة الله التي نكتشفها عندما نقتفي أثر حياة يسوع وتعاليمه. والوسيلة الأساسيَّة التي بها تحدث حياة الاقتداء بيسوع هذه، هي الصلاة والمحبَّة الفاعلة.

وبعد أن يضع هذا الأساس، يواصل ساڤونارولا بفصلَين مهمَّين: ''بساطة القلب'' و''البساطة الخارجيَّة''. ويعلن أنَّ ''كلَّ مسيحيٍّ يجب أن يحاول أن يصل إلى بساطة القلب الكاملة''.[٤٠] حتَّى الطبيعة تشهد أنَّه كلَّما كان داخل الشيء بسيطًا وموحَّدًا، كان ذلك الشيء كاملًا. وفي العالم الروحيِّ، تُكتَشف بساطة القلب الداخليَّة عندما يكون المسيح المصلوب هو القوَّة الموحِّدة لكلِّ مشاعرنا وأمانينا.

أمَّا البساطة الخارجيَّة، فتنبُع من هذه البساطة الداخليَّة. نستطيع أن نرى ذلك في الخليقة، كما يقول ساڤونارولا. تُسِرُّ الشجرة أو الزهرة الناظرين لأنَّها تعكس التناغم والوحدة الداخليَّين. وهكذا حياتنا: إذا دخلنا بساطة الله الداخليَّة، فإنَّ سِمات حياتنا الخارجيَّة ستتميَّز بالوحدة والبساطة. ويعلِّق ساڤونارولا قائلًا: ''المسيحيُّ الحقيقيُّ يعشق البساطة الخارجيَّة''. وفي لغة أقوى، يضيف: ''من لا يحبُّ البساطة الخارجيَّة، لا يستطيع أن يحيا الحياة المسيحيَّة''.[٤١]

ويقول ساڤونارولا إنَّنا يجب أن نتذكَّر أنَّ بساطة الأشياء الخارجيَّة لا توجد عند الجميع بالدرجة نفسها، فبعض المهن تتطلَّب استخدامًا أكبر للأشياء المادِّيَّة. كما أنَّه يجب أن يكون هناك بعض المنطق الطبيعيِّ (وهو يستخدم كلمة ''التعقُّل'') به نقرِّر نحو ما نستطيع أن نعيش من دونه. في واقع الأمر، يضيف ساڤونارولا أنَّه ليس من الخطأ أن نطلب الأشياء الضروريَّة من أجل ''الحياة الكريمة''، وإذا كانت لدينا بساطة القلب، يمكننا أن نميِّز بين هذه الأشياء والأشياء الزائدة. وأفضل ما يرشدنا في هذه القرارات، كما يقول ساڤونارولا، هي الكلمة المقدَّسة والتمييز الروحيّ. ثُمَّ يختم بفصلٍ عن مخاطر الثروة وفصلٍ عن سعادة الحياة المسيحيَّة.

ثُمَّ يأتي كتاب كيركيغارد '' **نقاء القلب أن يرغب في شيءٍ واحدٍ**''، الذي يقف مثل تعبيرٍ قويٍّ عن البساطة الداخليَّة. ففي حين يقول ديكارت: ''أنا أفكِّر إذًا أنا موجود''، يقول كيركيغارد في المقابل: ''أنا موجود، إذًا يجب أن أقرِّر''. وببطءٍ وعناية، يبدأ كيركيغارد في تعرية كلِّ تبريراتنا والحواجز التي نضعها لئلَّا نرغب في شيءٍ واحدٍ، وذلك إلى أن نقف وحدنا عند مفترق الطرق. ومن المهمِّ ذِكرُ أنَّ الكتاب نفسه مكرَّسٌ لمَن أسماه ''الإنسان الفرد'' ليدفعنا لنأتي أمام الله بمفردنا ومجرَّدين من كلِّ شيء، لنقرِّر كيف سنعيش. في واقع الأمر، يُعدُّ الكتاب تفسيرًا مطوَّلًا لكلمات القدِّيس يعقوب: ''اِقتَرِبوا إلَى اللهِ فيَقتَرِبَ إلَيكُمْ. نَقُّوا أيديَكُمْ أيُّها الخُطاةُ، وطَهِّروا قُلوبَكُمْ يا ذَوي الرَّأيَينِ'' (يعقوب ٤ : ٨).

أساء بعض الناس فَهمَ رسالة هذا الكتاب مفترضين أنَّه من الممكن أن يرغب الإنسان في شيءٍ واحد، ويكون هذا الشيء الواحد شرِّيرًا جدًّا، كما في حالة أدولف هتلر مثلًا. على العكس، يقول كيركيغارد: ''الإنسان الذي يرغب في شيءٍ واحدٍ بخلاف الصلاح...في واقع الأمر، لا يريد شيئًا واحدًا. إنَّها ضلالةٌ، ووَهمٌ وخداع. إنَّه خداع للنفس أنَّه يريد شيئًا واحدًا. لأنَّه في قرارة نفسه، لا بُدَّ أن يكون مزدوَجَ الفكر''.[٤٢] إنَّ فكرة كيركيغارد بسيطة. الله هو وحده الحقيقة الكاملة والمشبعة

بالتمام والموحِّدة للكون كلِّه. الله وحده هو الواحد، وهو وحده يجمع كلَّ الخير. أن يريد الإنسان أيَّ شيء آخر سوى الله، فهو عندئذٍ لا يريد شيئًا **واحدًا** وإنَّما ''أشياء عدَّة، فيصير فريسة للتشتُّت، ولعبة في يد المقادير المتغيِّرة، وللفساد!''. لا توجد رغبة يمكن إشباعها بالتمام عندما تكون خارج الله، ويكون الإنسان ''ليس فقط ذا رأيَين، وإنَّما ذو ألفِ رأيٍ، وفي حالة من النزاع الداخليّ''.[٤٣]

نقاء القلب، إذًا، يوجد في الرغبة في الصالح وحده، ألا وهو الله. وعندما يفعل الإنسان ذلك، فإنَّ كلَّ شيء فيه يتوحَّد ويتبسَّط. لكنَّ كيركيغارد يحذِّر أنَّنا إذا أردنا الصلاح من أجل المكافأة، فهذا ليس الرغبة في شيءٍ واحد، أو إذا أردنا الصلاح خوفًا من العقاب، فهذا أيضًا ليس الرغبة في شيءٍ واحد، وعندما نريد الصلاح من قلبٍ عنيدٍ منحصرٍ في النفس، فهذه ليست الرغبة في شيءٍ واحد. كما أنَّنا إذا أردنا الصلاح من قلبٍ منقسم غير مكرَّسٍ بالكامل، فإنَّ هذه ليست الرغبة في شيءٍ واحد. التسليم التامُّ، والتكريس الكامل للصلاح، أي لله، هو شرط الرغبة في شيءٍ واحد، وشرط نقاء القلب.

لقد أكَّد لنا كيركيغارد الأهمِّيَّة الشديدة لبساطة القلب الداخليَّة في سعينا إلى تحقيق بساطة الحياة المسيحيَّة. حتَّى وإن كنَّا نطلب الله، فإنَّنا نفعل ذلك بدوافعٍ مزدوجة– فمع أنَّ كلماتنا وأفعالنا رُبَّما تبدو فاضلة، فإنَّنا نظلُّ، على أفضل تقدير، أشخاصًا ذوي رأيين. يضع كيركيغارد الأمر على نحوٍ غاية في الوضوح قائلًا: إنَّ خيارنا الداخليَّ يجب أن يكون مركَّزًا ومتمحورًا وموحَّدًا إذا أردنا أن نختبر هذا النوع من نقاء القلب الذي هو البساطة المسيحيَّة.

أمَّا كتاب جون وولمان ''**اليوميَّات**''، فهو كتابٌ صمد أمام اختبار الزمن ويعدُّ الآن على وجه العموم واحدًا من أعظم كلاسيكيَّات الروحانيَّة والتكريس المسيحيَّين. وعادةً ما ينشر بمُصاحبة كتاب ''**طلبة من أجل الفقراء**''. يقفُ هذان الكتابان معًا شهادةً على ضرورة البساطة الداخليَّة والخارجيَّة معًا؛ فالثانية تنبع من الأولى. من الصعب تخيُّل شهادة أكثر بلاغة من هذا الكتاب عن نعمة البساطة المسيحيَّة.

في البداية، تعامل وولمان مع البساطة على المستوى الشخصيّ. كان وولمان رجُلَ أعمال في مجال تجارة التجزئة وحائكًا وصاحبَ مشتلٍ، وسرعان ما وجد أنَّ تجارته ''تزداد كلَّ يوم، وانفتح أمامه الطريق إلى المزيد من النجاح وتزايُد العمل والثروة، لكنَّه شعر بشيءٍ ما داخله يستوقفه''. لم يكن التردُّد الذي شعر به ناتجًا عن الخوف من الدخول في أسلوب حياة الثراء والوفرة. هذا الأمر كان قد حُسِم منذ وقتٍ طويل، كما شهد: ''لقد تعلَّمتُ، بدرجةٍ جيِّدة، أن أكون راضيًا بأسلوب حياةٍ بسيط''.

المشكلة الحقيقيَّة كانت من شقَّيْن: الأوَّل أنَّه بدأ يشعر بأنَّه يبيع أشياء تخدم الترف والكبرياء أكثر من كونها تسدُّ الاحتياجات. كتب في ذلك قائلًا: ''لم أشعر براحة في التجارة في أشياء لا تخدم احتياجات الناس بل رفاهيتهم الزائدة وغرورهم المفرط. ونادرًا ما فعلت ذلك. وفي كلِّ مرَّة كنتُ أتاجر بهذه الأشياء، كنتُ أشعر أنَّها تضعفني بصفتي مسيحيًّا''.[٤٤] الأمر الثاني والحاسم كان الاحتياج إلى التحرُّر من ''الأثقال'' لكي يهتمَّ اهتمامًا كاملًا بدعوة الله له. وفي النهاية، شعر وولمان أنَّه يجب أن يقلِّل من تجارته. وهذا حرَّره لكي ينخرط في خدمة متنقِّلة عظيمة كانت قوَّةً أساسيَّةً في جعل الكويكرز يتخلَّصون من العبوديَّة قبل أن تحصل أميركا على حرِّيَّتها من الإمبراطوريَّة البريطانيَّة.

وفقرة تلو الأخرى، يمتلئ كتاب وولمان بإشاراتٍ رقيقة لمحنة العبيد ومالكيهم على حدٍّ سواء. لقد رأى بوضوحٍ استثنائيٍّ الارتباط ما بين الطمع والعبودية:

الربُّ...يتحرَّك بنعمة في قلوب الناس لكي يجتذبهم من براثن الرغبة في الثروة ويأتي بهم إلى أسلوب حياة

بسيط متَّضع حتَّى يستطيعوا أن يبصروا طريقهم ويصلحوه وصولًا إلى البرِّ والتقوى الحقيقيِّين، وليس فقط ليكسروا نير الظلم والطغيان، لكن أيضًا ليعرفوا الربَّ بصفته قوَّتهم وعونهم في أوقات الألم الخارجيّ.[٤٥]

ويُمكن أن يُعدَّ كتابه ''**طلبة من أجل الفقراء**'' دليلًا مُهمًّا في عصرنا؛ ففيه يخاطب وولمان ثقافة الثراء والوفرة الأميركيَّة ويطلب منَّا أن نرقِّق قلوبنا لاحتياجات الفقراء. ويزخر الكتاب باقتراحاتٍ عمليَّة عن كيفيَّة التوحُّد بالفقراء والمحتاجين في الأرض، لا سيَّما هؤلاء الذين ''يعملون من أجلنا بعيدًا عن أعيننا''.[٤٦] إنَّه حتَّى يقترح أن نعمل في مكان الفقراء لبعض الوقت لكي **نشعر** بأحمالهم.

في هذا الفصل، يمكن أن نقول إنَّنا بصورةٍ بسيطة دخلنا ''شركة القدِّيسين''، وسمعنا شهادة أشخاص ساروا مع الله بأمانة وبساطة عبر القرون. رسالتهم واضحة، وربَّما يمكننا أن نلخِّصها في كلمات فرنسيس دي سال: ''في كلِّ شيء، أحبِبِ البساطة''.[٤٧]

الجزء الثاني

الممارسة

٥

البساطة الداخليَّة:
المركز الإلهيّ

أيَّتها البساطة المباركة، التي تُدرِك بسرعة ما تُدركه ببطء المهارة التي أنهكتها خدمة الغرور والخيلاء.

سورين كيركيغارد (Søren Kierkegaard)

في مجموعة الأساطير السامية ''سيلماريليون'' (The Silmarillion) يقدِّم جاي. آر. آر. تولكِن (J. R. R. Tolkien) نظرة ثاقبة إلى آثار البساطة الداخليَّة: ''لكن كان الفخر وكانت البهجة التي يعيشها «آول» (Aulë) تكمُن في العمل وفي الأشياء التي يصنعها، لا في الممتلكات ولا حتَّى في المهارة والتمكُّن. من أجل ذلك، فإنَّه كان يُعطي ولا يكنِز. كان متحرِّرًا من الهمِّ يتحرَّك من عملٍ إلى عملٍ جديد''.[1] يا لها من صورةٍ جذَّابة للنشاط والعمل بالتناغم مع المركز الإلهيّ للكون! يا لها من صورةٍ جذَّابةٍ مناقضةٍ للعجلة المحمومة، والتي كثيرًا ما تكون مُحبِطة، التي تدفع حياتنا اليوميَّة باستمرار!

نندفع هنا وهناك، محاولين بيأسٍ أن نُتمِّم الالتزامات التي تضغط علينا. ونتحرَّك بعصبيَّة نحو الخلف والأمام ما بين مسؤوليَّات العمل والأسرة. عندما ننشغل باحتياجات الأطفال وشريك الحياة، نشعر بالذنب لإهمال مطالب العمل. وعندما نتجاوب مع ضغوط العمل، فإنَّنا نخاف أن نُحبِط توقُّعات أُسَرِنا. وفي تلك الأوقات النادرة، عندما نستطيع أن نُنجز كلَّ المهامِّ في الوقت نفسه، فإنَّ الموضوعات الأكبر المختصَّة بالبلد والعالم تهمس في آذاننا بنداءاتٍ مزعجة تدعونا إلى الخدمة في تلك المجالات. إن كان أحدٌ يحتاج إلى تبسيط الحياة، فإنَّنا نحن مَن يحتاج إلى ذلك.

ما الذي يمكن أن يحرِّرنا من هذه الدوَّامات من المطالب الموضوعة علينا؟ الإجابة موجودةٌ في نعمة البساطة المسيحيَّة. هذه الفضيلة، ما إنْ تبدأ بالعمل في حياتنا، حتَّى توحِّد مطالِب وجودنا، وتقلِّم شجرة حياتنا بلُطفٍ وفي الأماكن الصحيحة، لكي تحرِّر أرواحنا من الارتداد المستمرِّ نحو الانحصار في النفس.

الحياة في المركز

ما زلتُ أتذكَّر ذلك الصباح الشتويَّ المطير في مطار واشنطن العاصمة منذ سنوات. كنتُ مرهقًا، فألقيتُ بنفسي على أحد الكراسيِّ منتظرًا إقلاع رحلتي. وكالعادة، كنتُ قد اشتريت شيئًا أقرأه لأستغلَّ وقت الفراغ. للمرَّة الأولى في حياتي، فتحت كتاب توماس كيلي (Thomas Kelly) ''**عهد التكريس**'' ***(A Testament of Devotion)***، وفي الحال جذب الكتاب انتباهي عندما وصف بدِقَّة حالي وحال الكثيرين ممَّن أعرفهم: ''إنَّنا نشعر بإخلاص أنَّ الالتزامات الكثيرة تتجاذبنا، ونحاول أن نفي بها كلِّها. نشعر بالتعاسة والتوتُّر والقهر، ونخاف من أن تكون حياتنا سطحيَّة'' .[2] نعم، كان عليَّ أن أعترف أنَّني وجدت نفسي في هذه الكلمات. كان جميع الذين يرونني يعتقدون أنَّني أتمتَّع بالثقة بالنفس والقدرة على إدارة حياتي، لكنَّني في الداخل كنتُ متعبًا ومشتَّتًا. ثُمَّ وقعت عيناي على كلمات الرجاء والوعد: ''ثُمَّ نستقبل إشاراتٍ غامضة أنَّ هناك طريقة للحياة أغنى بكثير وأعمق من تلك الحياة المندفعة المتعجِّلة- حياةٍ من السكون والسكينة والسلام والقوَّة. فقط إذا استطعنا أن نصل إلى

المركز''.[٣] وغريزيًّا، أدركتُ أنَّ كيلي يتكلَّم عن واقعٍ يتجاوز ما كنتُ أعرفه. لكن من فضلك افهَمني، أنا لم أكن إنسانًا مستبيحًا أو بعيدًا عن الله، بل كانت مشكلتي أنَّني كنتُ جادًّا جدًّا، مهتمًّا جدًّا أن أفعل الصواب، حتَّى إنَّني كنتُ مدفوعًا إلى التجاوب مع كلِّ دعوة إلى المساعدة. عمومًا، كانت كلُّها فُرَصًا عظيمةً للخدمة باسم المسيح.

ثُمَّ جاءت العبارة التي أشعلت ثورةً داخلي: ''لقد رأينا وعرفنا بعض الناس الذين يبدو أنَّهم وجدوا **المركز** العميق للحياة، حيث يتحقَّق التكامل ما بين كلِّ دعوات الحياة، ويمكن أن يُعطى جواب «نعم» و«لا» بثقة''. كانت هذه القدرة أن تقول ''نعم'' و''لا'' انطلاقًا من المركز الإلهيِّ، غريبة عليّ. لقد كنتُ أُصلِّي دائمًا قبل اتِّخاذ القرارات، لكنَّني في أغلب الأحيان كنتُ أتجاوب على أساس ما إذا كان العمل الذي سأعمله سيضعني في حالةٍ مقبولة أم لا. كنتُ عندما أقول ''نعم'' لطلبات أو فرص الخدمة أرى نفسي في هالة من الروحانيَّة والتضحية. كان من السهل أن أقول ''نعم''، لكنَّني لم أستطعْ أن أقول ''لا''. فكيف سيراني الناس إذا رفضت؟

جلستُ بمفردي في المطار أشاهد حبَّات المطر تتساقط على النافذة، والدموع تتساقط على معطفي. لقد شعرتُ بأنَّ المقعد الذي أجلس عليه كان مكانًا مقدَّسًا، وكأنَّه مذبح. لم أعد كما كنتُ منذ ذلك اليوم. وبهدوء، طلبتُ من الله أن يعطيني القدرة أن أقول ''لا'' عندما يكون ذلك هو الجواب الصحيح والصالح.

وعندما عدتُ إلى مدينتي وحياتي المعتادة، انخرطتُ مرَّة أُخرى في دوَّامة الأنشطة. لكنَّني قرَّرتُ قرارًا واحدًا: سأخصِّص مساء الجمعة للأُسرة. لقد كان قرارًا صغيرًا في ذلك الوقت، ولم يدرِ به أحدٌ إلَّاي. ذكرته للأسرة بطريقة عابرة، لكنَّهم لم يعرفوا أنَّه التزامٌ أشبه بعهد، وقرارُ مفترقِ طرقٍ لي. ولا حتَّى أنا أدركتُ ذلك؛ فقد بدا لي أنَّ هذا هو الشيء الصحيح الذي يجب أن أفعله، ولم يبدُ لي إرشادًا إلهيًّا، كما يمكن أن يسمِّيه المرء.

ثُمَّ جاءتني مكالمة هاتفيَّة. كان أحد المسؤولين في الطائفة. سألني إن كنت مستعدًّا لأعظ لتلك المجموعة مساء الجمعة. ها فرصةٌ رائعة جديدة. كان ردُّ فعلي طبيعيًّا، بل كما لو كان بصورةٍ لا واعية: ''لا. لا أستطيع''. كان ردُّه أيضًا كذلك: ''هل لديك التزامٌ آخر؟''. شعرتُ كما لو كنتُ قد وقعتُ في الفخّ. (في تلك الأيَّام لم أعرف أنَّني كنتُ أستطيع أن أقول بكلِّ أمانة إنَّ لديَّ بالفعل التزامًا مهمًّا). ثُمَّ أجبته بحذرٍ وبطريقةٍ هادفة: ''لا''، دون أيَّة محاولة لتبرير قراري أو شرحه. ثُمَّ مضت فترة طويلة من الصمت بدت كأنَّها دهر. كدتُ أستشعر أنَّ كلماتٍ مثل ''أين التزامك وتكريسك للخدمة؟'' تكاد تسري في خطِّ الهاتف لتصل إليّ. أعلم أنَّني اتَّخذتُ قرارًا جعلني أبدو أقلَّ روحانيَّة أمام شخصٍ كنتُ مهتمًّا به اهتمامًا حقيقيًّا. بعدها تبادلنا بعض الكلمات اللطيفة، ثُمَّ انتهت المكالمة، وما إنْ لمسَتِ السمَّاعةُ الهاتفَ، صحتُ داخلي: ''هللويَّا''. لقد استسلمتُ للمركز الداخليِّ بدلًا من الضغوط الخارجيَّة. لقد لمستُ حدود البساطة، وكانت النتيجة مثيرة للحماسة.

كان الحدث بسيطًا وغير مهمٍّ حتَّى إنِّي أشعر بالحرج أن أرويه. وأعتقدُ أنَّ صديقي هذا لا يذكر هذه المحادثة الهاتفيَّة. لكنَّني مررتُ من عنق زجاجة. لقد كان حدثًا بسيطًا لكنَّه غيَّر كلَّ شيء. رُبَّما كان الأمر كذلك لك أنت أيضًا. يبدو أنَّ الأمور المهمَّة حقًّا يُتَّخذ القرار فيها في أركانٍ صغيرة من الحياة.

أذكُر تلك الأحداث الصغيرة كالتي حدثت في المطار أو في تلك المحادثة الهاتفيَّة فقط لأنَّها كانت البداية لفَهم كيفيَّة التجاوب مع مطالب الحياة من المركز الإلهيّ. لكنَّ هذا الواقع– هذا المركز الإلهيَّ، هو ما يقع في قلب كلِّ البساطة المسيحيَّة. فكلَّما خضعنا للمركز، صارَ كلُّ شيء فينا مركَّزًا ومنضبطًا ومكتملًا. هذا الخضوع ليس سوى اختبار الوصية

العُظمى بأنْ نحبَّ الربَّ من كلِّ كياننا. في سنة ١٦٢٨م، كتبت راهبة فرنسيَّة تُدعى ماري التجسُّد (Marie of the Incarnation): ''لقد أصبحت روحي أكثر بساطة...في أعماق نفسي،...ظلَّت هذه الكلمات تتردَّد: آه**!** يا حبيبي، ويا محبوبي**!** مبارك، يا إلهي**!**... ومنذ ذلك الوقت، **ظلَّت روحي في مركزها** الذي هو الله''.[٥]

أتمنَّى أن تَفهم ما أعنيه عندما أتكلَّم عن الحياة من **المركز**. إنَّني بالتأكيد أُشير إلى الله، لكنَّني لا أقصد الله بالمفهوم النظريِّ المجرَّد، ولا حتَّى الله بمعنى المخوف المهوب، ولا حتَّى الله بمعنى المحبوب والمطاع. لسنواتٍ عدَّة، أحببتُ الله وأردت أن أطيعه، لكنَّه ظلَّ على أطراف حياتي. كان الله والمسيح مهمَّين جدًّا لي لكن لم يكونا **المركز**. كانت لديَّ مهامٌّ وتطلُّعاتٌ كثيرة لا علاقة لها بالله، على أقلِّ تقدير. ما علاقة السباحة والاهتمام بالحديقة بالله؟ لقد كنتُ ملتزمًا ومكرَّسًا بعمق لكنَّني لم أكن موحَّدًا. لقد كنتُ أعتقد أنَّ خدمة الله واجبٌ آخر يضاف إلى جدولي المزدحم بالفعل.

لكنَّني بدأتُ بالتَّدريج أدرك أنَّ الله يرغب ألَّا يكون على أطراف حياتي، لكن في قلب اختباري. لم يعُدِ الاهتمام بالحديقة اختبارًا خارج علاقتي بالله– لقد كنتُ أكتشف الله في العمل في الحديقة. لم تعد السباحة مجرَّد رياضة جيِّدة– بل أصبحت فرصة للتواصل مع الله. لقد صار الله في المسيح **مركزَ** كلِّ شيء.

ذواتنا المتعدِّدة [٦]

رُبَّما تتساءل: ''ما علاقة كلِّ هذا بالبساطة؟''. قد أستطيع أن أشرح ذلك. يوجد داخل كلِّ واحد منَّا مجموعة من الذوات. هناك الذات الخجولة، والذات الشجاعة، الذات العمليَّة، والذات الوالديَّة، والذات النَّشِطة، والذات المُحبَّة للفنِّ والأدب، حيث تتميَّز كلُّ ذاتٍ من هذه الذوات بالفرديَّة الفجَّة، ولا تريد أيٌّ منها أن تساوم، بل أن تحمي مكتسباتها ومصالحها. إذا قرَّرت مثلًا أن تقضي أمسيَّة مسترخيًا تستمع فيها فقط إلى موسيقا شوپان (Chopin)، فإنَّ الذات العمليَّة التي لن ترضى إلَّا بالعمل والإنجاز ستبدأ بالاعتراض على ذلك الوقت الثمين المهدور. وتبدأ الذات النَّشِطة في التململ بفقدان صبر وإحباط، والذات المتديِّنة تذكِّرنا بفُرَص الدراسة الروحيَّة المهدورة أو إجراء اتِّصالات كرازيَّة بآخرين. وإذا اتُّخذ قرارٌ بقبول دعوةٍ للاشتراك في مجلس إدارة مؤسَّسة خدماتٍ إنسانيَّة، فإنَّ الذات المجتمعيَّة المدنيَّة تبتسم برِضى، لكنَّ كلَّ الذوات الأُخرى ستشعر بالتشتيت والتمزُّق. لا عجب إذًا أنَّنا نلتزم أكثر ممَّا نستطيع ونزحم جداولنا ونعيش حياةً محمومة تحاول أن تكون أمينةً لكلِّ شيءٍ في الوقت نفسه.

لكنَّنا عندما نختبر الحياة من المركز، فإنَّ كلَّ شيءٍ يتغيَّر. تتوحَّد ذواتنا المشتَّتة تحت السلطان الإلهيّ، فلا نعيش تحت سلطان الأغلبيَّة التي دائمًا ما تترك أقلِّيَّةً مقهورةً ناقمة. عندما تكون إجابات ''نعم'' و''لا'' من مصدرٍ إلهيٍّ، فإنَّها تراعي كلَّ الذوات وتجعل كياننا كلَّه منسجمًا راضيًا، وتتوجَّه جميع الشخصيَّات برضًى نحو **المركز** الذي هو المرجعيَّة النهائيَّة. في هذه الحال، يمكننا أن نستمتع بتلك الليلة الهادئة إلى التمام؛ لأنَّ كلَّ ذواتنا الأُخرى قد جرى تهدئتها من قِبَل **القدُّوس** الساكن فينا. تكون الذات العمليَّة والذات الدينيَّة والذات النشطة كلُّها في سلام لأنَّنا نعلم أنَّنا نعيش في الطاعة. لا يوجد احتياج في كلِّ موقف أن نرفع راية المصلحة الذاتيَّة، ونتساءل: ''ماذا سيعود عليَّ من ذلك؟''، لأنَّ كلَّ ما هو جيِّد، وكلَّ ما نحتاج إليه، سيحصل على الاهتمام المناسب في الوقت المناسب. عندئذٍ ندخل اتِّزانَ الحياة الباعث على الراحة.

وإلى أن نبدأ بالتحرُّك نحو تلك الطريقة للحياة، فإنَّنا لن نفهم عبارة يسوع المذهلة: ''بل لِيَكُنْ كلامُكُمْ: نَعَمْ نَعَمْ، لا لا. وما زادَ علَى ذلكَ فهو مِنَ الشِّرِّيرِ'' (متَّى ٥: ٣٧). عندما تكون كلُّ تحرُّكات الحياة محكومة بالإرشاد السماويِّ، فإنَّنا عندئذٍ نتكلَّم ونتَّخذ قراراتنا ببساطة. قبل ذلك، عندما يُطلَب منَّا قيادةَ حملةٍ لحقوق الأقليَّات (أو تقديم درس في مدارس

الأحد، أو أيَّ شيء)، فإنَّ ذواتنا المتنافسة تدخل في صراع مرير. ''من الصواب أن أفعل ذلك!''، ''لكنَّني، في واقع الأمر، مشغولٌ جدًّا الآن''، ''الاحتياج عظيم، وعلاوةً على ذلك، تخيَّل كم من الناس سيستحسنون ذلك العمل''، ''وماذا عن الذين لن يستحسنوه؟''، ''وماذا إذا تورَّطتُ مع السلطات؟ وهل يمكن أن أُلقى في السجن؟''... وهكذا يستمرُّ الجدل الداخليّ، فنتحرَّك منتفضين بين ''نعم'' و''لا'' بِحَيرةٍ وارتباك. منذ الأيَّام الأولى، تعلَّمنا أنَّ الله ليس رئيس الفوضى، بل رئيس السلام، لكنَّنا مع ذلك نعيش في تلك الفوضى الداخليَّة.

أمَّا عندما نعيش من المركز الإلهيّ، فإنَّ الأفكار والقرارات تنساب من ذلك النبع الهادئ. لا شكَّ أنَّ علينا أن ندرس كلَّ المعلومات المتعلِّقة بالأمر، لكنَّ القرارات تنبع من مصدرٍ أعمق من الحقائق والأرقام. وعندما نفهم اهتمام الآب، يمكن أن نجيب ''نعم'' و''لا'' بثقة. ولن نحتاج لأنْ نغيِّر قرارنا، إذا تغيَّرت رياح الآراء، لأنَّنا تكلَّمنا من واقعٍ أعمق من آخرِ استطلاعات الرأي.

تكلَّمتُ من قَبل عن وجود الله على أطراف حياتي. في واقع الأمر، يكون الأمر أكثر دقَّة أن أقول إنَّني أنا مَن كنت على أطراف حياته. لقد كنتُ أنا مَن يحتاج لأنْ يأتي إلى المركز. أن يأتي الله إلى دواخلنا، فهذا شيءٌ (وهو شيءٌ مهمٌّ جدًّا)، لكن أن نأتي نحن إلى الله ونكون فيه، فهذا شيءٌ آخر. في الأُولى، نحن ما نزال مركز الاهتمام. أمَّا في الثانية، الله هو المركز. عندما يأتي الله إلى دواخلنا، ما تزال لدينا درجة من الإدارة المستقلَّة، أمَّا عندما نأتي نحن إلى الله، فإنَّنا **نصير فيه**. هو في الكلِّ وبالكلِّ وفوق الكلّ. ليس هذا شكلًا بدائيًّا من الإيمان بوحدة الوجود (Pantheism)، كما لو أنَّ الله محبوس داخل خليقته؛ لكنَّه إيمانٌ بالله الخالق الذي يحرِّك كلَّ الوجود ويحفظ كلَّ الحياة ويضبطها. إنَّها الحياة من المركز الإلهيّ.

إنَّ بؤرة البساطة المسيحيَّة تُصبح أكثر وضوحًا عندما نغيِّر حركة الصورة من الله الذي يأتي إلى دواخلنا، إلى أن نصير نحن الذين نأتي إلى الله ونصير فيه. مفهوم ''المسيح فيكم'' مفهوم حيويٌّ حقًّا في تعليم الرسول بولس، لكنَّ الصورة المفضَّلة لديه والتي تكرَّرت أكثر كثيرًا هي ''في المسيح''. في الحالة الثانية، يكون المسيح هو النقطة المرجعيَّة ونحن الذين نتحرَّك نحوه. عندما نكون في المسيح، بحقٍّ، فإنَّ أفعالنا وأقوالنا تكون متكاملة ومتناسقة؛ لأنَّها كلَّها تنبع من نبعٍ واحد.

الشركة الدائمة

رُبَّما من حقِّك أن تتساءل إنْ كانت نوعيَّة الحياة هذه ممكنة. هل نستطيع فعلًا أن نستمع إلى الله بطريقة تجعل كلَّ قراراتنا نابعةً منه ومحكومةً به؟ هل نستطيع أن نعيش في تواصلٍ وشركةٍ دائمةٍ مع المركز الإلهيِّ للكون؟ هل يمكن أن يكون المسيح حاضرًا وسط شعبه للدرجة التي تجعلهم كلَّهم يستطيعون الاستماع إليه؟ بالتأكيد نعم! ليس من الصعب الاستماع إليه، فلغته ومفرداته ليست صعبة الفهم.

كان فرانك لوباخ (Frank Laubach) يشهد، بمسيرته المُرسليَّة والتعليميَّة الشهيرة، بصورةٍ متكرِّرة عن هذه الحقيقة؛ إذ تزخر يوميَّاته وكتاباته عن الصلاة بالكثير من تجاربه التي كانت تستهدف البقاء في حالة تواصلٍ مستمرٍّ مع الله. في اليوم الأوَّل من سنة ١٩٣٧م، كتب في مذكِّراته: ''يا ربُّ، أريد أن أعطيك كلَّ دقيقة في هذه السنة. سأُحاول أن أحتفظ بك في ذهني كلَّ لحظة من لحظات صحوي...سأجعلك أنت المتكلِّم وأجعلك تقود كلَّ كلمة أقولها. سأجعلك تقود تصرُّفاتي. سأحاول أن أتعلَّم لغتك''.[٧] يا له من قرارٍ رائعٍ لبداية السنة! وبعد ذلك بثلاثة أشهر، كتب معلِّقًا على تقدُّمه في ممارسة حضور الله: ''أشكرك...حيث إنَّ عادة الحوار الدائم معك أصبحت أكثر سهولة كلَّ يوم عن الذي قبله. إنَّني أومن فعلًا بأنَّ

كلَّ فكرةٍ تمرُّ بعقلي يمكن أن تكون حواراتٍ معك''.[٨]

فكِّر في أعداد الناس الذين تشجَّعوا أن يسيروا في هذا الطريق بفضل الكتابات البسيطة والحياة العميقة التي عاشها الأخ لورنس. كم نلنا من غنًى روحيٍّ عندما أُقنِع أخيرًا، ويكاد يكون على خلاف رغبته، أن يكتب ما تعلَّمه عن كيفيَّة ''**ممارسة حضور الله**'' *(The Practice of the Presence of God)*. وما تزال كلماته الشهيرة تنبض بالحياة والفرح: ''لا يختلف عندي وقت الانشغال بالعمل، عن الوقت المخصَّص للصلاة؛ ففي ضوضاء مطبخي وزحامه، حيث يطلب أشخاص كثيرون طلبات مختلفة في الوقت نفسه، أشعر بحضور الله في هدوءٍ تامٍّ تمامًا مثلما أشعر به عندما أكون راكعًا على ركبتيَّ في وقت العبادة المقدَّس''.[٩] كلُّ فكرةٍ وكلُّ قرارٍ وكلُّ عملٍ كان ينبع من ذلك الأصل الإلهيّ. راهب مطبخ بسيط، كان يشير إلى نفسه بوداعة ''سيِّد الآنية والطاسات''، وجد أنَّ من الممكن أن يعيش في تواصلٍ مستمرٍّ مع المركز الإلهيّ، ويمكننا نحن أيضًا أن نجد ذلك ممكنًا.

لكنَّنا نخدع أنفسنا إذا كنَّا نظنُّ أنَّ مثل تلك الطريقة المقدَّسة في الحياة سهلة وتلقائيَّة. مثل هذه الحياة من التواصل الحيِّ مع الله لا تسقط فوق رؤوسنا من تلقاء نفسها. يجب أن نرغب فيها ونطلبها ونسعى خلفها. كما يعطش الإيَّل إلى جداول المياه، تعطش نفوسنا إلى النبع الحيّ. يجب أن نقود حياتنا بطرق خاصَّة إذا كنَّا نريد أن نُروي هذا العطش. يجب أن نتبنَّى أسلوبَ حياة واعيًا مقصودًا من شأنه أن يجتذبنا بعمقٍ أكثر إلى الشركة الدائمة مع الآب.

لقد اكتشفتُ طريقةً ممتعةً للوصول إلى ذلك الهدف: ممارسة صلوات تفتح أمامنا حضور الله في كلِّ لحظةٍ من لحظات يومنا. الفكرة بسيطة جدًّا. حاولْ أن تكتشف أكبر عددٍ من الطرق التي تجعل بها الله في وعيك دائمًا. رُبَّما تقول: ''ليس من جديد في ذلك، هذه الممارسة عتيقة جدًّا وتقليديَّة جدًا''. بالضبط! هذه الرغبة في ممارسة حضور الله هي سرُّ كلِّ القدِّيسين. يوصينا الرسول بولس: ''صَلُّوا بلا انقِطاعٍ'' (١تسالونيكي ٥: ١٧)، ''لا تهتَمُّوا بشَيءٍ، بل في كُلِّ شَيءٍ بالصَّلاةِ والدُّعاءِ مع الشُّكرِ، لتُعلَمْ طِلباتُكُمْ لَدَى اللهِ'' (فيلبِّي ٤: ٦). ''لأنَّ كُلَّ الذينَ يَنقادونَ بروحِ اللهِ، فأولئكَ هُم أبناءُ اللهِ'' (رومية ٨: ١٤). بالتأكيد، هذا ليس جديدًا. ملايين عدَّة من الناس أثبتوا أنَّ هذا واقعٌ عمليٌّ ويمكن العيش بحسبه.

هل حاولت من قبل أن تعيش يومك بطريقةٍ تجعلك تملأ كلَّ لحظةٍ بالتفكير في الله؟ لست أقصد أن تتوقَّف عن نشاطك اليوميِّ المعتاد. بالتأكيد لا! بل على العكس. ادعُ الله إلى كلِّ نشاطٍ تقوم به، مالئًا نشاطَك بالنور الإلهيّ.

ذات ليلة قرَّرتُ قرارًا طَمُوحًا: سأحاول بوعيٍ أن أرفع كلَّ إنسانٍ سأراه غدًا أمام نور المسيح. وفي الصباح، قفزتُ من فِراشي، وتناولتُ إفطاري، وتوجَّهتُ إلى عملي دون أن أُدرِك أنَّني لم أُصلِّ من أجل أُسرتي. فبدأتُ أغمرهم بنور المسيح واحدًا تلو الآخر. وما إن وصلتُ إلى المكتب، اندفعتُ إلى غرفة سكرتيرَتِي، وأعطيتها جدولَ أعمالي اليوميّ، وفي طريقي إلى الخارج، لاحظتُ أيضًا أنَّني لم أصلِّ من أجلها. فصلَّيتُ من أجل أن يدخل فرح الربِّ حياتها في هذا اليوم. عندئذٍ أدركتُ أنَّ حياتي أبعد ما تكون عن الشركة الدائمة مع الربِّ، وأصبحتُ أكثر تركيزًا في داخلي. ثُمَّ عندما بدأتُ روتينَ يومِي، سعيتُ لأَنْ أُرسلَ شعاع صلاة إلى كلِّ من أُقابله. طلبتُ من الله تمييزًا لكي أُدرِك ما في داخل الناس، وأدعو المسيح أن يُريحَ هؤلاء الذين بدا عليهم الألم، ويشجِّع من بدا عليهم التعب والإجهاد، ويتحدَّى الذين بدوا غير مبالين. كان يومًا سعيدًا جدًّا. وفي بعض الأحيان، كان مَن أمرُّ بهم في الشارع يتوقَّفون ويبتسمون ويتمنَّون لي يومًا سعيدًا.

يمكننا أن نساعد الناس كثيرًا بهذه الخدمة السرِّيَّة. ذات مرَّة، في اجتماعٍ معتادٍ لإحدى اللجان، شعرتُ بالرغبة في الصلاة لإحدى المشارِكات، إذ كانت تبدو حزينة ومثقَّلة بالهموم، بل المرارة أيضًا. واصلتُ المناقشة، لكنِّي كنتُ أطلب

طول الوقت غمرًا من نور المسيح لها. كان الاجتماع صعبًا بسبب ملاحظاتها التي تميل إلى الحدَّة، لا سيَّما تجاه شخصَين آخرين في المجموعة. وبينما كنَّا نستعدُّ للمغادرة، بدأت تلك المشارِكة فجأةً بالبكاء وقالت للجماعة: ''أتمنَّى أن تصلُّوا من أجلي''. وبعد أن شاركت بمصدر ألمها وغضبها، اجتمع حولها الاثنان اللذان كانا هدفًا لهجومها اللاذع وصلُّوا صلاة غاية في اللطف والرقَّة لشفائها وإطلاقها. في ذلك الوقت، شعرتُ بأنَّ الغرفة قد غُمِرَت بالقوَّة والفرح.

تكلَّم فرانك لوباخ عمَّا أسماه ''لعبة الدقائق''، والفكرة هي أن تخصِّص ساعةً من ساعات اليوم وترى عدد الدقائق في أثناء تلك الساعة التي استطعت فيها أن تكون على وعيٍ بحضور الله. في البداية، ستجد هذه الممارسة صعبة وسوف تكون ''نتيجتك'' منخفضة. لا بأس بذلك؛ فأنت ما تزال تحاول تنمية عضلاتٍ روحيَّة. مع التدريب والممارسة، ستُصبِح هذه العادة أكثر تأصُّلًا. جرِّب مثلًا هذا في البداية في أثناء اجتماع العبادة. لعلَّ هذا يساعدك على التركيز. وبمرور الوقت، وسِّع هذه التجربة لتشمل يومك كلَّه.

عندما بدأتُ في قراءة يوميَّات لوباخ، حيَّرتني الملاحظات التي كان يكتبها على رأس كلِّ يوم مثل: ''واعٍ بنسبة ٥٠٪...واعٍ بنسبة ٢٥٪...واعٍ بنسبة ٨٠٪''. لم يكن هناك أيُّ شرحٍ، وكنت أتساءل: ''واعٍ بماذا؟''. وفي النهاية، أدركتُ أنَّه كان يلعب لعبته ويسجِّل نسبة شعوره الواعي بحضور الله في كلِّ يوم.

إنَّني سعيد أنَّه أسماها لعبة؛ لأنَّها مُمارسة روحيَّة مُسِرَّة. علاوةً على ذلك، فإنَّنا نحتاج إلى الفرح وخِفَّة القلب بينما نُمارس مثل هذه التدريبات، وإلَّا سنكون جادِّين أكثر من اللازم، ومُملِّين بصورةٍ خطيرة. علَّق مايستر إكهارت (Meister Eckhart) قائلًا: ''إنَّ نفس الإنسان ستُنتِج شخصيَّةً ناضِجةً إذا ضحك الله لها، وضحكَت هي له في المقابل''.[١٠] إنَّ العمل الذي نتكلَّم عنه ليس واجبًا دينيًّا كئيبًا مملًّا، بل امتيازٌ مفرح. إنَّنا عندئذٍ ننخرط في مغامرة بهيجة، وليست أعمالًا مؤلمة للتكفير عن الذنوب. إنَّ الله لا يريد قتل فرحتنا. في هذا التدريب البسيط، نحاول أن نصبح أكثر وعيًا بالله والحياة معه. في عيون هؤلاء الذين يعرفون لغة الله، يتمتَّع كلُّ شخصٍ وكلُّ شجرةٍ وكلُّ زهرةٍ وكلُّ لونٍ بالحياة المتَّصلة بالله. قال تويوهيكو كاغاوا (Toyohiko Kagawa)، مسيحيٌّ يابانيٌّ وناشطٌ عاش في القرن العشرين، إنَّ كلَّ كتاب عِلميٍّ هو خطاب من الله يخبرنا فيه عن طريقة إدارته لهذا الكون.

إنَّ مجد هذه التجربة يَكمُن في أنَّها تعمل بأفضل صورة عندما نركِّز، لا على أنفسنا بل على الآخرين. إنَّنا نخطئ فهم هذا التدريب إذا كنَّا نفعله لكي ''نقيس درجة حرارتنا الروحيَّة'' كلَّ بضع ثوانٍ لنرى إن كنَّا نُركِّز على الله بما يكفي. كم يكون من الأفضل أن نحاول كلَّ لحظة أن نقدِّم الله لشخصٍ آخر. من الرائع مثلًا أن نتمشَّى في فناء مدرسة ابتدائيَّة ونرفع في داخلنا كلَّ طفلٍ إلى ذراعَي المسيح، أو أن نجلس في المقعد الخلفيِّ لإحدى الحافلات وندعو المسيح أن يزور كلَّ راكبٍ من الركَّاب. يمكن أن يغمر عمَّال النجارة والسباكة والكهرباء البيوت التي يعملون فيها بنور المسيح، مصلِّين لكلِّ فردٍ من أفراد الأسرة (أو إن كان بيتًا جديدًا لم يسكنه أحدٌ بعد، أن يصلُّوا من أجل الأسرة التي ستعيش فيه). يُمكن أن يُصلِّيَ عُمَّال المتاجر وموظَّفو المبيعات من أجل كلِّ شخصٍ يقف أمامهم في الطابور، ويتصوَّروا كلَّ واحدٍ منهم يقترب أكثر إلى الله. في عملي، أكتُب كثيرًا من الرسائل، وفي كلِّ مرَّةٍ أوقِّع باسمي، أُحاول أن أصلِّي من أجل الشخص الذي أوجِّه إليه الرسالة. ومن الممتع جدًّا أن أتخيَّل متلقِّي الرسالة وهو يفتحها فيتقوَّى بشعورٍ جديدٍ بحضور الله. توجد الآلاف من هذه التجارب الصغيرة يمكنك أن تجرِّبها، وستُدهشك النتائج كثيرًا.

وأروع ما يحدث، هو ما يحدث داخلنا؛ إذ ينمو داخلنا بالتدريج ما يسمِّيه توما الكمپيسيُّ ''صداقة عِشرةٍ مع يسوع''.[١١] فتصيرُ ''حبيبي، يا يسوع'' ليست مجرَّد كلمات ترنيمةٍ مألوفة– بل اختبارٌ مستمرٌّ رائع. ولدهشتنا، سنكتشف أنَّنا نسير مع

الله. تصبح أفكاره أفكارنا، ورغباته رغباتنا. وبازدياد، تذوب الأفكار القبيحة القديمة وتصبح أذهاننا نقيَّةً مثل جداول المياه النازلة من قِمَم الجبال. وتبدأ التأكيدات تتراكم أنَّ الله يعمل في حياتنا اليوميَّة، حتَّى نُصبح متيقِّنين من حضور الله، لا بسبب الكتب والوعَّاظ، بل من الخبرة التي نعيشها. وهكذا يُستغنى عن الضغط والتردُّد القديمَين بسهولةٍ أكبر وثقةٍ أعمق.

ومن بين كلِّ التغييرات الداخليَّة التي نختبرها، فإنَّ أعظمها أنَّنا نصبح قادرين على تمييز صوت يسوع، ونشعر بأُلفةٍ داخليَّةٍ مع لغة الرَّاعي الحقيقيّ. وعندما نتَّضع تحت الصليب، فإنَّنا نستطيع أن نميِّز أكثر فأكثر روحَ الله الحقيقيَّ من بين ضجيج أصوات الناس، بل حتَّى ذلك الصوت الأجوف للعدوِّ الذي يمكن أن يتنكَّر في صورة ملاك نور، ونبدأ بالعيش في الإرشاد الإلهيّ. وتكوِّن التأكيدات الداخليَّة وَحدة في قراراتنا، فتُفحَص كُلُّ المطالبات بالخدمة بواسطة نورٍ جديد. وتصبح حياتنا أكثر بساطةً لأنَّنا ننتبه أكثر إلى الصوت الواحد، وعندئذٍ تنبع كلُّ نَعَم ولا من ذلك **المركز**. ولا نعود مندفعين نلهث خلف جداول أيَّامنا المزدحمة. ورُغم ذلك، فإنَّنا نُنجز أكثر. شهد توماس كيلي قائلًا: ''الحياة من **المركز** حياة غير متعجِّلة من السلام والقوَّة. إنَّها حياة تتمتَّع بالبساطة والسكينة. إنَّها حياة رائعة ومنتصرة ومشرقة. لا تستغرق وقتًا، لكنَّها تشغل كلَّ وقتنا. وتجعل برامج حياتنا جديدة ومنتصرة'' .[١٢]

مبدأ الاكتفاء

من أكثر تأثيرات البساطة عمقًا هو نشوء روحِ رضًى عجيبة. فقد اختفت الحاجة إلى الضغط والجذب والإجهاد لكي نتقدَّم إلى الأمام. وتبدَّلت بلامُبالاة مجيدة بشأن المنصب والمكانة والممتلكات. إنَّ الحياة من ذلك المركز العجيب تجعل كلَّ الاهتمامات الأُخرى تخفِتُ وتبهت وتصير بلا أهمِّيَّة. كان القدِّيس بولس يعيش هذه الحقيقة حتَّى إنَّه استطاع أن يكتب من داخل سجنٍ رومانيٍّ: ''فإنِّي قد تعَلَّمتُ أنْ أكونَ مُكتَفيًا بما أنا فيهِ'' (فيلبِّي ٤: ١١). لم يعُدْ مباليًا كثيرًا بالحاجة أو بالوفرة. لم يكُنِ الشبع والجوع مهمَّين كثيرًا لذلك اليهوديِّ النحيل ذي الروح العملاقة. ''أستَطيعُ كُلَّ شَيءٍ في المَسيحِ الذي يُقَوِّيني''، هكذا قال، وهكذا عاش (فيلبِّي ٤: ١٣).

وبمهارةٍ شديدة، قَلَب بولس الموازين على كلِّ الذين كانوا يعلِّمون أنَّ ''التقوى تجارة (أي وسيلة للربح)''، إذ ردَّ عليهم قائلًا: ''...التَّقوَى مع القَناعَةِ فهي تِجارَةٌ عظيمَةٌ'' (١تيموثاوس ٦: ٥، ٦). لقد أدرك أنَّ مشكلة المكسب المادِّيِّ هو أنَّه لا يجلب الرضى والاكتفاء، بل يجعل الإنسان يريد المزيد. سُئِل الثريُّ الأميركيُّ جون دي. روكفيلر (John D. Rockefeller): كم من المال يحتاج الإنسان ليشعر بالاكتفاء؟ فأجاب قائلًا: ''فقط أكثر قليلًا!''. وهذه بالتحديد هي مشكلتنا. نظنُّ أنَّنا نحتاج إلى المزيد لكي نَصِل إلى الكفاية التي تصير سرابًا لا نَصِلُ إليه بتاتًا.

لكنَّ الأمر الرائع بشأن البساطة هو قدرتها أن تعطينا الرضى والقناعة. هل تدرك كم أنَّ هذه حرِّيَّة عظيمة؟ أن نعيش في الاكتفاء يعني أنَّنا نخرج من سباق المنصب والمكانة والثروة والمقتنيات والسباق المحموم الذي ينخرط فيه الجميع. نستطيع أن نصرخ ''لا!'' في وجه ذلك الجنون الذي ينادي قائلًا: ''المزيد، المزيد، المزيد!''. نستطيع أن نستريح مطمئنِّين لنعمة وجود الله.

ما زلتُ أتذكَّر اليوم الذي صدمتني فيه هذه الحقيقة بقوَّة غير عاديَّة. كنتُ أمرُّ ببعض البيوت باهظة الثمن، وبدأتُ أتأمَّل في مَيلنا المستمرَّ إلى الرغبة في ما هو أكبر، وأفضل وأفخم. وفي الوقت نفسه، بدأتُ أُلاحظ تنامي الطمع في روحي بينما كُنتُ أتأمَّل في هذه البيوت بإعجاب. وبدأتُ حوارًا داخليًّا قصيرًا. هل يمكنُ أن تصل إلى المكان الذي فيه لا تشتهي بيتًا أفضل حتَّى وإن كنتُ تستطيع شراءه؟ ألا تستطيع أن تحدِّد مستوًى اقتصاديًّا معيشيًّا معيَّنًا وترضى به، حتَّى وإن كان

دخلك يتخطّاه بصورةٍ كبيرة؟ كان الردُّ سريعًا: ''نعم، بالتأكيد! ليس من الضروريّ أن تستمرَّ في الرغبة في المزيد. إنَّك **تستطيع** أن تكتفي بما أنت فيه، دون الرغبة في المزيد''. إنَّني واثقٌ تمامًا بأنَّني لم أصل بعد إلى ذلك الرضى المقدَّس، لكنَّني من وقتٍ إلى آخر، أعرفُ قدرًا منه ومن الحرِّيَّة التي يُنعِم بها عليَّ، وقد اكتشفتُ أنَّ هذا مكانُ راحةٍ رائعٌ.

فكِّر في البؤس الذي يغشى حياتنا عندما يسيطر عليها ذلك الطمع الذي ينخر في عظامنا بلا هوادة. نورِّط أنفسنا في ديونٍ هائلة ثُمَّ نعمل في وظيفَتَين ورُبَّما ثلاثٍ لكي نظلَّ طافين على وجه الحياة الاقتصاديَّة. ننتزع أُسرَنا من جذورها بتنقُّلاتٍ لا ضرورة لها حتَّى نقتني بيوتًا أكثر فخامة. نُصارِع وننازع لكي نحصل على المزيد، لكنَّنا لا نشعر بتاتًا بأنَّنا حصلنا على ما فيه الكفاية. والأكثر تدميرًا من كلِّ شيء، أنَّ سيَّاراتنا الفاخرة وبرك السباحة في حدائقنا وغيرها من الأمور الفخمة والمثيرة تستطيع أن تحتلَّ مكان اهتماماتنا بالحقوق المدنيَّة للمهمَّشين والمضطهَدين والفقر الذي ينتشر في أحياء المدينة العشوائيَّة، أو ملايين الفقراء في الهند مثلًا. الطمع يستطيع أن يقطع أوتار الرحمة والتعاطف مع الآخرين. لقد رأى الرسول بولس ذلك بوضوح عندما حذَّر أنَّ شهوتنا للثروة يمكن أن تُسقِطنا في ''...تجرِبَةٍ وفَخٍّ وشَهَواتٍ كثيرَةٍ غَبيَّةٍ ومُضِرَّةٍ، تُغَرِّقُ النّاسَ في العَطَبِ والهَلاكِ'' (١تيموثاوس ٦: ٩).

لسنا مضطرِّين لأنْ نقع فريسةً للطمع والشهوة، بل يمكننا أن ندخل حياة السلام والسكينة. ونستطيع أن نقول مع بولس: ''فإنْ كانَ لنا قوتٌ وكِسوَةٌ، فلنَكتَفِ بهِما'' (١تيموثاوس ٦: ٨). أتمنَّى أن أستطيع أن أُنهي حديثي بشأن الاكتفاء بهذه النغمة العالية. لكنَّك رُبَّما تكون قد أدركت أنَّ للاكتفاء بعضَ المشكلات. المشكلة الكبرى في مبدأ القناعة تقع في ميله إلى تقديس الوضع الراهن، وتقديمه مبرِّرًا دينيًّا للرضى بالأوضاع الحاليَّة. إنَّه نوع من أنواع المشورة التي يُعطيها الأغنياء للفقراء والمهمَّشين. عادةً ما تكون روح عدم الرضى بالأوضاع الحاليَّة دافعًا في اتِّجاه الخير. إنَّه ذلك التوتُّر المقدَّس وعدم الرضى الذي يُلهِم كلَّ أشكال العمل الاجتماعيّ. وهكذا فإنَّنا نواجه مهمَّة التفريق بين عدم الرضى النابع من الرغبة الإلهيَّة لتغيير الأوضاع إلى الأحسن، وعدم الرضى الناتج من الطمع الأنانيّ. بالتأكيد لا توجد إجابات مضمونة، لكنَّني أحبُّ أن أُشارك بالإرشادات التالية راجيًا على الأقلِّ أنَّ تساعدنا أن نجد الاتِّجاه الصحيح.

أوَّلًا، يمكنُنا أن نشارك قلقنا مع أخواتٍ وإخوةٍ آخرين نحترم رأيهم وتمييزهم. ثانيًا، إذا كان شعورنا بعدم الراحة نابعًا من الألم على محنة الذين أحوالهم يائسة بصورةٍ واضحة، ففي الأغلب هذا الشعور هو من الربّ. ثالثًا، إذا كان القلق يتضمَّن حالة أولادنا وسلامتهم، فهو غالبًا ما يكون صحيحًا. رابعًا، إذا كانت رغبتنا في تحسين أوضاعنا، لا حاجة لأنْ نفترض تلقائيًّا أنَّ هذا خطأ. خامسًا، يجب أن نبحث إن كان شعورنا بعدم الرضى نابعًا من فقدان السلام مع المسيح. سادسًا، يجب أن نتعلَّم التفريق بين الاحتياج النفسيّ الأصيل، مثل الحصول على بيئة مُبهِجة، والرغبة في الأشياء إلى حدِّ الهوس. سابعًا، يجب أن ننمو في القدرة على التمييز ما بين الرغبات التي تنبع من المحبَّة السماويَّة، وتلك التي تنبع من محبَّة المال. ثامنًا، بعمل إراديٍّ منَّا، يجب أن نوقِف أيَّ تحرُّكٍ منبعه الطمع.

التحرُّك إلى أعلى وإلى الداخل

يُعَدُّ هذا التكامل الداخليُّ الذي وصفته، شوقًا شديدًا لكثيرين. إنَّنا مُجهَدون بسبب الالتزامات المتنافسة والجداول المرهقة. نرغب في أن نكون مطيعين لله في كلِّ الأشياء، ولدينا معرفة متزايدة أنَّ هذه الفوضى المحمومة ليست مشيئته. نتوق إلى الدخول في ذلك الصمت العميق الذي يجعل خدمتنا موحَّدة وقويَّة.

لكنَّ الرغبة وحدها لا تكفي. إذا كُنَّا نتوقَّع أن ندخل في تلك البساطة الداخليَّة التي خُلِقنا من أجلها، فسنحتاج لأنْ

نُنظِّم حياتنا بأساليبَ خاصَّة. لن تمنحنا الأشياء التي نفعلها بساطة القلب، لكنَّها ستضعنا في المكان الذي فيه يمكننا أن نستقبلها.

تعدُّ مُمارسة انضباط الصمت أحد طُرقِ تنمية البساطة؛ إذ يسيطر على المجتمع ذلك المفهوم غير الصائب أنَّ العمل هو الحقيقة الوحيدة. من فضلك، من أجل الله ومن أجلك، لا تفعل أيَّ شيء لمجرَّد فعله. قِفْ واصمُت واستمتِع بحضوره. غُص في نور المسيح واسترِحْ في ذلك الوضع. افتَحِ المكان المقدَّس العميق في نفسك واستمِع إلى **صوت الربّ**. هذا يمنحنا التركيز والاكتمال والقصد. عندئذٍ نكتشف السكينة والقوَّة وثبات التوجُّه في الحياة.

في البداية، سنتردَّد في فعل هذا. إنَّها أرض غريبة، وقد قال بلايز باسكال في ذلك: ''إنَّ الهدوء الأبديَّ للفضاء غير المتناهي يرعبني''.[١٣] لكنَّنا إذا استطعنا، ولو مرَّةٍ واحدة، أن نتغلَّب على مخاوفنا ونهدِّئ أنفسنا، فسنكتشف أنَّ المسيح هو صديقنا الذي يرغب في مصاحبتنا. إنَّ خوفنا يأتي من عدم اعتيادنا تركيز حياتنا على مركزٍ واحد. ويكتب واين أوتس (Wayne Oates)، في كتابه ''**تربية الصمت في قلب صاخب**'' *(Nurturing Silence in a Noisy Heart)*: ''ليس الصمتُ من سكَّان هذا العالم. في الأغلب، إنَّ الصمت غريبٌ عن عالمك أنت أيضًا. إذا امتلكنا، أنا أو أنت، الصمت داخل قلوبنا الصاخبة، فعلينا أن نُنمِّيه... **تستطيع** أن تنمِّي الصمت في قلبك الصاخب إذا وجدته ثمينًا، وحافظت عليه، ورغبت في ازدياده''.[١٤]

نعم، يُمكن أن يكون لنا صمتٌ مقدَّس في الداخل، لكنَّنا نحتاج لأنْ نُنمِّيه. وعندما نفعل ذلك، فإنَّ المعجزات تحدث. إذا هاجمتنا التجارب والإغراءات، فكلُّ ما نحتاج إليه هو أن نهدِّئ أنفسنا داخل قوَّة الله، فنشاهد الخير يتصاعد والشرَّ يتباعد. إنَّه لأمرٌ مدهش– هذه الراحة في الله، هذه السكينة للنشاط المحموم، وطلب الملكوت أوَّلًا وقبل كلِّ شيء.

في كلِّ الأوقات، لا سيَّما في البداية، نحتاج لأنْ نحدِّد لأنفسنا أوقاتًا وأماكن محدَّدة لممارسة الصمت وتنميته. عندما كنتُ مراهقًا، كنتُ أذهب خلف المرأب وأجلس على سورٍ واضعًا قدميَّ على صناديق القمامة. لقد كان مكاني المقدَّس الهادئ هناك، وهناك تعلَّمتُ أن أتواصل مع الآب. في أحد أيَّام شهر أيَّار/مايو، كتب فرانك لوباخ: ''لقد كان اليوم غنيًّا لكن مُرهِقًا، فتسلَّقت التلَّ الواقع خلف منزلي وأنا أتكلَّم إلى الله وأستمع إليه طوال الطريق صعودًا، وطوال الطريق نزولًا، وطوال نصف الساعة الجميلة التي أمضيتها على القمَّة''.[١٥] يقترب بعض الناس إلى الله في صمت الصباح الباكر، في حين يُهدِّئ آخرون أنفسهم بصورةٍ أفضل في الصمت العميق للَّيل، كما يستطيع بعض الناس أن ينسحبوا في أثناء اليوم لفترة من الصمت والانتباه والاستماع. يجب عمومًا أن يكون لدينا وقتٌ فيه نُهدِّئ التوتُّر والإيقاع السريع، ونتأمَّل في الله القدير الذي يسكن في قلوبنا.

مكوِّنٌ مهمٌّ آخر من مكوِّنات فتح الطريق أمام البساطة الداخليَّة هو أن نضبط إيقاعنا على إيقاع الحياة. هناك دورات في الحياة: دوراتٌ للأكل والنوم والعمل واللعب. وعندما تنكسر هذه الدورات الإلهيَّة، ينتج البؤس والشقاء. يعاني طلبة الجامعة كثيرًا من إنكار شديد لدورة النوم والاستيقاظ. كما تُعاني أعدادٌ كبيرة من الأميركيِّين التعب (وحرقة المعدة) بسبب الفشل في التجاوب السليم مع دورة الأكل. وكوننا محدودين، نولد ونكبر ونشيخ ونموت، وهذه أيضًا دورة من دورات الحياة. لكن يا له من عبءٍ كبير نضعه على أنفسنا وعلى الآخرين عندما نحاول يائسين أن نقاوم العجز ونظلَّ شبابًا دائمًا! على الجانب الآخر، يصارع الأطفال لكي يصلوا إلى سنِّ الرشد، وبعد أن يصلوا إلى هذا العمر يحزنون أنَّهم تخطُّوه، وهذا يجعلنا كلَّنا في شقاءٍ أغلب الوقت.

يمكن أن يجدَ كثيرون منَّا راحةً كبيرةً عندما نجد دورة النشاط والهدوء الخاصَّة ونتَّبعها بعناية. مثلًا، أجد نفسي أؤدِّي

أفضل ما عندي عندما أقضي فتراتٍ من النشاط الشديد، تعقبها فترات من الصمت والاختلاء النسبيّ. عندما أفهم ذلك عن نفسي، يمكنني أن أنظِّم حياتي وفق هذه الحقيقة. فبعد قدر معيَّن من وضع نفسي في قلب الحياة العامَّة، أبدأ في الشعور بالاستنزاف والحاجة إلى الاختلاء. لذا أحرص على تمضية وقتٍ من الصمت والهدوء لئلَّا أتحوَّل إلى سلك كهربائيٍّ يسري فيه تيَّار من الطاقة الفارغة من المضمون، أبدو مشغولًا ومهمًّا لكنَّني من الداخل خالٍ من الحياة. يجب أن أتعلَّم الوقت الذي ينبغي لي أن أنسحب فيه، مثلما كان يسوع يفعل، وأختبرَ القوَّة الإلهيَّة المجدِّدة للحياة. يُخبرنا العهد الجديد أنَّ بطرس انتظر بعض الوقت مع سمعان الدبَّاغ (أعمال الرسل ٩: ٤٣). وفي خضمِّ رحلتنا، نحتاج لأنْ نكتشف أماكنَ عدَّة ''نمكث فيها'' قليلًا حيث نستطيع أن نستقبل مَنًّا إلهيًّا جديدًا.

تَضمَنُ هذه المعرفة حُرِّيَّة عجيبة. فلم أعد أوبِّخ نفسي عندما لا أُعطي ما يكفي من الوقت للتأمُّل والدراسة في الأيَّام التي أكون فيها في نشاطٍ شديدٍ بين الناس. وعلى الجانب الآخر، لا أعدُّ أوقات التأمُّل الهادئ أو العُطلة أوقاتَ كسلٍ غير منتجة. كما يمكنني أن أفهم وأُقدِّر الإعدادَ الخفيَّ الذي به يُعِدُّ الله خدَّامه. لذلك، تحرَّرتُ من الرغبة في الظهورِ العلنيِّ في الوقت الذي أحتاج فيه لأنْ أحيا في الخفاء.

وهناك خطوة أُخرى نحو البساطة، وهي رفض الحياة في ما يتجاوز إمكاناتنا نفسيًّا. في ثقافة تعيش في دوَّامات مستمرَّة، يجب أن نفهم حدودنا الوجدانيَّة. يشير الصداع النصفيُّ والقرحة والتوتُّر العصبيُّ وغيرها من الأعراض، إلى العبء النفسيِّ الذي يفوق الاحتمال. إنَّنا نُراعي مثلًا ألَّا نعيش حياةً تتجاوز إمكاناتنا المادِّيَّة، فلماذا نعيش حياة تتجاوز إمكاناتنا النفسيَّة؟ يجب أن نرفض الصورة المعاصرة التي تصوِّر الإنسان الناجح بأنَّه الإنسان الذي إيقاعه سريع ولا يتوقَّف ولا يستطيع أن يجد الوقت ويحمل عبء عملٍ أكثر ممَّا يستطيع اثنان أن يُنجِزاه. لنرفض جنون العظمة الذي يقول إنَّنا الوحيدون القادرون على إنقاذ العالم. يجب أن ندرك حدودنا النفسيَّة ونحترمها. إنَّ زوجاتنا وأولادنا سيحبُّون ذلك، ويحبُّوننا لذلك.

هل هناك شيءٌ آخر نستطيع أن نفعله؟ نعم، الكثير! نستطيع أن نحتفظ بسجلٍّ لكلِّ أنشطتنا للشهر مثلًا. ثُمَّ نُرتِّبها كالتالي:

- ضروريٌّ جدًّا: ١
- مهمٌّ لكن ليس جوهريًّا: ٢
- مفيدٌ لكن ليس ضروريًّا: ٣
- تافه: ٤

وبعد ذلك يجب أن نتخلَّص من كلِّ الأنشطة التي تنتمي إلى الفئتَين الأخيرتَين. إنَّنا مشغولون أكثر من اللازم فقط لأنَّنا **نريد** أن نكون كذلك. نستطيع أن نتخلَّص من جزءٍ كبيرٍ من نشاطنا وهذا لن يؤثِّر بدرجةٍ كبيرةٍ في إنتاجيَّتنا.

وبعزمٍ، يمكننا أن ننمِّي حياة التأمُّل. لسنا مضطرِّين إلى مجرَّد سماع الأخبار وقراءة الصحف، بل يمكننا أن نتأمَّل في ما نسمعه ونقرأه. يجدر بنا أن نرى الصورة الكبرى لأحداث عصرنا ونُقيِّمها. الأنبياء الحقيقيُّون في عصرنا هم من يستطيعون أن يدركوا ما يحدث في المجتمع المعاصر، ويرون إلى أين يقودنا ذلك، ويُقيِّمونه. علينا أن نتصارع مع ''معنى وجودنا''– مَن نحن؟ وما هدف وجودنا؟ يمكننا أن نأخذ خلوة ليوم كامل لنتأمَّل اتِّجاهنا في الحياة. يجب ألَّا نستقبل الحقائق فقط، بل أن نُفكِّر في قيمتها ومعناها. عندما أمضى أحد أصدقائي، وهو فيلسوفٌ عبقريٌّ، سنة سبتيَّة (سنة راحة)، سألته عمَّا سيفعل في ذلك الوقت. كان جوابه: ''على مدى الشهور الثلاثة الأولى، أخطِّط ألَّا أفعل شيئًا، سوى أن أفكِّر''. قد لا يستطيع

أغلبنا ألّا يحمل أيَّة مسؤوليَّة مدَّة ثلاثة شهور، إلّا أنَّنا جميعًا يُمكننا أن نفكِّر. التفكير هو أصعب عمل يمكن أن نمارسه، ومن أهمِّ تلك الأعمال.

خطوة أُخرى يمكن أن تفتح الطريق نحو بساطة القلب هي التزام قاعدة متَّفق عليها. رُبَّما يكون عهد الزواج المثالَ الأوضح على ذلك. فكِّر في مقدار القرارات المكلفة والمؤلمة التي نتجنَّبها بسبب التزام ذلك العهد. لا تفكير في الطلاق، لا تفكير في خياراتٍ أفضل– فيصبح الزواج **قرارًا** بأن نُحبَّ ونعتزَّ بعضنا ببعض حتَّى الموت. يمكن أيضًا أن تسهِم الالتزامات المادِّيَّة في البساطة. مثلًا، قرَّرنا، أنا وكارولين، كم سنُنفق شهريًّا على التسلية. هذا الالتزام البسيط يخفِّض كثيرًا من التوتُّر والضغوط بخصوص اتِّخاذ القرارات. لقد وضعتُ حدًّا لعدد فرص الوعظ التي سأقبلها، وهذا سيسمح لي بالحفاظ على التزاماتي الأُخرى بأمانةٍ واستقامة. وعندما أصلُ إلى هذا الحدِّ، فإنَّني أرفض بسرعةٍ عجيبة، حتَّى ما يُعدُّ ''فرصًا عظيمة''؛ لأنَّني أشعر بأنَّ الله هو الذي دعاني إلى وضع ذلك الحدّ. لقد أُنقذتُ من إحباطات عظيمة والتزاماتٍ زائدة عن الحدِّ بواسطة قاعدة بسيطة هي ألَّا أقبل ارتباط وعظٍ أو تعليمٍ **بتاتًا** بواسطة الهاتف، وإنَّما بالرسائل المكتوبة؛ فريثما تصلُ الرسالة، تكون حماستي قد خفَّت إلى حدودٍ واقعيَّة. الأمُّ والأب اللذان يقرِّران أن يبقيا في البيت حتَّى يصل الأولاد إلى سنِّ المدرسة يتخلَّصان من الكثير من الحَيرة بشأن هذه الوظيفة أو تلك. ليست هذه الأنماط التي نُقرِّرها مثاليَّة بالتأكيد، ويُمكن أن نتجاوزها في بعض الأحيان، لكنَّها على العموم تساعدنا كثيرًا في تخفيض حجم القلق والحَيرة عند اتِّخاذ القرارات.

من بين كلِّ الفضائل، البساطة هي الأكثر جاذبيَّة؛ لأنَّها تحقِّق لنا قدرًا من الالتئام الداخليّ. يؤكِّد فرانسوا فينلون (François Fénelon) ذلك قائلًا: ''كم هي جذَّابة تلك البساطة! مَن يُعطيني إيَّاها؟ إنَّني مستعدٌّ للتخلِّي عن كلِّ شيء من أجلها. إنَّها لؤلؤة الإنجيل''.[١٦]

٦

البساطة الداخليَّة: الطاعة المقدَّسة

ثمر الطاعة المقدَّسة هي بساطة أولاد الله.

توماس كيلي (Thomas Kelly)

يتكلَّم تي. أس. إليوت (T. S. Eliot) عن المسيحيَّة بوصفها: ''حالة من البساطة التامَّة (لا تكلِّف أقلَّ من كلِّ شيء)''.[١] الطاعة المقدَّسة مختومة بالسعر الضخم هذا. الطاعة المقدَّسة هي ذلك الجوع الذي لا يَشبع إلى الله الذي يجعل الإنسان لا يرضى بأيِّ شيءٍ أقلَّ من اللؤلؤة كثيرة الثمن. الطاعة المقدَّسة هي أن يمارس الإنسان ذلك التخلِّي السعيد الذي يجعله يبيع كلَّ شيءٍ لكي يشتري ذلك الحقل. إنَّها طاعة إبراهيم المستعدِّ لأنْ يجيز سكِّينًا في ابنه الوحيد العزيز بناءً على صوت الربِّ. إنَّها هؤلاء الفتية العبرانيُّون الثلاثة الذين رفضوا السجود لتمثال الذهب. إنَّها دانيال الذي يفضِّل أن يموت على أن يتوقَّف عن الصلاة للإله الواحد الحقيقيّ.

الطاعة المقدَّسة هي العين البسيطة التي تغمر الشخصيَّة كلَّها بالنور. إنَّها نقاء القلب الذي يرغب في شيءٍ واحدٍ فقط– الصلاح. إنَّها الحياة المفتونة بالله التي تستطيع أن تقبل بالسهولة نفسها، الثروة والفقر، الجوع والوفرة، الصليب والشهرة، وذلك طاعةً لكلمة المسيح.

كان الدكتور غراهام سكروغي (Graham Scroggie)، وهو واعظٌ موهوب ينتمي إلى جيلٍ آخر، يعظ عن سيادة المسيح في مؤتمرٍ ضخم في كيسويك (Keswick) في إنكلترا. وبصفته واعظًا مفوَّهًا، كان يتكلَّم بقوَّة. وبعد أن غادر الجمع، رأى شابَّةً جامعيَّةً جالسةً بمفردها فذهب إليها، متسائلًا إن كان يستطيع مساعدتها. قالت الفتاة: ''آه يا دكتور سكروغي، لقد كانت عظتك الليلة آسرة لكنَّني أخشى أن أجعل المسيح بالفعل سيِّدًا على حياتي خوفًا ممَّا قد يطلبه منِّي!''. وبحكمة، فتح غراهام سكروغي كتابه المقدَّس المهترئ على قصَّة بطرس في يافا، عندما علَّمه الله درسًا بشأن التمييز الثقافيِّ والعِرقيِّ الذي كان يمارسه. ثلاث مرَّاتٍ، أنزل الله إليه ملاءة ملآنة بحيواناتٍ غير طاهرة لليهوديَّة القويمة وقال: ''قُمْ يا بُطرُسُ، اذبَحْ وكُلْ''. وكان ردُّ بطرس ثلاث مرَّات: ''كلَّا يا رَبُّ!''. وبرقَّةٍ قال د. سكروغي: ''من الممكن أن تقولي «لا» ومن الممكن أن تقولي «يا ربّ». لكنَّه ليس من الممكن أن تقولي «لا، يا ربّ». سأترك كتابي المقدَّس معك وهذا القلم وسأذهب إلى غرفةٍ أُخرى وأُصلِّي من أجلك، وأريدك أن تشطبي إمَّا على كلمة «لا» أو على كلمة «ربّ»''. ثُمَّ ذهب، وبينما كان يصلِّي، شعر أنَّ الأمر قد حُسِم، فعاد مرَّةً أُخرى إلى القاعة. كانت الفتاة تبكي بهدوءٍ، ونظر سكروغي إلى الكتاب المقدَّس من فوق كتفها، فوجدها قد شطبت كلمة ''لا''. وبهدوءٍ قالت: ''هو الربُّ، هو الربُّ، هو الربّ''. هذه هي المادَّة الخام للطاعة المقدَّسة.

الذهاب إلى الأعمق

يجب أن نكون أكثر تحديدًا وواقعيَّةً بشأن موضوع الطاعة المقدَّسة، وإلَّا فإنَّها ستظلُّ دائمًا ضربًا من المثاليَّة التقَويَّة لا تؤثِّر

كثيرًا في الطريقة التي نحيا بها. كتب مايستر إكهارت (Meister Eckhart): ''يوجد كثيرون مستعدُّون أن يتبعوا الربَّ في النصف الأوَّل من الطريق، ولكن ليس في النصف الثاني. يمكن أن يتخلَّوا عن الممتلكات والصداقات وصُور الكرامة المختلفة، لكن يظلُّ من الصعب عليهم أن يتخلَّوا عن أنفسهم''.[٢] عندما نعبر الخطَّ الفاصل ونغامر بدخول النصف الآخر، فإنَّنا نجد أنفسنا في أرض الطاعة المقدَّسة. أن نتخلَّى عن أنفسنا، وأن نحيا في فرح إنكار الذات، فذلك هو النصف الآخر الذي كثيرًا ما نتراجع عنه. أعلن يسوع: ''مَنْ أرادَ أنْ يأتيَ ورائي فليُنكِرْ نَفسَهُ ويَحمِلْ صَليبَهُ ويَتبَعني'' (مرقس ٨: ٣٤). إنَّ إنكار الذات مطلبٌ قاسٍ؛ إذ نفضِّل كلمات أكثر راحة مثل ''تحقيق الذات'' أو ''إدراك الذات''. للأسف، فإنَّ إنكار الذات مرتبطٌ في أذهاننا بصورٍ عدَّة من كراهية النفس. ونتخيَّل أنَّه لا بُدَّ أنَّها تعني احتقار النفس وغالبًا ما تؤدِّي إلى صُور متنوِّعة من إماتة النفس.

لكنَّ ما فشلنا في رؤيته هو تلك المفارقة المدهشة: أنَّ تحقيق الذات الحقيقيَّ لا يأتي إلَّا بإنكارها. لا توجد طريقةٌ أُخرى. والطريقة المؤكَّدة للفشل في تحقيق الذات هي السعي خلف ذلك التحقيق. ''مَنْ وجَدَ حَياتَهُ يُضيعُها، ومَنْ أضاعَ حَياتَهُ مِنْ أجلي يَجِدُها'' (متَّى ١٠: ٣٩).

إنَّه لعجيبٌ ذلك الإنكار للذات بواسطة الرؤية المستمرَّة للقدُّوس. إنَّنا نجد أنفسنا مندفعين نحو شيءٍ أكبر كثيرًا منَّا وأكثر حقيقيَّةً من وجودنا الهشّ. إنَّ ذلك الوعي الملتهب بالله يحرِّرنا من الوعي الزائد بالنفس. إنَّها حُرِّيَّة. إنَّه فرح. إنَّها الحياة.

هذه السمة ضروريَّة جدًّا للوصول إلى البساطة الحقيقيَّة، ومهما أكَّدتُها، فلن أفيها حقَّها. إنَّها الأمر الوحيد الذي يمكِّننا أن نضع مصالح الآخرين فوق مصالحنا الشخصيَّة، وينقذنا من الشفقة على النفس. إنَّها ترفع من على كاهلنا عبء القلق بشأن حصولنا على الصورة الاجتماعيَّة المناسبة، وتحرِّرنا من قيد التأثُّر المبالغ فيه بآراء الآخرين.

لم يكتب أحد بحماسةٍ أشدَّ أو بدقَّةٍ أكبر عن العلاقة بين التخلِّي عن الذات والبساطة، مثلما كتب كبير أساقفة كامبراي (Cambrai) فرانسوا فينلون (François Fénelon)؛ ففي كُتيِّبه الحسَّاس بعنوان ''**الكمال المسيحيّ**'' *(Christian Perfection)* يحدِّد ثلاث مراحلٍ نعبرها في طريقنا نحو بساطة نسيان الذات.

تتضمَّن المرحلة الأولى تحرير أنفسنا من ''إدمان'' الأمور المادِّيَّة أو الخارجيَّة، والبدء أن نكون حسَّاسين للأمور الروحيَّة، لا سيَّما حالتنا الداخليَّة. ولا تبهرنا في ما بعد الأمور الخارجيَّة والسطحيَّة. لا تعود المباني الجميلة والميزانيَّات المتضخِّمة والبرامج البرَّاقة تحرِّك فينا شيئًا. إنَّنا نتخلَّى عن كلِّ البرامج والأنظمة البشريَّة الخارجيَّة لتحقيق عمل الله. وينجذب انتباهنا أكثر إلى عمل روح الله الداخليِّ، حيث نصبح مهتمِّين أكثر بعمل الله في أعماق النفس البشريَّة. إنَّها خطوةٌ جيِّدةٌ وصحِّيَّة، لكنَّها منحصرة في النفس بصورةٍ عميقة، وما تزال بعيدةً عن البساطة الحقيقيَّة. ''إنَّها محبَّة حكيمة للنفس، تلك التي تريد لها الخروج من الانشغال الزائد بالأمور الخارجيَّة''.[٣]

في المرحلة الثانية نتحرَّك بعيدًا من الانشغال التامِّ بأنفسنا وبمصيرنا الأبديِّ إلى أن نُصبح راسخين في مخافة الربّ. إنَّها خطوة إلى الأمام لكنَّها، كما يقول فينلون: ''بداية ضعيفة للحكمة الحقيقيَّة''، حيث إنَّنا ما نزال عندئذٍ ''مستغرقين في أنفسنا''.[٤] في هذه المرحلة، لا يكفي أن نخاف الله، بل يجب أن نكون **متيقِّنين** أنَّنا نخافه ونخاف ألَّا نخافه. في هذه المرحلة، يكون لدينا نوعٌ من الإصرار الصارم على طاعة الله. نعود باستمرارٍ إلى مراجعة سلوكنا الشخصيِّ لنرى ما إذا ظلَّت هناك بقايا من الكبرياء والطمع. في هذه المرحلة، يكون لدينا اشتياقٌ كبير إلى التواضع، ونعمل بكلِّ قوَّتنا للوصول إليه. وهناك حساسيَّة شديدة للخطيَّة الداخليَّة، وشعور قويٌّ بالتوحُّد بالقدِّيس بولس الرسول، الذي يشعر، بغضِّ النظر عمَّا فعله

الآخرون، في أعماق كِيانه أنَّه كان ''أوَّل الخُطاة'' (١تيموثاوس ١: ١٥).

هذه المرحلة هي مرحلة من الأمانة والإخلاص الكبيرَين، لكنَّها ليست البساطة الحقيقيَّة. ويقول فينلون: ''إنَّ الإخلاص فضيلة أدنى من البساطة''.[٥] ومن السهل إدراك السبب. المُخلِص لديه اهتمامٌ عميقٌ بالأمانة والحقِّ والاستقامة، والضمير اليقظ، والكمال الأخلاقيِّ– كلُّ هذه الصفات تميِّز الإنسان المُخلِص. مع أنَّ كلَّ هذه فضائلُ عظيمة، فإنَّها تتميَّز بشيء من الوعي بالنفس: أن يهتمَّ الإنسان بفعل الصواب، وأن يكون على صواب، وأن يبدو على صواب. ويقول فينلون عن المسيحيِّ المُخلِص: ''يدرسون أنفسهم دائمًا، ويراجعون كلماتهم وأفكارهم وأفعالهم، ويخافون أن يكونوا قد قالوا أو فعلوا أكثر ممَّا ينبغي''.[٦]

المُخلِصون ليسوا بعدُ بسيطين. إنَّ لدى المُخلِصين ذلك النوع من الحماسة المصطنعة التي تجعل من حولهم يشعرون بعدم الراحة، رغم أنَّه لا أحد يستطيع الاعتراض على فضائلهم. وهذا يُقلِقنا لأنَّهم يبدون روحيِّين جدًّا، وشديدي التصميم أن يعرفوا الربَّ، فنتساءل إن كان عدم راحتنا ناشئًا من مقاومتنا لله وطريقه. لكنَّ الحقيقة أنَّ عدم راحتنا في الأغلب يكون نابعًا من حقيقة أنَّ هؤلاء الأشخاص شديدِي الالتزام والتكريس يحاولون بكلِّ قوَّة، لكنَّهم يفتقرون إلى البساطة والسهولة والحُرِّيَّة والطبعيَّة التي تميِّز البساطة الداخليَّة. إنَّنا نفضِّل الأشخاص الأقلَّ كمالًا الأكثر راحةً مع أنفسهم.

يجب عدم احتقار هذه المرحلة في المسيرة الروحيَّة. إنَّها، بصورةٍ ما، ضروريَّةٌ في مسيرتنا إلى الله. في الشركة المسيحيَّة مع الآخرين، يجب أن يكون هناك قدرٌ كافٍ من النعمة والراحة يسمحان لإخوتنا وأخواتنا ولأنفسنا بالمضيِّ قُدُمًا في هذه الخبرات. كما أنَّنا يجب ألَّا نستعجل الناس لكي يعبروا هذه المرحلة بسرعة. إنَّ من يَرون السلام والحُرِّيَّة النابعَين من المحبَّة البسيطة، كثيرًا ما يحاولون أن يدفعوا أنفسهم (وكلَّ من حولهم) نحوها قبل أن يكونوا مستعدِّين لذلك بالفعل. هذا خطأٌ جسيم. كما يقول واعظ الجامعة الحكيم، إنَّ لكلِّ شيءٍ تحت السماء وقتًا وموسمًا، ويجب أن يكون هناك وقتٌ كافٍ للصراع الداخليِّ والتوبة. وعندما يأتي الوقت المناسب، فإنَّ الروح تتغذَّى على خبز الفحصِ الذاتيِّ الأمين، إذ يوجد مكانٌ مناسبٌ للاضطراب الداخليِّ والفحص الدؤوب. وقد شهد الأخ لورنس عن عشر سنواتٍ من ذلك الاضطراب الداخليّ.[٧]

وبعد أن حذَّرتُ من التعجُّل في عبور هذه المرحلة، يجب أن أسارع لأضيف أنَّنا يجب ألَّا نكون متعلِّقين أكثر من اللازم بهذه المرحلة، لأنَّنا نزلاء وغرباء في الأرض، وليس لنا أن نؤسِّس مسكنًا دائمًا فيها. الراحة في وسط الصراع هي الميراث الشرعيُّ لأبناء الملكوت (عبرانيِّين ٤). عندما يبدأ الله في أن يفتح أمامنا طريق شيءٍ أكثر نقاءً، يجب أن نتبعه مباشرةً ولا نضيِّع الوقت في النظر إلى الوراء.

وبينما نتحرَّك إلى الأمام، يقودنا الله إلى المرحلة الثالثة، التي يصبح فيها انتباهنا متوجِّهًا أكثر فأكثر إلى المركز الإلهيّ. ''في هذه المرحلة، نفكِّر في الله أكثر ممَّا نفكِّر في أنفسنا. وبعدم اكتراثٍ، نميل إلى نسيان الذات لكي نصبح أكثر اهتمامًا بالله في محبَّةٍ خاليةٍ من المصلحة الذاتيَّة''.[٨]

من فضلك افهمني، هذا ليس تدميرًا للنفس أو فقدانًا للشخصيَّة الفرديَّة لنوعٍ من أنواع ''الوعي الكونيّ''، بل هو اكتشاف النفس الذي يتحقَّق بالتركيز على خالقها. إنَّه فقدان النفس لكي نجدها. فقط بهذه الطريقة يمكن أن تزهر وتزدهر الذات الحقيقيَّة.

هذه المرحلة الثالثة هي فضيلةٌ مدهشة، وأمرٌ سامٍ. إنَّها جاذبيَّة طبيعيَّة وغنى متواضع من البساطة. نحن نُعجَب بالأشخاص الذين يسيرون بهذه الطريقة، ونستمتع بصحبتهم. فقد اختفى سلوكهم القسريُّ وبرُّهم اللزج. هل تعرف تلك

الحُرِّيَّة العجيبة الجديدة التي تجلبها البساطة؟ لا يوجد في ما بعد الانشغال الخانق بأنفسنا، بل توجد نِعَمٌ محرِّرةٌ تدفعنا إلى الاهتمام العميق باحتياجات الآخرين. والأروع من كلِّ ذلك أنَّنا نستطيع أن نضع عن أكتافنا الحِمْلَ الساحق لآراء الآخرين. يشهد فينلون قائلًا: ''بهذه النقاوة القلبيَّة، لا نضطرب في ما بعد بشأن ما يقوله الآخرون عنَّا أو يعتقدونه فينا، إلَّا أنَّنا بدافع المحبَّة نتجنَّب أن نصدمهم''.[9] لسنا **مضطرِّين** لأنْ ننالَ إعجابَ الجميع. ولسنا **مضطرِّين** إلى النجاح. يمكننا أن نستمتع بالمجهوليَّة وبالشهرة سواءً بسواء.

إنَّنا عندئذٍ نحصل على حُرِّيَّة غريبة لكي نتكلَّم عن أنفسنا بطريقةٍ طبيعيَّةٍ ودون تكلُّف. وأقول ''غريبة'' لأنَّ أغلب الناس يفترضون أنَّ مَن هم غير منحصرين في أنفسهم، لا يتكلَّمون عن أنفسهم بتاتًا. ينتمي هذا التوجُّه إلى مرحلةٍ سابقةٍ كنَّا فيها، حيث نحاول بدافعٍ من التواضع الزائف أن نخنق أيَّ شيءٍ يمكن أن يُعدَّ كبرياء. كنَّا نخاف أن نبالغ في الكلام. وعندما نذكر مِثالًا أو كلمةً عن أنفسنا في الحوار، فإنَّنا سرعان ما نقلق ونشكُّ إن كانت بدافع الكبرياء. فنقرِّر أنَّنا لن نتكلَّم عن أنفسنا مرَّةً أُخرى، سواء عن إنجازاتنا أم إخفاقاتنا، لئلَّا نكون، في أيَّة حالة من الحالتَين، مركزًا للانتباه. في مواقفٍ عدَّة، كثيرًا ما تكون هذه مشورةً جيِّدةً، لكنَّها في واقع الأمر نوعٌ من التواضع المتكلِّف، على عكس البساطة الحقيقيَّة. ومع الوقت، فإنَّنا نجد أنفسنا نسترخي أكثر، ونصبح قادرين أن نتكلَّم عن أنفسنا بدرجة الصراحة نفسها التي نتكلَّم بها عن الآخرين. يكتب فينلون: '' تتضمَّن البساطة عدم وجود أيِّ خزيٍ خاطئٍ أو تواضعٍ زائف''.[10]

كان الرسول بولس يختبر هذه الحُرِّيَّة لدرجةٍ مذهلة. كان يستطيع مثلًا أن يؤكِّد جنسيَّته الرومانيَّة ونَسَبه العبرانيَّ عندما يحتاج إلى ذلك. ويستطيع أن يفتخر بآلامه الكثيرة من أجل قضيَّة المسيح: الضربات والرجم وانكسار السفن به في عرض البحار، والليالي التي قضاها بلا نوم والجوع والعطش (٢كورنثوس ١١: ٢٤–٢٩). جَاهَرَ أيضًا بأنَّه تسلَّم إرساليَّته وتعليمه من المسيح فقط، حتَّى إنَّه اختلف مع بطرس بشأن تمسُّكه بثقافة المسيحيَّة اليهوديَّة (غلاطِيَّة ١، ٢). لقد كان يشعر بالحُرِّيَّة وعدم التكلُّف حتَّى إنَّه استطاع بشجاعةٍ أن يحثَّ المؤمنين أن يكونوا متمثِّلين به، كما هو بالمسيح (١كورنثوس ١١: ١).

هذه لغةٌ لا يجرؤ أحدٌ منَّا أن يتكلَّم بها. إذا جاءت على ألسنتنا، فستبدو كأنَّها أعلى درجات الكبرياء والصَّلَف، وغالبًا ما تكون كذلك بالفعل. لكنَّ الرسول بولس كان متجاوزًا لهذا الإعجاب الساذج بالنفس. لقد تجاوز ذلك منذ وقتٍ طويل. إنَّ الإعداد الخفيَّ الذي عمله الله في حياة بولس غيَّر هذا الإنسان بالتمام. فنحن لا نستطيع أن نفهم الأشياء التي قالها بولس والحياة التي عاشها إلى أن ندرك أنَّه قد تخلَّى عن كلِّ الطرق البشريَّة الصغيرة التي يُعظِّم الناس بها أنفسهم. بلا مبالغة، كان يستطيع أن يسمِّيها كلَّها ''نفاية'' لأنَّه كان يعيش في قوَّةٍ أعظم. وعندما نرى أنفسنا نصارع بشِدَّة من أجل تلك ''النفاية''، فإنَّنا يمكن أن نكون واثقين تمامًا بأنَّنا نعرف القليل عن هذه التي يسمِّيها ''قوَّةَ قيامَتِهِ، وشَرِكَةَ آلامِهِ، مُتَشَبِّهًا بموتِهِ'' (فيلبِّي ٣: ١٠). لقد عرف الرسول بولس معنى أن يكون حُرًّا من نفسه. يا لها من حُرِّيَّةٍ نحتاج إليها اليوم!

على مدى التاريخ، كانت هناك تقاليدُ تنصحنا بصورةٍ أو بأُخرى أن نستخدم لغة نحطُّ بها من أنفسنا لكي نتحكَّم في الكبرياء. نستطيع أن نرى هذا المَيل في بعضٍ من الممارسات الزهديَّة النسكيَّة في العصور الوسطى، لكنَّها موجودة الآن أيضًا في ما أسميته في بعض الأحيان ''لاهوت الدودة'' الذي لسان حاله: ''من دون الله، أنا لا شيء، أنا بلا فائدة، أنا دودة!''. مهما كانت صِحَّة هذه العبارات لاهوتيًّا، فإنَّني بأمانة أشكُّ أنَّ لها قيمة كبيرة من حيث نموُّ إنكار الذات. أعتقد أنَّ فينلون أحكم من ذلك بكثير، لا سيَّما عندما قال: ''محبَّة النفس تفضِّل أن تنجرح على أن تتعرَّض للتجاهل والصمت''.[11] لعلَّ الصمت هو أفضل وسيلةٍ للتعامل مع محبَّة الذات.

في البساطة، نتحرَّر ونعطي الحُرِّيَّة للآخرين أن يتكلَّموا عنَّا عندما يكون ذلك مناسبًا. ما زلتُ أتذكَّر اليوم الذي كنتُ فيه مع مجموعة من الأصدقاء وقدَّم أحدهم إطراءً مُخلِصًا عنِّي. وبتواضعٍ منحصرٍ في النفس، احمرَّ وجهي وتنحنحتُ وتلعثمت، وحاولتُ أن أقلِّل من قيمة ما قال. عندها نظر أحد الأصدقاء الفهماء في المجموعة مباشرة في عينيَّ وقال: ''فوستر، إنَّك لا تعرف أن تتلقَّى مديحًا، أليس كذلك؟''. كانت هذه نقطة تحوُّل لي. وأدركتُ أنَّ المديح إذا كان مقدَّمًا بصدقٍ وأمانةٍ وليس فقط للإبهار، يجب أيضًا أن يُستقبَل بجِدِّيَّة. ليس لديَّ الحقُّ أن أُهين الناس برفض عطيَّة محبَّتهم. وطوال السنين، منذ تلك الواقعة، أعطاني الله قدرًا من الحُرِّيَّة في هذا الشأن، ويا لها من حُرِّيَّة مفرحة.

في كلِّ هذا، نستطيع أحيانًا أن نحصل على الانطباع الخاطئ أنَّنا نتقدَّم إلى الأمام دون توقُّف. حتَّى استخدامُ تعبير ''مراحل'' يمكن أن ينقل الانطباع أنَّنا نترك مستوًى لنصل إلى مستوًى أعلى، ولا نعود مرَّة أُخرى إلى المستوى السابق. لكنَّني لم أختبر الأمر هكذا. إنَّ خِبرتي كانت تتميَّز بالمزيد من التموُّج والتقدُّم إلى الأمام وإلى الخلف. يمكن أن أختبر يومًا وعيًا حميمًا بحضور المسيح بصورةٍ قريبة وعجيبة، وفي اليوم التالي يمكن أن أكون في ''مستنقع القنوط'' بحسب تعبير جون بَنيَن (John Bunyan) في ''**سياحة المسيحيّ**''*** (The Pilgrim's Progress). يمكنني أن أتراوح بين الخضوع الوديع والتمرُّد العنيد بسرعةٍ عجيبة. كثيرون من معلِّمي الروحانيَّة يسجِّلون خبراتٍ مشابهة. إنَّ هذه المراحل ليست جامدة وسريعة. هناك الكثير من التحرُّك إلى الأمام وإلى الخلف، إلى أعلى وإلى أسفل.

لكنَّها أيضًا ليست مثل قطار الملاهي الذي يصعد إلى أعلى ارتفاع ثُمَّ يسقط إلى أسفل أسافل الأرض، لأنَّه في أثناء كلِّ التحرُّكات، يوجد إحساسٌ عامٌّ بالتقدُّم والنموّ. بالتدريج يتحوَّل التواصل المتقطِّع إلى شركةٍ مستمرَّة. وحيث كانت الصعوبة في البداية هي طلب وجه الله، تصبح الصعوبة بعد ذلك، التوقُّف عن ذلك. وبيقينٍ، لكن ببطء، وبالكثير من التقهقر والتقدُّم، تتحوَّل معرفة الله من التزامٍ إلى بهجة. ورغم أنَّنا في مرَّاتٍ كثيرة لا ننتبه إلى الهمس المقدَّس الذي يهمس به الله في قلوبنا، فإنَّنا نصبح قادرين على ذلك أكثر فأكثر. ونصبح أقلَّ إحباطًا عندما نضلُّ الطريق ونتيه في البرِّيَّة، لأنَّنا، إذ اختبرنا أرض الموعد، نرغب فيها أكثر فأكثر. وبقدر ما نغازل الحياة ذات الرأيَين، فإنَّ حبَّنا الحقيقيَّ هو وحدانيَّة الهدف والقصد، التي تتملَّك أكثر فأكثر من قلوبنا. إنَّنا لا نستطيع إلَّا أن ننجذب نحو هذا الأسلوب من الحياة عندما نقرأ الكلمات الجذَّابة لمعلِّمنا فرانسوا فينلون حيث يكتب: ''عندما نصبح بحقٍّ في تلك البساطة الداخليَّة، فإنَّ مظهرنا الخارجيَّ يصبح بالكامل أكثر صراحةً ويكون طبيعيًّا أكثر. هذه البساطة الحقيقيَّة...تجعلنا واعين لنوعٍ خاصٍّ من الانفتاح والوداعة والبراءة والمرح والسكينة، فتسحرنا عندما نراها بعيونٍ طاهرة نقيَّة''.[١٢]

الفرح هو العلامة المميَّزة

هل يبدو لك كلُّ ذلك صعبًا؟ رُبَّما تقول لنفسك: ''كنتُ أظنُّ أنَّني على ما يرام إذ وصلتُ إلى المرحلة الأولى، والآن أكتشفُ أنَّها القاع الذي يجب أن أتحرَّك منه إلى أعلى. يبدو لي الأمرُ جهدًا أكثر من اللازم''. نعم، هو جهدٌ، لكنَّه في الوقت ذاته ليس كذلك. فما إنْ نبدأ، فإنَّنا نكتشف أنَّ هناك مَن يعمل بالنيابة عنَّا، ويحمل أكبر قدرٍ من الحِمْل. إنَّه النير الهيِّن والحِمْل الخفيف الذي تكلَّم عنه يسوع.

في واقع الأمر، ليست هذه الحالة أمرًا يُمكن أن نحقِّقه بقمع الإرادة وصرير الأسنان. هناك بالتأكيد أمورٌ علينا أن نفعلها، كما سنرى لاحقًا، لكنَّها تميل أكثر إلى أن تكون المسير خلف القائد بدلًا من اكتشاف الطريق بأنفسنا. إنَّ في الأمر نوعًا من التسليم، الحياة من منطلق المفعول به أكثر من الفاعل. يقدِّم فينلون هذه الملاحظة في هذا الصدد: ''كلَّما صارت

النفس هادئةً ومستسلمةً لكي تُحمَل بلا مقاومةٍ أو تأخير، تقدَّمَت في البساطة''.[١٣]

عادةً ما أقضي الوقت مع الناس الذين يتمتَّعون بالضمير اليقِظ والرغبة الشديدة في الاقتراب من الله. وفي بعض الأحيان، أحتاج لأن أقدِّم لهم النصيحة أن يسترخوا ويتوقَّفوا عن محاولة أن يكونوا متديِّنين. في أثناء وقت تدريسي في الجامعة، أذكُرُ ذات مرَّةٍ ذلك الطالب الذي كان يصارع ويصلِّي بحرارةٍ، لكنْ دون فرح، بشأن مسألة شخصيَّة. وقد صُدِم عندما قلت له: ''من فضلك، توقَّف عن الصلاة، أنت تعمل على الأمر بشدَّة أكثر من اللازم. فلْأُصلِّ أنا من أجلك''. عبارة بسيطة، لكنَّها أطلقته حرًّا بصورةٍ مدهشة.

الفرح، وليس الإصرار، هو العلامة المميَّزة للطاعة المقدَّسة. إنَّنا نحتاج إلى توجُّهٍ بسيطٍ ولطيفٍ تجاه ما نفعله لئلَّا نأخذ أنفسنا بجِدِّيَّةٍ أكثر من اللازم. إنَّ البساطة ثورةٌ بهيجةٌ ضدَّ الذات والكبرياء. إنَّ هذا العمل يجب أن يكون عملًا سعيدًا ومرحًا ومسترخيًا. كما أنَّ الاستسلام التامَّ لله يجب أن يجري بحُرِّيَّةٍ واحتفال. وهكذا فإنَّني أوصيك أن تستمتع بهذه الخدمة- خدمة تسليم الذات. لا تدفع نفسك بشِدَّة أكثر من اللازم. تمسَّك بهذا العمل بخِفَّةٍ وابتهاج.

شهِد القدِّيسون على مدار العصور عن تلك الحقيقة. تذكَّرِ القدِّيس فرنسيس، ذلك القدِّيس الفقير الصغير من أسيزي، المنتشي بمحبَّة الله. لقد عاش هؤلاء الفرنسيسكان الأوائل في الطاعة المقدَّسة بأكبر قدرٍ من الاستسلام الحيويِّ والمسرور. لقد عاشوا متهلِّلين ومستغرِقين في العلاقة بالله، يغمرهم السلام والنعمة الإلهيَّين. وجوليانا النورويتشيَّة (Juliana of Norwich) في كتابها الجميل ''**إعلانات المحبَّة الإلهيَّة**'' *(Revelations of Divine Love)* قالت: ''لقد امتلأتُ بالسرور والأمان والبركة والقوَّة، حتَّى إنَّني لم أضطرب لأيِّ شعورٍ بالخوف أو الحزن، أو الألم الجسديِّ أو الروحيِّ الذي يمكن أن يعانيه الإنسان''.[١٤] وكتب بلايز پاسكال: ''يقين. يقين. شعور الفرح. سلام. نسيانٌ للعالم وكلِّ شيءٍ سوى الله...فرح، فرح، فرح، دموع فرح''.[١٥] وهكذا تتوالى الشهادات عبر الأجيال.

أنت تعلم بالتأكيد أنَّهم لا يتكلَّمون عن فرحٍ سطحيٍّ سخيف مثل ذلك الفرح الشائع في العالم المعاصر. لا، إنَّه فرحٌ عميقٌ يتردَّد صداه داخل النفس بعد أن شكَّلته نيران الألم والمعاناة والحزن– فرحٌ في أثناء الصليب، وفرحٌ بسبب الصليب.

التواضع

من بين كلِّ الفضائل اللاهوتيَّة، التواضع هو الفضيلة التي يرغب فيها الجميع. لا أحد يستمتع بمَن هم مستغرِقُون في أنفسهم. الكبرياء والاعتداد الزائد بالنفس من الأمور الكريهة. وعلى الجانب الآخر، يتمتَّع التواضع الأصيل باللطف الممتع والجذَّاب للجميع. هناك تلقائيَّة جميلة في التواضع يقدِّرها الجميع. لكنَّ التواضع، مثلما أنَّه مطلوبٌ، فإنَّه أيضًا صعب المنال. نعلم كُلُّنا أنَّه لا يمكن الحصول على التواضع بمحاولة الوصول إليه. فكلَّما حاولنا أن نكون متواضعين، ابتعدنا عن التواضع. وعندما نظنُّ أنَّنا وصلنا إلى التواضع، فهذا دليل أنَّنا لم نفعل. لكنَّ هناك طريقًا يمكن به للتواضع أن يكون جزءًا من منظومة عادات حياتنا. الطاعة المقدَّسة تفتح الباب. إنَّها وسيلة محوريَّة يمكن أن تحقِّق نعمة الله بها التواضع في حياتنا.**** وليس صعبًا أن نرى حدوث ذلك. فعندما تمتلئ رؤيتنا تمامًا بالقدُّوس، تنكمش الأنانيَّة الزائفة وتهرب بعيدًا، فيُخلِّصنا الوعي المستمرُّ بالله من الوعي الزائد بالنفس. يكتب توماس كيلي: ''يستقرُّ التواضع على العمى المقدَّس، مثل العمى الذي يصاب به من ينظر إلى الشمس مباشرة؛ لأنَّه عندما يعود بنظره إلى الأرض، فإنَّه لا يرى إلَّا الشمس. النفس العمياء عن كلِّ شيء سوى الله لا ترى ما يخصُّها، لا انحلالها، ولا بروزها، بل فقط إرادة القدُّوس''.[١٦]

هذه أخبارٌ رائعة للمؤمن بالمسيح. فكم من مرَّةٍ تشوَّقنا إلى التحرُّر من الاعتداد بالنفس والكبرياء المسيطرة! كم من الألم غير الضروريِّ تحمَّلنا لأنَّه لم يلحظ وجودنا أحد! إنَّنا ننتفخ ونتباهى لكي نحصل على بعض الانتباه ثُمَّ نعود ونلوم كبرياءنا. وبحزنٍ، نرى تواضع الآخرين ونتألَّم عندما نرى السهولة والحُرِّيَّة التي نفتقر إليها. كم رغبنا أن نطيع الكلمة المقدَّسة، ونتحلَّى بفكر المسيح، الذي (مع أنَّه ابن الله) لم يحسبْ خلسةً أن يكون معادلًا لله بل ''أخلَى نَفسَهُ، آخِذًا صورَةَ عَبدٍ، صائرًا في شِبهِ الناسِ. وإذ وُجِدَ في الهَيئَةِ كإنسانٍ، وضَعَ نَفسَهُ، وأطاعَ حتَّى الموتَ، موتَ الصَّليبِ'' (فيلبِّي ٢: ٧-٨).

كم من الرائع الآن أن نرى العلاقة بين التواضع والطاعة! يسوع ''وضع نفسه وأطاع''. هناك طريق نحو التواضع، وهو الطاعة. النفس التي يسيطر الله عليها تعرف فقط هدفًا واحدًا، ورغبة واحدة. ليس الله مجرَّد صورة في مجال رؤيتها، حيث تكون هذه الصورة في بعض الأحيان مهزوزة، وفي أحيانٍ أُخرى واضحة، لكنَّ الله هو رؤيتها نفسها. هذه النفس عينها بسيطة ترى شيئًا واحدًا، وجسدها كلُّه يصبح نيِّرًا. عندئذٍ، لا يكون للأنانيَّة موطئ قدم.

الخطوات الأولى

رُبَّما تشعر أنَّ أسلوب الحياة الذي تكلَّمنا عنه يمثِّل قفزةً كبيرة أبعد من خبرتك الحاليَّة. لست فقط تشعر بالغرابة، لكنَّك أيضًا تشعر بأنَّك في مكانٍ آخر تمامًا. قد تكون هذه مبالغة، لكن حتَّى إن كانت وصفًا دقيقًا لحالك، فإنَّك يجب ألَّا تُحبَط. لا يتحتَّم أن تكون متقدِّمًا في تفاصيل القداسة لكي تتحرَّك خطوة نحو الطاعة المقدَّسة. لا تحتاج حتَّى أن تعرف كلَّ المشكلات والعقبات. تحتاج فقط إلى شيءٍ واحد، وهو الرغبة أن تعرف الله وتسير معه. حتَّى إن لم تكن لديك هذه الرغبة الآن لكنَّك تتمنَّى أن تكون لك، فيمكنك أن تطلب من الله أن يضع فيك هذه الرغبة. في واقع الأمر، يمكن أن أذهب حتَّى إلى أبعد من ذلك فأقول إنَّ مجرَّد كونك تقرأ هذا الكتاب، فهذا يمكن أن يمثِّل ما يكفي من رغبةٍ تجعل الله يبدأ في أن يأتي بنعمة الطاعة المقدَّسة إلى حياتك.

لا تهبط الطاعة المقدَّسة على رؤوسنا من فوق. هناك أشياء يمكن أن نفعلها لتجذبنا نحو ذلك المكان المقدَّس. لذلك فإنَّني سأشارك بهذه ''الخطوات الأولى''. لكنَّني أُشارك بها فقط بصفتها اقتراحات في الاتِّجاه الذي نحتاج لأن نتحرَّك فيه، وليس بصفتها قوانين تشمل كلَّ الرحلة. باستطاعتك أن تثق بالله أن يجعل التعليم شخصيًّا لك؛ فهناك بعض الأشياء سيجعلك تتجاهلها، وبالتأكيد سيعلِّمك بعض خطوات شخصيَّة لم أذكُرها. فوق كلِّ شيء، اسعَ لأنْ تكون منتبهًا لمعلِّمك الحاليّ، الذي يعلِّمك سواء بهذه الكلمات أم بما يتخطَّاها.

الخطوة الأولى التي أريد أن أقدِّمها لك ليست أمرًا لتفعله. إنَّها أمرٌ تتوقَّف عن فعله. ببساطةٍ شديدة، يجب ألَّا تحاول أن تكون أقلَّ تمركزًا حول الذات؛ إذ تُفسِد هذه المحاولة نفسها بنفسها دائمًا. كلَّما حاولنا أن نكون أقلَّ اهتمامًا بأنفسنا، زاد وعينا بأنفسنا. ماذا نفعل إذًا؟ لا شيء. اترك الأمر يسقط من تلقاء ذاته. إنَّ الوعي بالذات هو أحد الأشياء في الحياة التي لا يمكن الانتصار عليها بالمواجهة المباشِرة. التركيز على المشكلة يضاعف من قوَّتها. سيجري الاعتناء بالأمر في الوقت المناسب، لكن هذا سيحدُث فقط إذا نسيناه وركَّزنا انتباهنا على أشياء أُخرى.

الخطوة الثانية مثل الأولى في أنَّها ليست خطَّة عمل بقدر ما هي دعوةٌ للتركيز وضبط بؤرة الرؤية: يجب أن ندرِّب أنفسنا أن ''نطلب أوَّلًا ملكوت الله''. يجب أن تأخذ هذه البؤرة الأولويَّة قبل كلِّ شيء. يجب ألَّا نسمح لشيءٍ آخر، سواء كان ذلك فعلًا أم رغبة، بأن يحتلَّ هذا المركز. لا يُمكن أن يكون إعادة توزيع الثروة العالميَّة في المركز، ولا الاهتمام بالبيئة، ولا يُمكن حتَّى أن تكون الرغبة في البساطة نفسها في المركز. في اللحظة التي يكون أيُّ شيءٍ من هذه الأشياء في بؤرة

اهتمامنا، نكون قد وقعنا في فخِّ الوثنيَّة. شيءٌ واحدٌ فقط يجب أن يكون في المركز: ملكوت الله. وفي واقع الأمر، فإنَّ ملكوت الله عندما يُوضَع أوَّلًا، فإنَّ كلَّ شيء سيأخذ مكانه السليم، سواء توزيع الثروة أم الاهتمامات البيئيَّة، أم الاهتمام بالفقراء أم بساطة الحياة. كلُّ الأشياء الضروريَّة ستجد مكانها الطبيعيّ. وفي تعليقٍ قويٍّ عن هذا العدد الكتابيِّ، تأمَّلَ الفيلسوف الدنماركيّ سورين كيركيغارد (SØren Kierkegaard) نوع الجهد الذي يجب على الإنسان أن يبذله لكي يطلب أوَّلًا ملكوت الله: أعلى المرء أن يحصل على عملٍ مناسبٍ لكي يكون له تأثيرٌ روحيّ؟ وكانت إجابته ''لا''؛ إذ يجب أن نطلب **أوَّلًا** ملكوت الله. ثُمَّ هل نوزِّع كلَّ مالنا لإطعام الفقراء؟ مرَّة أُخرى، الإجابة هي ''لا''؛ فيجب **أوَّلًا** أن نطلب ملكوت الله. حسنًا، لرُبَّما علينا أن نخرج ونكرز بهذه الحقيقة للعالم– حقيقة أنَّ الناس عليهم أن يطلبوا أوَّلًا ملكوت الله؟ مُجدَّدًا، الإجابة هي ''لا'' مدوِّية، لأنَّ علينا أن نطلب **أوَّلًا** ملكوت الله. ويختتم كيركيغارد الكلام بقوله: ''إذًا، بصورةٍ ما، ليس الأمر شيئًا سأفعله. نعم، بالتأكيد، بصورة ما، إنَّه لا شيء، وأن تصير لا شيءَ أمام الله، فقط تعلَّم أن تصمت؛ ففي هذا الصمت البداية، التي هي أن تطلب **أوَّلًا** ملكوت الله وبِرَّه''.[١٧]

لذلك فإنَّني أطلب إليك أن تهدِّئ كلَّ حركة ليس أساسها في ملكوت الله. لتكن هادئًا صامتًا بلا حركة حتَّى تجد نفسك في النهاية في المركز. تخلَّص من كلِّ الأوزان الزائدة وكلِّ ما ليس ضروريًّا حتَّى تصل إلى الحقيقة المركزيَّة، وهي ملكوت الله. تخلَّ عن كلِّ المشتِّتات حتَّى تصل إلى القلب. اسمَحْ لله بأن يعيد ترتيب أولويَّاتك ويتخلَّص من كلِّ ما لا لزوم له.

كتبت الأمُّ تيريزا من كالكوتا (Mother Teresa of Calcutta): ''صلُّوا من أجلي لئلَّا أتوقَّف عن التمسُّك بيد يسوع بقوَّة، تحت شعار خدمة الفقراء''.[١٨] هذه هي مهمَّتنا الأولى: أن نمسك بيد يسوع بشدَّة حتَّى نتبع قيادته ونطلب أوَّلًا ملكوت الله.

الخطوة الثالثة بسيطة جدًّا حتَّى إنِّي أكاد أكون مُحرَجًا لذكرها، لكنَّها مهمَّة فلا بدَّ أن أذكُرها. ابدأ الآن في أن تطيعه بكلِّ صورةٍ ممكنة. ابدأ حيث أنت، في وسط كلِّ المهامِّ التي تضغط عليك. لا تنتظر كي تصلَ إلى وقتٍ في المستقبل حين يكون لديك المزيد من الوقت أو أن تصبح أكثر اكتمالًا في المعرفة. كان الوالي الرومانيُّ فيلكس ينتظر أن ''يجد وقتًا مناسبًا''، لكنَّنا كلَّنا نعلم أنَّ الوقت المناسب الوحيد هو الآن. كتب كاتب العبرانيِّين محذِّرًا: ''اليومَ، إنْ سمِعتُمْ صوتَهُ، فلا تُقَسُّوا قُلوبَكُمْ'' (٣: ٧-٨). الآن وأنت تقرأ هذه الكلمات، اطلُب المزيد من نور المسيح. اطلُب **الشَّكينة**، حضور الله المجيد المُشرِق، الذي كان يملأ ذات يومٍ كرسيَّ الرحمة، أن يملأ قلبك. في كلِّ مهام يومك، اطلُب أن تعيش في تسليمٍ تامٍّ، واستماعٍ وطاعة.

فلأشاركك باختبارٍ بسيط قد يساعدك أن تفهم ما أقصد. حدث ذلك في وقت من السنة كنتُ فيه مشغولًا جدًّا. كنتُ أستعدُّ للسفر في عطلة نهاية الأسبوع لأعظ في ثلاث كنائس مختلفة. من ناحية الترتيب الماليِّ، كانت كلُّ كنيسة ستجمع عطاءً صغيرًا من أجلي بعدما أنتهي من عظتي. وبينما كنتُ أتأمَّل ما الذي يريدني الله أن أتكلَّم عنه في هذه الأيَّام، شعرتُ بانطباعٍ قويٍّ داخلي أنَّني يجب ألَّا أحصل على أيَّة عطيَّة من هذه الكنائس. صارعتُ لبعض الوقت مع هذا الإرشاد الإلهيِّ، حيث إنَّنا كنَّا نعتمد على هذه النقود لتسديد احتياجاتٍ ضروريَّة عدَّة. وقد كشف لي هذا الصراع طمعًا داخليًّا في قلبي ظننتُ أنَّني تحرَّرتُ منه منذ وقتٍ طويل. وفي النهاية، تأكَّدتُ أنَّ هذا ما عليَّ أن أفعله إن كنتُ أريد أن أكون مطيعًا. شاركتُ ذلك مع زوجتي؛ لأنَّني شعرتُ بأنَّنا يجب أن نكون متَّحدين في ذلك الأمر. فأطلقتْ المال بسهولةٍ أكثر منِّي، وقالت إنَّه قد يحتاج بعض الناس في هذه الاجتماعات لأنْ يعرفوا أنَّ خدَّام المسيح لا يستهدفون نقودهم.

قلتُ لرعاة الكنيستَين الأُولَيَين إنَّ أيَّ عطاءٍ سيُجمع يجب أن يعطى للفقراء أو يُستخدَم بالطريقة التي يرونها مناسبة. ورغم أنَّهما تعجَّبا من طلبي غير المعتاد، فإنَّهُما شعرا براحةٍ للفكرة. إلَّا أنَّني وصلتُ إلى الكنيسة الثالثة في الوقت الذي بدأ فيه الاجتماع، فلم تكن لي فرصة أن أشرح الأمر لراعي الكنيسة. لكنِّي شعرتُ براحةٍ عندما لم يجمعوا العطاء وظننتُ أنَّ الأمر انتهى.

كان الوقت متأخِّرًا عندما عُدت إلى البيت الذي كان من المفترض أن أقضي الليلة فيه. وعندما دخلتُ من الباب، قدَّم لي مُضيِّفي شيكًا بالمبلغ الذي كان بنظري كبيرًا، وكان من الكنيسة. اعترضتُ، لكنَّهم ظنُّوا أنَّ اعتراضي كان بدافع التواضع فأصرُّوا حتَّى إنِّي تركتُ الأمر يسير.

أتمنَّى أنَّه يُمكنني أن أصف لكم ما اختبرته في تلك الليلة. كان الشيك موضوعًا على المنضدة بجانب السرير. كان مُلكي ومن المفترض أن آخذه. لم أُرد أن أُضايق أحدًا أو أبدو غير شاكرٍ؛ فالمال صار بحوزتي أصلًا. قلتُ لنفسي إنَّني رُبَّما يجب أن أحسبَ أنَّ هذه الكنيسة قضيَّة أُخرى بخلاف الكنيستَين السابقتَين. لكن ماذا عن التوجيه السابق الذي شعرتُ بأنَّه من الربِّ وكان مختصًّا بالكنائس الثلاث؟ لقد بدا هذا الإرشاد واضحًا تمامًا وقتها. ظلَّ تفكيري يروح ويجيء. وفي النهاية، اقتربتُ من أن أُقرِّر أنَّني يجب أن آخذ النقود بدلًا من أن أتسبَّب في أيَّة مشكلة، لكنَّني قرَّرتُ أن أُراجع قراري مرَّةً أُخرى في الصباح عندما أكون قد حصلتُ على بعض الراحة، وطلبتُ إلى الله أن يعلِّمني في أثناء النوم إذا أراد هذا. وعندما فتحت عيناي في الصباح التالي كان الأمر واضحًا بما لا يترك مجالًا للشكِّ، وهو أنَّني لا يمكن– بل يجب ألَّا آخذ النقود. وبعد وقتٍ من التأمُّل، شعرتُ بالقرار يزداد قوَّةً. وبقدرٍ كبيرٍ من الرهبة، شرحتُ لمضيِّفي بأفضل صورة استطعتها سبب عدم استطاعتي أن أقبل هذه العطيَّة السخيَّة. وفي اللحظة التي انتهيتُ فيها، اندفع داخلي فرحٌ لا يُنطَق به. ورغم أنَّني خارجيًّا حاولتُ أن أظلَّ هادئًا، فإنَّني كنتُ في الداخل مغمورًا بإحساسٍ قويٍّ بمجد الله. وما إن أصبحتُ بمفردي في السيَّارة، حتَّى صحتُ ورنَّمتُ وباركتُ الله. لقد تحرَّرتُ من سيطرة المال! لقد استطعتُ أن أعيش الطاعة! لقد كان أمرًا رائعًا، وكانت نشوةً وسعادةً بالغةً، استمرَّت بصورةٍ قويَّة نحو عشرين دقيقة، تلاها فرحة أعمق وأهدأ سيطرت عليَّ طوال اليوم (وسعدت عندما علمت أنَّ الكنيسة قرَّرت أن تخصِّص النقود لخدمة اللاجئين في كمبوديا).

لقد كان أمرًا صغيرًا، لكنَّ الطاعة كانت مهمَّةً وضروريَّةً جدًّا. أنت أيضًا تستطيع أن تطيع الله حيثما أنت بحسب النور الذي لديك. ابدأ الآن، في هذه اللحظة.

نصيحةٌ رابعة في الطاعة المقدَّسة هي أن تنهض بسرعةٍ وتواصل المسير إن كنت قد تعثَّرت وسقطت. لأنَّك **سوف** تسقط. لقد شاركتُ حادثة انتصار واحدة، لكنَّني أستطيع أيضًا أن أخبرك عن مرَّاتٍ كثيرة تمرَّدتْ فيها الإرادةُ الذاتيَّة المعاندة على الصوت الخفيض الهادئ للروح القدس، أوقات لم أُرد فيها ببساطة أن أُصغي حتَّى لا أتلقَّى تعليماتٍ تجعلني مضطربًا، وكم من مرَّةٍ أهملتُ الصوت الذي يدفعني لزيارة جارٍ أو كتابة رسالة!

لكنَّنا عندما نفشل لا نحتاج لأنْ نمضي وقتًا أكثر من اللازم ننوح على هذه الخسارة. نحتاج لأن نتوب، ثُمَّ نقوم، ونبدأ من جديد فورًا. كما أنَّنا يجب ألَّا نتأمَّل طويلًا أراضي معارك تحقَّق النصر فيها؛ فالقضيَّة في الطاعة المقدَّسة ليست أنَّنا فشلنا أو نجحنا بالأمس أو هذا الصباح، وإنَّما إن كُنَّا مطيعين **الآن**. وهل تعمينا أنوار السماء عن كلِّ المشاعر الأُخرى **الآن؟** هل عيننا بسيطة؟ وهل نحيا البساطة **الآن؟**

النصيحة الخامسة بشأن الطاعة المقدَّسة هي أن نتوقَّف عن أيِّ كلامٍ باطل عن أنفسنا أو الآخرين. إنَّني لا أشير إلى

النميمة؛ فأنا واثقٌ بأنَّك تجاوزت ذلك منذ وقتٍ طويل. إنَّما أقصد الكلام الذي نتملَّق به أنفسنا أو بعضنا بعضًا، ليس لتشجيعهم وإنَّما لاكتسابهم إلى صفِّنا. نادرًا ما يُقصَد بهذه المجاملات المبالغ فيها الخداع، لكنَّها تؤدِّي إليه. مثل هذا المديح لا يشبه الكلام الصريح المباشر الذي قال يسوع إنَّه يجب أن يميِّز أولاد الملكوت (متَّى ٥: ٣٣-٣٧). وقد اكتشفتُ أنَّه في واقع الأمر لا يصبُّ في مصلحة العلاقات الأمينة الدافئة التي نُريدها. على العكس، فهو يضع عبئًا أكبر على إخوتنا وأخواتنا الذين يريدون بصدقٍ أن يكتسبوا تواضع القلب، لكنَّنا نرغمهم أن يتعاملوا مع سوء تفسيرنا لهم الذي يتميَّز بالحماسة المبالغ فيه.

مرَّة في أحد الاجتماعات العامَّة تحدَّثتُ بشأن قسٍّ زميل واصفًا إيَّاه أنَّه ''أكثر القسوس الذين أعرفهم كفاءةً ورحمة''. لاحقًا، واجهني ذلك الصديق بشأن ذلك التصريح الذي أدليتُ به قائلًا إنَّه لا يشعر بأنَّ الرحمة أحد العلامات المميَّزة لخدمته حتَّى الآن. لقد كان يحاول أن يساعدني أن أُفرِّق بين الإطراء الحقيقيِّ والتملُّق المحض. يؤكِّد الإطراء الحقيقيُّ ما هو موجودٌ بالفعل، أو في سبيله إلى التحقُّق، لكنَّ التملُّق يحطُّ من شأننا بقول أشياءٍ ليست موجودة في الواقع.

إنَّنا نُحسن الصنيع إذا درَّبنا أنفسنا على ضبط كلماتنا لتعبِّر بصدقٍ عمَّا هو موجودٌ بالفعل دون مبالغة أو تجويد. فكلمة مديح مقولة في مكانها المناسب يمكن أن تكون كلمة بركة خاصَّة، لكنَّنا يجب أن نراعي حدود اللباقة والكلام المناسب في الوقت المناسب.

سأقدِّم كلمة مشورة سادسة في هذا المجال، وجدها كثيرون مفيدة. وهنا أنا أتكلَّم عن كتابة اليوميَّات الروحيَّة. إنَّها أشبه بسِفر التذكرة، أو حجر المعونة الذي به نقول: ''إلَى هنا أعانَنا الرَّبُّ'' (١صموئيل ٧: ١٢).

مثل هذه اليوميَّات يمكن أن تكون مشجِّعة جدًّا لأنَّنا كثيرًا ما ننسى على مرِّ السنين انتشال الله لنا من أعماق الانحصار في النفس وضيق الأفق. إنَّنا عادة ما نميل إلى الاستغراق تمامًا في الصراع الحاليِّ الذي نعيش فيه، فنفشل في أن نرى أنَّ الأمور التي نصارع فيها الآن أكثر أهمِّيَّة وجوهريَّة ممَّا كُنَّا نصارعه من قبل؛ إذ حُسمت تلك القضايا وصارت الآن وراءنا.

وفوق ذلك، لليوميَّات الفضل الإضافيُّ في أنَّها تساعدنا على ضبط بؤرة تفكيرنا. إنَّ كتابة ما نفكِّر فيه ونهتمُّ به يساعدنا أن نرى الأمور بوضوح ويحافظ علينا صادقين وأمناء. الصلوات المنحصرة في النفس ينكشف انحصارها في النفس ويصيرُ واضحًا أمامنا عندما نراها مكتوبة أمام عيوننا. التبصُّرات التي تبدو كصُوَر مبهمة، تصبح واضحة كالشمس عندما تُكتَب في يوميَّاتنا.

كثيرون أيضًا أفادتهم مشاركة تدويناتهم بعضهم مع بعض، ممَّا ساعدهم على المساءلة المتبادلة والتشجيع المتبادل. لا يستطيع أحدٌ منَّا أن يعيش في الطاعة المقدَّسة بمفرده؛ إذ نحتاج إلى المساعدة والتشجيع، والتوبيخ في بعض الأحيان، من إخوتنا وأخواتنا.

في عصرنا هذا، توجد الكثير من الهموم تضغط بشِدَّة على حياتنا الضعيفة، وتطالبنا بالانتباه إليها. الجيران يعانون الوحدة، والزيجات تعاني التخبُّط، والظلم الاجتماعيُّ ينتشر، والجوع العالميُّ يتزايد. تجذبنا كثيرٌ من الأشياء وتدفعنا وتمزِّقنا. لكن يجب ألَّا نتجاوب مع هذه الأمور بطاعةٍ ذات رأيَين. إنَّنا نحتاج إلى رؤية ملتهبة لله تعمينا عن كلِّ شيءٍ آخر لنتجاوب بدِقَّةٍ بطاعة مقدَّسة.

*** كتاب ''**سياحة المسيحيِّ**'' من منشورات أوفير للطباعة والنشر (الناشر).

**** أذكر في كتابي ''**فرح الانضباط**'' *(Celebration of Discipline)* أنَّ الله يستخدم أيضًا خدمة الآخرين بصفتها انضباطًا روحيًّا ليأتي بنا إلى التواضع.

وخدمة الآخرين هي، بلا شكٍّ، ما ينبع عن الطاعة المقدَّسة. وهذا يبيِّن مجدَّدًا الاعتماد المتبادل لهذه الانضباطات.

٧

البساطة الخارجيَّة:
خطوات مبدئيَّة

هناك طريقتان للحصول على ما يكفي: الأولى هي اقتناء المزيد. الثانية هي الرغبة في الأقلّ.

جي. كاي. تشسترتون (G. K. Chesterton)

صار الحديث بالأمور الماليَّة موضوعًا يُمنع تناوُله في مجتمعنا المعاصر. في السابق كنَّا نخاف أن نتكلَّم علنًا عن الجنس، لكن لم يعد الأمر كذلك؛ فالآن، صرنا نتباهى بحُرِّيَّتنا الجديدة مثل المراهق الذي يتعلَّم التدخين أوَّل مرَّة. ثُمَّ كان الموت أحد الموضوعات التي لا يتكلَّم فيها أحد بصوتٍ أعلى من الهمس، أمَّا هذه الأيَّام أيضًا قد ولَّت؛ إذ تكثر الآن حلقات الدراسة التي تُعقَد حول هذا الموضوع. يمكننا الآن أن نشتري أشرطة وأفلامًا وكتبًا تُعلِّمنا كيفيَّة الوصول إلى لحظة الوفاة بخِفَّة وهدوء. لقد أصبح عِلم الشيخوخة يتقدَّم إلى مكانٍ بارزٍ في العلوم هذه الأيَّام.

أمَّا ما لا يزال محرَّمًا حتَّى الآن فهو أن يتكلَّم المرء عن وضعه الماليِّ ببساطةٍ وشفافيَّة. ما نزال نعدُّ الطريقة التي ننفق بها مالنا قضيَّةً شخصيَّة لا نتكلَّم عنها، ولا يكلِّمنا أحدٌ عنها. إنَّنا نقاوم بشِدَّة أيَّة مشاركة علنيَّة عن هذا الموضوع الخاصّ. ومع أنَّه سُنَّت قوانين تُلزم المسؤولين الحكوميِّين أن يقدِّموا كشفًا علنيًّا عن وكالتهم، فإنَّهُم ما يزالون يجدون وسائل يحجبون بها هذه الحقائق. كما يحسب الكثيرون العظات التي تتناول أسلوب الحياة أو تتعرَّض لالتزاماتنا نحو الفقراء نوعًا من الإهانة وانتهاك الحدود الشخصيَّة. إنَّنا نميل إلى إسدال الستائر على أمورنا الماليَّة، ونضبط ميزانيَّاتنا ونسوِّي كشوفَ بطاقات ائتماننا خلف أبواب الغرف المغلقة.

اليوم، يوجد تعليم كاذبٌ يكاد يكون وباءً منتشرًا في المسيحيَّة الأميركيَّة. إنَّه ذلك التعليم الجامد الذي لا يُفحَص، والذي يقول إنَّ ما نكسبه هو مُلكنا، ننفقه كما نشاء. فإذا كُنَّا نكسب مثلًا سبعين ألف دولارٍ سنويًّا، فالطريقة التي ننفق بها هذا المبلغ أمرٌ خاصٌّ بنا تمامًا. رُبَّما نتَّفق أنَّه يحقُّ للكنيسة أن تتكلَّم عن العشور، لكن التسعين بالمئة الأُخرى ليست من شأنها.

يا له من مبدأ ضيِّق الأفق ومنحصرٍ في الذات! إنَّنا لا نستطيع بتاتًا أن نلوي ذراع الكتاب المقدَّس لتبرير مثل هذا الاعتقاد. إنَّ أسلوب حياتنا **ليس** أمرًا خاصًّا بنا، ويجب ألَّا نجرؤ أن نسمح لكلِّ إنسانٍ بأن يفعل ما يحسن في عينَيه؛ فالإنجيل يطالبنا بما هو أكثر من ذلك: من الضروريِّ علينا أن نساعد بعضنا بعضًا لكي ندرك أبعاد البساطة المسيحيَّة وأهمِّيَّتها في وسط هذا العالم المعاصر الذي يكاد يعبد الغنى والوفرة. ويجب أن نحبَّ بعضنا بعضًا بما يكفي لكي نشعر بالمسؤوليَّة المشتَرَكة ونحاسب بعضنا بعضًا في هذا الأمر.

الدِّقَّة دون التزمُّت

عندما نحاول أن نحدِّد ما تبدو عليه البساطة عمليًّا، فإنَّنا عندئذٍ نأخذ على عاتقنا مهمَّة ضخمة محفوفة بالمصاعب. إنَّنا

بهذا نتحرَّك من نطاق التفسير إلى نطاق التطبيق، وهذا دائمًا خطير. لم يعد سؤالنا الأساسيُّ: ''ماذا يقول الكتاب المقدَّس؟''، بل علينا الآن أن نركِّز على السؤال: ''ما الذي يقوله الكتاب المقدَّس **لنا؟**''. وكما تعرف، لقد كنَّا نعمل **فعلًا** على ذلك السؤال الثاني طوال الوقت، لكنَّه الآن أصبح مركز الاهتمام. إنَّه لمن الحكمة أن نبدأ هذه المهمَّة الصعبة بأن نضع بعض الأساسات التي نبني عليها مجهودنا في هذا الصدد.

أوَّل هذه الأساسات هو ذلك المبدأ الذي يختصُّ بضرورة الدقَّة دون التزمُّت والناموسيَّة. إنَّني **أُدرك** جيِّدًا الخطورة الشديدة التي نعرِّض أنفسنا لها عندما نحاول أن نقدِّم نصائح تطبيقيَّة عمليَّة بشأن بساطة الحياة. فكيف لنا أن نخاطب أشخاصًا متنوِّعين وذوي احتياجاتٍ وأحوالٍ شديدة الاختلاف؟

بعض الناس لديهم عائلات كبيرة، وبعضهم ليس لديهم أطفال. وبعض الأطفال لديهم احتياجات غير معتادة تجعلهم يحتاجون إلى الكثير من الوقت والمال. كما أنَّ احتياجات المراهقين تختلف عن الأطفال.

إنَّنا نأتي من خلفيَّاتٍ متباينة. بعضنا شبَّ في زمن الكساد الاقتصاديِّ الكبير في الولايات المتحدة في الثلاثينيَّات، وشعر بقسوة الفقر وشرِّه. وبعضنا عاش في الوفرة التي كانت بعد الحرب العالميَّة الثانية، وشعر بالشرور التي تنشأ من الترف المبالَغ فيه. ليس من الصعب أن نستنتج أنَّ المجموعة الأولى يمكن أن تحسبَ تراكُمَ الممتلكات **حكمة**، في حين تحسبه الثانية **إسرافًا**.

نحن مختلفون أيضًا وجدانيًّا. بعضنا يحتاج إلى الخصوصيَّة، وبعضنا الآخر ينتعش وسط الجماهير. بعضنا حسَّاس للجمال والتناسق، وآخرون ليس لديهم اهتمامٌ بمثل هذه الأمور. بعضنا يحتاج إلى طلاءِ جدرانٍ جديدٍ من وقتٍ إلى آخر، وبعضنا الآخر لا يستطيع أن يخبرك بلون غرفة المعيشة بعد ٥ سنوات من استخدامهم لها.

للوظائف المختلفة مطالب مختلفة. رئيس الجامعة التي كنتُ أعلِّم فيها ذات مرَّة، كان يحتاج إلى بيتٍ أكبر ممَّا أحتاج إليه أنا؛ فهو يستضيف مجموعاتٍ تصل إلى أربعين أو خمسين شخصًا، أما أنا فأرتعب إذا زاد عدد الضيوف عن ستَّة مثلًا. لبعض الوظائف طابعٌ جماهيريٌّ ممَّا يجعل الخصوصيَّة التامَّة في البيت ضرورة نفسيَّة.

كما أنَّ هناك أيضًا مشكلة الانحياز الشخصيّ. في أمورٍ كهذه، من السهل على الكاتب أن يفرض تفضيله الشخصيّ. على الأقلِّ، يمكنك أن تتيقَّن أنَّني أعي تمامًا مشكلةَ الانحياز والتفضيلات الشخصيَّة وأرغب بشِدَّة أن أتجنَّبها.

ليس هذا كلَّ شيء. لدينا أيضًا صعوبة تغيير المشهد الثقافيِّ والعالميّ. لا نستطيع، بل يجب ألَّا نعيش بمعزل عن عالمنا. إنَّ ما كان تعبيرًا نبويًّا عن البساطة في جيلٍ من الأجيال، رُبَّما يصبح مجرَّد أمرٍ طريفٍ في الجيل التالي. الزمن يغيِّر الأشياء، ويجب ألَّا نجرؤ أن نتجاهلَ هذه الحقيقة إذا كنَّا نرجو أن نفتدي الموقف.

والأخطر من كلِّ شيء، ميلنا أن نحوِّل أيَّ تعبيرٍ عن البساطة إلى ناموسٍ جديد. فما أسرع ما نُحنِّط ما يجب أن يظلَّ دائمًا نابضًا بالحياة والتغيير! وما أسرع ما نتشبَّث بأشكالٍ خارجيَّة لكي نحكم على الآخرين ونسيطر عليهم! وكم نحبُّ هذه الطرق السهلة التي بها نرسم الخطَّ الفاصل ونحدِّد مَن في الداخل ومَن في الخارج، مَن لديه، ومَن ليس له!

هل هناك عجب أنَّنا ما زلنا نصارع ونجاهد محاولين أن نعبِّر عن البساطة خارجيًّا؟ لا عجب في ذلك، فالأمر محفوف بالمزالق والمخاطر. لكنَّنا يجب ألَّا نتخلَّى عن مهمَّتنا. يجب أن نخاطر بأن نكون متزمِّتين وناموسيِّين، لأنَّنا إذا رفضنا، فهذا في حدِّ ذاته يخلق تزمُّتًا للمحافظة على الوضع الراهن. وإلى أن نستطيع أن نكون محدَّدين، فإنَّنا لا نكونُ بعد قد تكلَّمنا عن الحقِّ المحرِّر.

لقد خاض كُتَّاب الكتاب المقدَّس مخاطرة أن يكونوا محدَّدين مِرارًا وتَكرارًا. وأكثر من مرَّة كانوا يجسِّدون معنى البساطة بدِقَّة مخيفة. والصعوبة في هذا التحديد واضحة: التطبيقات المحدَّدة لثقافةٍ ما وعصرٍ ما، نادرًا ما يمكن نقلها إلى ثقافةٍ أُخرى وعصرٍ آخر. منعَ بطرس الرسول ضفائرَ الشعر وارتداءَ الثياب الفاخرة؛ لأنَّ هذه الأشياء في ذلك الوقت كانت علامة على التباهي والطبقيَّة الشديدة (١بطرس ٣: ٣). قليلون اليوم ينتبهون لعادة ضفر الشعر التي أصبحت أمرًا معتادًا جدًّا، ولا أحد الآن يفكِّر في ارتداء الملابس الرومانيَّة الفخمة. إنَّنا نفهم أنَّ بطرس كان يخاطب الأمور الخاصَّة بعصره، ومهمَّتنا الآن هي أن نميِّز ما يُعبَّر به عن التعالي والتباهي والطبقيَّة الشديدة، ونخاطب مثل هذه الأمور.

كان العهد القديم يمنع تقاضي نسبة فائدة عن القروض؛ لأنَّ الأمر كان يعدُّ استغلالًا لأوضاع الآخر بصورةٍ لا تليق بالأُخوَّة (تثنية ٢٣: ١٩). لكن في عالم من التضخُّم المتزايد، فإنَّ قضيَّة الاستغلال غير الأخويِّ يمكن أن تكون في الاتِّجاه المعاكس؛ أي أنَّ الشخص الذي يُقرِض ولا يتقاضى فائدة، هو الذي يتعرَّض للاستغلال. عمومًا، إنَّ الأمر الذي يجب أن نصارع معه هو كيفيَّة الاهتمام بعضنا ببعض دون استغلال.

كان قانون الالتقاط أحد قوانين التراحم في ثقافة أرض فلسطين الزراعيَّة، التي كانت الأراضي الزراعيَّة التي تملكها الأُسَر مصدرَ الحياة الرئيسيَّ فيها. هذه الوصيَّة الرحيمة الرقيقة في ذلك الوقت ليس لها أيُّ معنى اليوم في ثقافة مغايرة. إنَّ الفقراء يتركَّزون الآن في الأحياء الفقيرة في المدن، ولا يمكنهم الوصول إلى المزارع لالتقاط الحبوب. من عَساه يريد أن يطبِّق مثل هذا القانون الإلهيِّ حرفيًّا اليوم؟ نحن نعرف أنَّه كان تطبيقًا محدَّدًا ومناسبًا لناموس المحبَّة في ذلك المجتمع وقتها. إن مهمَّتنا الحاليَّة هي أن نجد الطرق المحدَّدة والمناسبة التي نهتمُّ بواسطتها بالفقراء والمهمَّشين في عصرنا.

لذلك، فلنجرؤ أن نكون محدَّدين، وفي الوقت نفسه، نتذكَّر أنَّ التعبير الخارجيَّ الذي نعبِّر به اليوم عن البساطة، رُبَّما لا يكون مناسبًا في عصرٍ لاحق. إنَّ مهمَّتنا هي أن نسير في الطريق الضيِّق لكي نكون محدَّدين دون أن نصبح متزمِّتين أو ناموسيِّين.

التكيُّف دون تنازل

المبدأ الثاني الذي يمكن أن يقودنا في المسيرة نحو البساطة الخارجيَّة هو التكيُّف العمليُّ من دون التنازل الأخلاقيّ. إنَّنا في ذلك نتعامل مع التوتُّر القديم بين أن نكون **في** العالم، دون أن نكون **منه**. ولهذا التوتُّر تداعيات عمليَّة وتطبيقيَّة كثيرة.

إنَّنا **في** العالم. وحقيقة الأمر هي أنَّ أسلوب حياتنا يتأثَّر بالثقافة التي نعيش فيها. رُبَّما لا نحبُّ ذلك، ونغتاظ بسببه، لكنَّنا لا نستطيع أن نتجنَّبه. مثلًا، عندما كنتُ أعمل أستاذًا في الجامعة بدوامٍ كامل، كنت أستقلُّ الحافلة إلى عملي. لكي أفعل ذلك في تلك الأيَّام كنتُ أنفق دولارًا واحدًا في الرحلة أو دولارين في اليوم، أي عشرة دولارات في الأسبوع، وخمس مئة دولارٍ في السنة. وهكذا، فإنَّ ذلك القرار البسيط باستقلال الحافلة للذهاب إلى العمل يصل إلى نحو ضعف الدخل السنويِّ لنصف سكَّان الكرة الأرضيَّة. النقطة التي أريد أن أصل إليها هي أنَّه إذا صاح أحدهم في وجهي قائلًا إنَّ متوسِّط الدخل السنويِّ في الهند يصل إلى نحو ٣٠٠ دولار أو إنَّ ١٫٣ مليار إنسان في العالم يعيشون على أقلِّ من دولارٍ في اليوم، فهذا لن يؤدِّي إلى زيادة شعوري بالذنب. الحقيقة هي أنَّني أعيش في مجتمعٍ يحتاج إلى استيعابٍ اقتصاديٍّ مناسبٍ له.

أنا الآن أعلم أنَّ هذه الكلمات تقع وقعًا شديدًا على بعض الكماليِّين، الذين يمكن أن يعترضوا بشِدَّة قائلين إنَّنا يجب ألَّا نتكيَّف مع الأوضاع الحاليَّة. لعلَّهم يتجاوبون مع مثال الحافلة هذا بأن يقولوا مثلًا إنَّني يجب أن أسكن بالقرب من عملي، أو أستقلَّ دراجة إلى العمل، أو حتَّى أستقيل منه. بالتأكيد، عليَّ أن آخذ هذه المشورات بجِدِّيَّة، لكن نادرًا ما يحلُّ الناس

مثل هذه المشكلات بمثل هذه البساطة. في واقع الأمر، أجد أنَّه حتَّى من أخذوا على عاتقهم عهد حياة الفقر يتصرَّفون بطرقٍ تنضوي على استيعابٍ كبير وتكيُّفٍ مع الثقافة التي يعيشون فيها، وأنا أعني ذلك بلا أدنى ازدراء. التكيُّف والاستيعاب جزءٌ لا يتجزَّأ من كوننا **في** العالم. وهناك طرقٌ عمليَّة واقتصاديَّة كثيرة نتكيَّف بها مع الثقافة التي نعيش فيها: دروس سباحة للأطفال، بعض الكتب الجديدة لأمِّي، أو منشار كهربائيٌّ لأبي.

لكنَّنا يمكن أن نأتي عند نقطة رُبَّما نتجاوز الاستيعاب والتكيُّف الصحيحَين والمنطقيَّين إلى درجات من التنازل غير الضروريّ. إنَّنا **في** العالم، لكنَّنا يجب ألَّا نكون **من** العالم، والمشكلة الأساسيَّة في الكنيسة اليوم هي فشلُنا أن نحدِّد نقطة انتهاء التكيُّف وبداية التنازل.

من المسلَّم به أنَّ هذا التمييز مهمَّة صعبة. إنَّنا أشخاصٌ مختلفون كثيرًا، ولدينا أحوالٌ واحتياجاتٌ متباينة. ومن الواضح أنَّنا لن نجد خطًّا فاصلًا واضحًا، لكنَّ هذا يجب ألَّا يوقفنا عن محاولة مساعدة بعضنا بعضًا لندرك ''متى وأين؟'' نتجاوز هذا الخطَّ الفاصل.

وتزيد الدعاية ووسائل الإعلام المعاصرة من تعقيد هذه المهمَّة؛ فإذا نظرنا إلى الصورة الكبيرة، سنجد أنَّ الإعلانات التجاريَّة تقدِّم رؤية للعالم وفلسفة دينيَّة معاكسة تُعيد تعريف معنى البركة. يقول لنا التلفاز إنَّ أشياء تافهة هي التي ستجعلنا سعداء لدرجة الجنون. وأرى أنَّها رُبَّما تجعلنا مجانين بالفعل، لكن أن تجعلنا سعداء فهذا محلُّ شكٍّ كبير.

إنَّ الهدف من كلِّ ذلك القصف الذي يصلنا من وسائل الإعلام هو زيادة رغباتنا وشهواتنا. الخُطَّة هي تغيير تقييمنا للأشياء، من ''هذا إسراف'' إلى ''من اللطيف اقتناء ذلك''. ثُمَّ بعد ذلك يتغيَّر لسان حالنا من ''إنَّني بالفعل أحتاج إلى ذلك'' حتَّى نصل في النهاية إلى ''يجب أن أحصل على ذلك بأيَّة طريقة ممكنة!''.

إنَّنا نتعرَّض إلى الإغواء والخداع وغسل أدمغتنا. لكنَّ هذا يحدث بطرقٍ خبيثة حتَّى إنَّنا لا ندرك ما يحدث. نظنُّ أنَّنا حكماء لأنَّنا نستطيع بسهولة أن نرى المنطق الطفوليّ للإعلانات التجاريَّة، لكنَّ صانعي الإعلانات لا يقصدون بتاتًا أن يجعلونا نصدِّق هذه الإعلانات السخيفة، فكلُّ ما يريدونه هو أن نرغب في هذه المنتجات. وما لا شكَّ فيه هو أنَّنا نشتري هذه المنتجات؛ وذلك لأنَّ الإعلانات تحقِّق أهدافها بإلهاب رغباتنا وليس إقناع عقولنا. إنَّها تخاطب الجزء الشهوانيّ غير المنطقيّ فينا.

من أكثر الطرق شرًّا ومناورة عندما تُنتج الشركة نفسها أكثر من نوعٍ من المنتج ذاته تنافس به نفسها. هم يعرفون أنَّ المستهلكين يشعرون بالسيطرة عندما يكون أمامهم اختيار، وهذا الشعور سيدفعهم إلى الشراء والشراء والمزيد من الشراء. إنَّنا نحبُّ أن تكون لنا إمكانيَّة أن نرفض نوعًا من أنواع المنظِّفات، ونشتري نوعًا آخر. لكنَّ الاختيار في واقع الأمر، لم يكن اختيارًا بتاتًا، حيث إنَّ العلامَتَين التجاريَّتَين مصدرهما الشركة نفسها، وهما في النهاية الشيء ذاته. هذه المنافسة الظاهريَّة الشرسة ليست سوى حربٍ مزيَّفة لجعلنا نعتقد أنَّنا نحصل على الأفضل. الهدف من الإعلان ليس إقناع المشاهد أن يشتري نوعًا محدَّدًا من هذه السلعة أو غيرها، لكنَّ الهدف هو خلق مزاجٍ استهلاكيّ. المزيد من أدوات الرفاهية، المزيد من المقاعد المريحة، المزيد...المزيد...الهدف هو زيادة الرغبة.

نحن نحتاج لأن نتَّخذ تحرُّكاتٍ صارمة ومحدَّدة إذا كان لنا أن نقاوم هذه الهجمة الضخمة للمادِّيَّة، أي أن نطيع وصيَّة الرسول بولس: ''لا تُشاكِلوا هذا الدَّهرَ'' (رومية ١٢: ٢)، ويتطلَّب هذا مجهودًا مقصودًا ومستمرًّا.

إنَّنا نفهم الاحتياج إلى بعض التكيُّف والاستيعاب لكي نكون في المجتمع الذي نعيش فيه، لكنَّنا نريد أن ننمو في وعينا

إلى إدراك الحدِّ الذي عنده يصير التكيُّف تطبُّعًا أو تنازلًا للثقافة المادِّيَّة الاستهلاكيَّة المسيطرة في ذلك المجتمع. نسعى أن نكون **في العالم** دون أن نكون **من العالم**.

الفقر الاختياريُّ

يجب أن ننظر بجدِّيَّةٍ إلى مسألة الفقر الاختياريِّ بصفته خطوة مبدئيَّة مهمَّة نحو البساطة الخارجيَّة. ولعلَّك تتساءل ''لماذا تضع الفقر بصفته خطوة مبدئيَّة ممكنة نحو البساطة؟ لا بُدَّ أن يكون خطوة أخيرة ونهائيَّة يمكن أن يتَّخذها المرء، لا المبتدئون''. على العكس تمامًا، إنَّ الفقر الاختياريَّ يمكن أن يكون الخطوة الأسهل من بين كلِّ الخطوات. إنَّ الإجراءات العنيفة عادةً ما تكون أقلَّ ألمًا، مثل نزع لاصق الجروح بسرعة بدلًا من تقشيرها ببطءٍ مؤلم. يمكن أن تتخلَّص هذه الخطوة الجذريَّة العنيفة في بعض الأحيان من عدوى الطمع بسهولةٍ أكثر من أيِّ شيءٍ آخر. لا شيء يضرب قلب محبَّة المال مثل قطع العلاقة بالمال تمامًا.

ومن نواحٍ أُخرى كثيرة، فإنَّ هذه الخطوة أسهل من غيرها. في هذه الخطوة تُقطَع العلاقة بالممتلكات بوضوحٍ وصرامة وبالتمام. بعد خطوةٍ كهذه، لا يبقى أيُّ صراع بشأن أيِّ شيء؛ لأنَّ الكلَّ عندئذٍ سيكون ممنوعًا. إنَّك لا تمتلك شيئًا. كم هذا سهلٌ! كم هو أبسط من عالمنا الملآن بالقرارات الصعبة بشأن اقتناء ذلك الشيء أو عدم اقتنائه. تذكَّر مثلًا فرنسيس الأسيزيَّ، الشابَّ الذي ألقى وراء ظهره كلَّ شيء وسار عاريًا في الطريق. لقد تشرَّد في الأرض سعيدًا مبتهجًا، واثقًا بالله، يستعطي طعامه يومًا بيوم. لقد كان حرًّا من أيِّ احتياجٍ لأن يتعامل مع تلك المشكلات المعقَّدة التي يستدعيها أن يكون الإنسان وكيلًا على الأشياء. لم تكن لديه ميزانيَّاتٍ تضايقه، ولا حسابات بنوك، ولا تقارير ضريبة دخل. بأكثر من صورة، الفقر هو أسهل الخطوات.

إنَّ الدعوة إلى الفقر الاختياريِّ ليست مفروضة على الجميع، لكنَّها كلمة الله لبعضٍ منَّا. إنَّها الدعوة التي رفضها الشابُّ الغنيّ. لكنَّ هناك كثيرين قبلوها واعتنقوها. يُقدِّم لنا الفقر الاختياريُّ أقصى درجات التوحُّد بالفقراء والمحتاجين. لقد كان لتويوهيكو كاغاوا تأثيرٌ بالغٌ من أجل المسيح في اليابان. وفي واقع الأمر، فإنَّ شهادته وصلت إلى آفاقٍ بعيدة من الشهرة في العالم البروتستانتيِّ كلِّه. هذا الشابُّ النابه، غزير الكتابة، عاش حياةً شبيهةً بالحياة الفرنسيسكانيَّة من المحبَّة والفقر في واحدةٍ من أسوأ المناطق الفقيرة في اليابان. كان كتابه ''**أغاني من الأحياء الفقيرة**'' *(Songs from the Slums)*، شهادةً قويَّةً لشخصٍ عاش بين الفقراء بصفته فقيرًا مثلهم. وفي يومنا هذا، الشهادة البسيطة للأمِّ تيريزا من كالكوتا لها تأثيرٌ واسعٌ في العالم أجمع. إنَّ توحُّدها الرحيم بجموع المرضى والجوعى في مدينة كالكوتا في الهند لمس جميع الناس. ومَن يستطيع أن يحصر الآلاف غير المعروفة من الخدَّام الأُمَناء للمسيح الذين تمثِّلهم هاتان الشخصيَّتان؟

وعلى المستوى العمليِّ، فإنَّ الفقر الاختياريَّ يسهل تحقيقه في وسط جماعات، ولعلَّ أبرز الأمثلة هي الأنظمة الرهبانيَّة الكاثوليكيَّة الغربيَّة. بهذه الطريقة، يعول المجتمع الرهبانيُّ الفرد الذي اختار الفقر بحيث يتحرَّر الفرد لتتميم دعوته دون الاهتمام بأمورٍ اقتصاديَّة. وكما تعرف، فإنَّ هناك اختلافاتٌ كثيرة في تطبيق هذا التوجُّه بين الجماعات والمجتمعات المختلفة.

ليس الفقر الاختياريُّ بالضرورة التزامًا مستمرًّا طوال العمر. أعرف زوجَين من كولورادو شعرا بدعوة الله لهما أن يتخلَّيا عن كلِّ ممتلكاتهما. وفي عملٍ بسيط من الطاعة المقدَّسة، باعا بيتهما وتبرَّعا بكلِّ شيء. ومع الوقت شعرا بالحُرِّيَّة أن يمتلكا ممتلكاتٍ أُخرى، لكنَّك تستطيع أن تستنتج أنَّ شعورهما تجاه ممتلكاتهما لم يعد كما كان من قبل. واليوم، لديهما بيتٌ

كبير بالقرب من إحدى الجامعات الحكوميَّة، حيث أجَّرا أغلب غرف البيت لطلبة جامعيِّين لتسهل الخدمة بينهم. إنَّنا لا نستطيع أن نعرف على وجه التأكيد، لكن من الممكن أنَّ دعوة يسوع للشابِّ الغنيِّ كانت من ذلك النوع– دعوة محدَّدة لوقتٍ محدَّد.

لا تنسَ بتاتًا أنَّ الفقر ليس هو البساطة. الفقر كلمة لها مدًى محدود. الفقر إحدى وسائط النعمة؛ أمَّا البساطة فهي نعمة بنفسها. يستطيع الناس أن يعيشوا حياتهم كلَّها في فقر، دون أن يعرفوا نعمة البساطة. من الممكن أن تتخلَّص من الأشياء، في حين تظلَّ ترغب فيها في قلبك. لكن يوجد أيضًا فقرٌ يمكن أن يستخدمه الله لكي يفتح نوافذ السماء لحياة البساطة العذبة. كيف يمكننا أن نعرف الفرق؟ يجب أن نحيا منفتحين، ومستعدِّين دائمًا للاستماع والانتباه. إذا جاء الأمر، نطيعه بفرح.

وأودُّ أن أعطي نصيحة لهؤلاء الذين ليسوا مدعوِّين للفقر الاختياريِّ: لا تحتقروا المدعوِّين له. إنَّنا في محاولاتنا أن نكون متَّزنين ومنطقيِّين، يمكن في بعض الأحيان أن نقف في طريق كلمة الله. لنكن بطيئين في الإدانة، وبطيئين أيضًا في إعطاء النصح. أوَّلًا يجب أن نستمع بلطفٍ وصبر. لقد قيل عن يسوع إنَّ: ''قَصَبَةً مَرضوضَةً لا يَقصِفُ، وفَتيلَةً مُدَخِّنَةً لا يُطفِئُ'' (متَّى ١٢: ٢٠). ومثله، يجب أن نراعي لئلَّا نسحق الروح الحسَّاسة الرقيقة لهؤلاء الذين يبدأون في تعلُّم سماع صوت الربِّ، أو نطفئ بصيرتهم الناشئة. لذلك فإنَّنا نستمع مصلِّين أن نرى إن كانوا بالفعل قد استقبلوا كلمةً من الله. وكلَّما تعلَّمنا أن نسير مع الله وأن نعرف طرقه، كان من السهل التمييز بين المثاليَّة الشبابيَّة والدعوة الحقيقيَّة منه. بالمثل، فإنَّ هؤلاء المدعوِّين للفقر يجب أيضًا ألَّا يرفضوا من لم يتلقُّوا مثل هذه الدعوة.

في النهاية، أقترحُ تجربةً واحدةً بسيطةً للفقر الاختياريِّ يمكن أن يقوم بها كثيرون منَّا ويستفيدوا منها فائدة حقيقيَّة كما يرشدنا الله. يمكننا أن نبحث في بيوتنا عن شيءٍ له قيمة خاصَّة لدينا ونسأل أنفسنا: ''هل أصبحتُ مرتبطًا أكثر من اللازم بهذا الشيء؟ هل يكاد يصبح هذا الشيء كنزي؟''. وبعد أن نفحص قلوبنا أمام الربِّ، لنعطِ هذا الشيء لشخصٍ آخر. يجب ألَّا نُبرِّر فنقول: ''لكنَّني بعد أن فحصتُ قلبي أدركُ الآن بوضوح أنَّ هذا الشيء ليس كنزًا لي، لذا لن أتخلَّى عنه''. إذا لم يكن كنزًا بالفعل، فلن نمانع في إعطائه لشخصٍ آخر. وإذا كان قد أصبح بالفعل كنزًا لنا، فنريد أن نتخلَّى عنه في مصلحة أرواحنا. كما سنُصلِّي للشخص الذي سيستقبل عطيَّتنا الصغيرة، لتكون بركة له ولا تكون عقبة في مسيره مع الربّ.

الإنفاق المقنَّن

رُبَّما نشعر الآن بأنَّ كلَّ هذا الكلام المتسامي عن الفقر الاختياريِّ ومقاومة عقليَّة الاستهلاك يتجاهل بالتمام موقفنا الحاليّ. إنَّنا بصراحة نحاول بصعوبةٍ أن ندفع فواتيرنا الشهريَّة، لا أن نبحث عمَّا نتخلَّى عنه. ومع أنَّنا بالفعل متأثِّرون بشقاء الخمسة والخمسين مليون فقيرٍ في البرازيل، فإنَّنا نشعر بالعجز عن التجاوب. وإذ نحاول جاهدين أن نحصل على احتياجاتنا الأساسيَّة، نجد أقدام أبنائنا قد كبرت على أحذيتهم قبل أن ندري، ويطالب مراهقونا كلَّ يومٍ بزيادة مصروفهم، وأسعار الطعام والوقود تقفز قفزًا، وضرائب العقارات ترتفع. إنَّنا نلهث خلف مطالب الحياة.

والأكثر إحباطًا من كلِّ هذا، أنَّنا لا نستطيع أن نرى إلى أين تذهب بنا الحياة. دائمًا يبدو الشهر أكبر من الراتب، والنقود تتسرَّب من بين أيادينا كالمياه. فما الذي يحدث للمال؟

وهنا بالتحديد يجب أن نبدأ. لا يُمكننا أن نتمنَّى أن نتعامل بجِدِّيَّةٍ مع البساطة الخارجيَّة قبل أن نعرف: ما الذي يحدث للمال؟ إنَّني أتعجَّب دائمًا أنَّ الناس لا يعرفون أين تذهب النقود. إذا سألَنا أحدٌ كم ننفق على الترفيه أو الملابس أو الهدايا

بالتحديد، هل نستطيع أن نعطي رقمًا محدَّدًا، وليس تقريبيًّا؟ إذا كنَّا لا نستطيع، فإنَّنا نحتاج لأنْ نجد طريقة نعرف بها أين يذهب المال. أغلبنا، إذا احتفظنا بسجلٍّ دقيق لما ننفقه طوال العام مثلًا، سنُصدَم بحقيقة ما ننفقه على بعض الأمور.

هذه أهمُّ نقطة من نقاط المساءلة في أيَّة ميزانيَّة. يمكننا أن نصمِّم الميزانيَّات، لكن إلى أن نتتبَّع إنفاقنا، فإنَّنا لن نستطيع أن ندرك إن كنَّا بالفعل نسير وفق الميزانيَّة التي وضعناها أم لا. لذلك، فإنَّ المكوِّن الأوَّل في الإنفاق المقنَّن هو أن نعرف أين تذهب نقودنا؛ إذ لا يمكن أن نسيطر على مالنا ما دمنا لا نعرف كيفيَّة إنفاقنا له.

إذا شعرنا بأنَّ هذا مجهودٌ كبير لا داعي له، حيث إنَّ ميزانيَّاتنا ضئيلة، فنحن مخطئون جدًّا. فوظيفة تدرُّ دخلًا سنويًّا يصل إلى ٣٠ ألف دولار تعني مبلغًا يتجاوز المليون دولار بعد أربعين سنة. نحن مسؤولون عن هذا المبلغ. هذا بفرض عدم حدوث زيادة في الراتب على مدى هذه السنوات. إنَّنا مسؤولون عن وكالة هذا المال. كيف نجرؤ أن نفكِّر في إدارة مثل هذه المسؤوليَّة الضخمة دون تسجيلٍ دقيق؟

لديَّ أنا وكارولين طريقةٌ عمليَّةٌ جدًّا للقيام بذلك في بيتنا. في دفتر ميزانيَّتنا، لدينا ٢٠ فئة منفصلة من فئات الإنفاق.***** عندما نُنفِق أيَّ نقود، فإنَّنا ببساطة نسجِّل ما اشتريناه وتكلفته، وذلك في خانة الفئة الخاصَّة به. في بعض الأحيان، يكون ذلك عبئًا علينا لكنَّ هذا التوثيق البسيط يمكن أن يشجِّعنا أن نشتري أقلّ.

الخطوة الثانية في الإنفاق المقنَّن هي وضع ميزانيَّة. الميزانيَّة ببساطة تمثِّل قرارنا: أين نريد أن تذهب أموالنا؟ دون ميزانيَّة، نضحِّي بإمكانيَّة اتِّخاذ ذلك القرار. الميزانيَّة تضبط كم من المال يذهب إلى أين، لذلك فهي تحافظ علينا أُمَناء مع أنفسنا.

يمكنا أن نتأكَّد من شيءٍ واحد: أنَّ رغباتنا دائمًا ما تتجاوز احتياجاتنا ومواردنا. وإذا لم يكن ذلك بسبب طمعنا وانحصارنا في أنفسنا، فإنَّ الإعلانات ستقوم بالمهمَّة. إذا سمحنا لرغباتنا أن تحدِّد أنماط شرائنا، فالنتيجة ستكون الفوضى–والكثير من الديون. قال لي صديقٌ يشغل منصب مدير وكالة ائتمان، انطلاقًا من خبرة طويلة، إنَّه نادرًا ما يجد من بين الأزواج الذين لديهم أزمات ماليَّة، مَن كانوا يسيرون وفق ميزانيَّة مصمَّمة بعناية.

ليس القصد من هذا الكتاب أن نُعطي تفاصيل عمل ميزانيَّة؛ إذ توجد في الأسواق كتبٌ إرشاديَّة جيِّدة كثيرة تلعب هذا الدور.[1] لكنَّني أودُّ أن أُقدِّم بعض الملاحظات بشأن عمليَّة صياغة الميزانيَّة.

أوَّلًا، يكاد يكون الأمر صحيحًا عمومًا أنَّه في المحاولة المبدئيَّة لوضع ميزانيَّة واقعيَّة على الورق، ستتجاوز المصروفات الدخل. ولا يمكن أن تنفع أيَّة ميزانيَّة إلَّا عندما يكون مقدار المال **الداخل** يساوي أو يزيد عن **الخارج**. إذا غابت هذه المعادلة، يجب أن تتغيَّر بعض الأشياء. وإنَّني لأقترح أن تبدأ أوَّلًا بالبحث عن طرق للتقليل من النفقات قبل أن تبحث عن طرق لزيادة الدخل. وهذا وقتٌ مناسبٌ للزوجين أن يختبرا الدموع والصلاة والقلوب الحسَّاسة. ليس من السهل أن تقول ''لا'' لإجازة طال انتظارها، أو أن تقول ''نعم'' لميزانيَّة طعام أقلّ. لكن مهما كان، حاول أن تجعل الميزانيَّة تتَّزن.

ثانيًا، لا تَدخُل في ديونٍ من أجل نفقاتٍ معتادة. وضع المال في استثمارٍ سيعود عليك بفائدةٍ من نوع ما هو شيء، أمَّا طقم الشاي الجديد فشيءٌ آخر. وتذكَّر أنَّ هدر المال لا ينفعك كما لا ينفع الحكومات المبذِّرة! قد يكون مُمكنًا أن تأخذ قرضًا لتأمين بيتٍ أو سيَّارة، إنَّما يكاد لا يخطر في بالي أيُّ شيءٍ آخر يُمكن أن يُبرِّر أخذ قرضٍ من البنك.

ثالثًا، ضَعْ نظامًا للمساءلة في ميزانيَّتك. النظام الذي وضعناه أنا وكارولين بسيط: في دفتر ميزانيَّتنا، نتعامل مع كلِّ بندٍ من البنود العشرين للإنفاق وكأنَّه حساب بنكيٌّ قائم بذاته. في بداية كلِّ شهر، أضع الرقم المحدَّد لذلك البند وأبدأ أطرحُ منه كلَّما أنفقنا في ذلك المجال. مثلًا، بند الملابس الشهريِّ لنا مقداره ٨٠ دولارًا. في أوَّل كلِّ شهر، أكتب ٨٠ دولارًا في

هذا البند. وعندما يظهر الاحتياج إلى شراء أحذية جديدة لأولادنا، فإنَّ الإجابة تكون سهلة، وهي: إذا كان هناك ما يكفي لذلك تحت بند الملابس، فإنَّنا نشتري، إن لم يكن، فننتظر. والشيء نفسه ينطبق على كلِّ بنود الإنفاق الأُخرى.

رابعًا، إذا تجاوزت الميزانيَّة، فلا تُحبَط. على الأقلِّ تكون عرفت أين يذهب المال وبدأت تدرك كيف تتحكَّم فيه. ستتحسَّن وتصبح أكثر واقعيَّة مع الوقت والممارسة.

خامسًا، ضَعِ العطاء للمسيح ولملكوت الله في إطارٍ ماليٍّ مختلف عن باقي عناصر الميزانيَّة. ما أقصده بذلك هو التالي: أغلب بنود الميزانيَّة نتمنَّى أن نجعلها أقلَّ، لكنَّنا نرغب أن نرى **العطاء** يتزايد بقدر المستطاع. لديَّ صديق لديه هدف ماليٌّ أن يعطي لملكوت الله أكثر ممَّا ينفق على نفسه وأُسرته. لذلك علينا أن نعمل على تقليل ميزانيَّة الإنفاق وتكبير ميزانيَّة العطاء.

الانفصال عن المجتمع الاستهلاكيّ

تعمل وكالات الإعلان باستمرار لتشكِّلنا بالطريقة التي تريد لنصبح كائناتٍ استهلاكيَّة لا تتوقَّف عن الشراء. لقد أطلقوا حملاتهم المنظَّمة للاستيلاء على عقولنا، وعقول أولادنا. تتطلَّب البساطة المسيحيَّة أن ننفصل عن حملة ''التشييء'' هذه. لكن كيف نفعل ذلك؟ إليك بعض الاقتراحات. بالتأكيد ليس المقصود بها أن تكون قوانين ناموسيَّة، لأنَّ بعضها سيخاطب حالتك، وبعضها الآخر لن يفعل ذلك.

أوَّلًا، اشترِك في الثورة السعيدة ضدَّ آلة الدعاية المعاصرة. إنَّنا نحتاج لأن نتعامل مع فيض الإعلانات التافهة التي يعجُّ بها التلفاز بنوعٍ من الضحك الساخر. في إطار الردِّ على هذه الإعلانات، على الأُسرة أن تهتف بصوتٍ واحد: ''مَن تظنون أنَّكم تخدعون؟''. اكتُب قائمة بالإعلانات التي لا تتَّصف بالأمانة وقاطع منتجاتها. اكتُب أسماء الشبكات والشركات واجعلهم يعرفوا رأيك في إعلاناتهم. ساعِد أطفالك أن يدركوا تلك المحاولات التي تقوم بها الإعلانات لكي تربط هويَّتهم ومكانتهم بما يملكونه من منتجاتها. صلُّوا من أجل أولادكم وبناتكم ومن أجلكم أنتم للحماية من تلك الرغبة الخبيثة للحصول على المزيد دائمًا. قاوِم الخطط التي تقوم بها الشركات لكي تجعل الطرازات القديمة غير قابلة للاستخدام لكي تُباع الطرازات الأحدث. من عساه يريد طرازًا جديدًا من السيَّارات كلَّ سنة لمجرَّد أنَّ الشكل قد تغيَّر؟ إذ إنَّ تكنولوجيا الكفاءة والأمان لا تتطوَّر بقدرٍ ملموس في هذه الفترة الزمنيَّة القصيرة. لماذا لا تنتج سيَّارة تظلُّ تعمل بكفاءة طوال عمر صاحبها؟ أعلِم الصناعة أنَّك لا تريد هذا التصميم الجديد الذي يتغيَّر كلَّ سنة، وادعُهُم ليضعوا المال في أشياءٍ أكثر أهمِّيَّة.

أرسِل خطابات إلى شركات الإعلان للاعتراض على الإعلانات التي لا تتمتَّع بيقظة الضمير. تجاهل أيَّ بريدٍ إعلانيٍّ بقدر المستطاع. قاوِمْ كلَّ تلك المسابقات التي تَعِدُ الفائزين بعُطلٍ مجَّانيَّة وبيوتٍ وغيرها من الأحلام الاستهلاكيَّة. لا يوجد شيءٌ مجَّانيّ! كلُّ من يشترون ذلك المنتج يشتركون في دفع قيمة هذا البيت الذي يصل سعره إلى ٢٠٠ ألف دولارٍ أو تلك الرحلة مدفوعة التكاليف إلى تاهيتي، عدا تكلفة المسابقة التسويقيَّة التي تصل إلى ملايينٍ عدَّة. من الأفضل تجنُّب مثل هذه المسابقات واقتناء منتجات أقلَّ سعرًا يستطيع الفقير اقتناؤها. إذا استطاع عددٌ كافٍ منَّا أن يرى الشرَّ في مثل هذه المسابقات، يمكننا أن نوقفها. السبب الوحيد الذي يجعل الشركات تقيم مثل هذه المسابقات هو أنَّ الناس تتجاوب معها. ماذا يمكن أن يحدث إذا حدث تناقصٌ بنسبة ٥٠٪ في التجاوب مع مثل هذه الألعاب السخيفة؟ عمومًا، يجب على المسيحيِّين ألَّا يشتركوا في هذا الجنون. بكلِّ صورةٍ ممكنة، نحن نستطيع– بل يجب علينا أن نفعل كلَّ ما في وسعنا لنرفض أن نكون ألاعيب في أيدي الحملات الدعائيَّة والتسويقيَّة.

ثانيًا، أقترح تدريبًا وجده الكثيرون محرِّرًا. عندما تقرِّر أنَّه من الصواب أن تشتري شيئًا معيَّنًا، انتظر ولترَ ما إذا كان الله سيحضره لك دون أن تُضطرَّ لأنْ تشتريه. لديَّ صديقٌ مقرَّب كان يحتاج إلى زوجٍ من القفَّازات ليستخدمهما في العمل. وبدلًا من أن يندفع إلى المتجر ليشتريهما، سلَّم الأمر لله في الصلاة. ومع أنَّه لم يتكلَّم مع أحدٍ بشأن ذلك الاحتياج، فبعد يومين جاءه شخصٌ وأعطاه القفَّازين. يا له من شيءٍ رائع! لم يكن الأمر متعلِّقًا بقدرته على شراء ما يحتاج إليه. لقد كان يستطيع أن يفعل ذلك بسرعةٍ وبكلِّ سهولة، لكنَّه كان يريد أن يتعلَّم أن يصلِّي بطرقٍ يمكن أن تطلق المال من أجل مقاصد أُخرى.

حرفيًّا، عشرات التجارب يمكن أن نقوم بها في هذا المجال. حتَّى الأغنياء يمكن أن يفعلوها. متى ما اتُّخذَ قرارٌ للحصول على شيءٍ ما، ارفعه أمام الله في الصلاة رُبَّما لأسبوع. إذا جاء، اشكر الربَّ، وإذا لم يأتِ، أعد تقييم احتياجك له؛ إذا كنت ما تزال تشعر بأنَّك يجب أن تحصل عليه، فلا بأس يمكنك شراؤه.

إنَّ من الميِّزات الواضحة لهذا التوجُّه أنَّه ينهي بصورةٍ فعَّالة كلَّ أشكال الاندفاع في الشراء، ويتيح الفرصة للتأمُّل والاستماع، حتَّى يتمكَّن الله من تعليمنا إذا لم يكن هذا الاحتياج ضروريًّا. فائدة أُخرى واضحة لهذا التوجُّه هي الطريقة التي يَجري فيها التكامل بين الحياة الروحيَّة التكريسيَّة وحياة الخدمة. وهكذا يصبح تسديد احتياجاتنا المادِّيَّة مغامرةَ إيمانٍ مثيرة. هل توجد طريقة أفضل بها نتعلَّم أن نصلِّي من أجل خبزنا اليوميّ؟ نصيحة أُخرى بسيطة: قد يكون من الحكمة أن تتبرَّع بالمال الذي كنت ستُنفِقه على ذلك الأمر للفقراء لكي تتجنَّب أن تكون القضيَّة مجرَّد نوعٍ من التوفير.

ثالثًا، أكِّد نوعيَّة الحياة أكثر من كمِّيَّة ما تمتلكه فيها. ارفُض أن تتعرَّض للإغواء أن تُعرِّف الحياة من منظورِ **ما تملكه** بدلًا ممَّا **تكونه**. نمِّ القدرة على الاختلاء والصمت. **تعلَّم** أن ''تستمع إلى كلام الله في صمته العجيب الرهيب الرقيق المحبِّ، الذي يحتوي على كلِّ شيء''.[2] نمِّ صداقة حميمة واستمتِع بأمسيَّاتٍ طويلة معه من الحوارات الجادَّة والمرحة. مثل هذه الأوقات أكثر إشباعًا من كلِّ أشكال الترفيه المصطنعة التي يحاول العالم الاستهلاكيُّ التجاريُّ أن يدسَّها لنا. استمتِع بالموسيقا والفنِّ والكتب والسفر إلى أماكن بعيدة. إذا كنتَ مشغولًا بحيث لا تستطيع القراءة، فيجب أن تحسبَ نفسك مشغولًا أكثر من اللازم. أعِد اكتشافَ الصلاة بصفتها نوعًا من الترفيه المسائيّ.

تعلَّم هذه الحقيقة العجيبة: لكي تزيد من نوعيَّة حياتك، عليكَ أن تقلِّل من رغباتك المادِّيَّة، وليس العكس. أغلق **أُذُنيك** عن الاستماع إلى الإعلانات التي تصيح بتلك الكلمة ذات الحروف الأربعة: ''أكثر، أكثر، أكثر!''. استمِع بدلًا من ذلك إلى الكلمات الباعثة للحياة للقدِّيس يوحنًّا الصليب (John of the Cross): ''اسمَح لروحك بأن تتَّجه لا إلى الرغبة في المزيد، وإنَّما في الأقلّ''.[3] سجَّل ريتشارد إيه. بيرد (Richard E. Byrd) في يوميَّاته بعد شهورٍ بمفرده في القطب الشماليِّ القاحل: ''إنَّني أتعلَّم...أنَّ الإنسان يستطيع أن يعيش بعمقٍ دون الكثير من الأشياء''.[4]

أدِرْ ظهرك إلى كلِّ المواقف التنافسيَّة الضاغطة التي تجعل من تسلُّق سُلَّم النجاح نقطة التركيز الكبرى لحياتك. ليس ثمر الروح أن تضغط وتدفع أو تتسلَّق أو تتشبَّث أو تدهس. لا تجعل سباق الحياة المحموم يجعل الأرض تجري من تحتك ولا تستطيع أن تتوقَّف. يوجد مكان للدم والعرق والدموع، لكنَّ هذا الشغف يجب أن يكون مدفوعًا بدعوة الله، وليس بالرغبة في التقدُّم إلى الأمام. الحياة أكثر من مجرَّد سباق نحو القمم.

لا تضع السعادة في قلب المشهد. إنَّها نتاجٌ جانبيٌّ لحياةٍ من الخدمة، وليست بتاتًا هدف الحياة. السعادة ليست حقًّا من حقوقك يجب أن تتشبَّث به، لكنَّها صدفة يجري الاستمتاع بها.

رابعًا، اجعَل الترفيه صحِّيًّا وسعيدًا وخاليًا من الأجهزة. إنَّك لا تحتاج إلى ملابس رياضيَّة باهظة الثمن لكي تمارس التمارين الرياضيَّة حول المبنى. إنَّ المشي والهرولة والسباحة من بين أفضل أشكال الرياضة البشريَّة، وتتطلَّب أقلَّ قدرٍ من المعدَّات والتجهيزات. تسلَّق الجبال، أو خيِّم في الغابات أو الصحراء إذا كان ذلك متاحًا، أو مارس الترحال الرخيص حاملًا أمتعتك على ظهرك.

إنَّ الدرَّاجة نوعٌ رائع من أنواع المواصلات التي تَستخدِم طاقة متجدِّدة، هي طاقة الجسم البشريِّ، ولا داعي للدرَّاجات الرياضيَّة الحديثة باهظة الثمن، والتي هي أيضًا معقَّدة أكثر من اللازم وصعبة الاستخدام والصيانة. تصرَّفتُ بحكمة حين طلبتُ إلى الربِّ أخيرًا إحدى الدرَّاجات التقليديَّة القويَّة وكنتُ سعيدًا سعادة طفلٍ بلعبته الجديدة. لمَ لا تركب الدرَّاجات مع أُسرتك في الأمسيَّات حين يكون الجوُّ جميلًا؟

تجنَّب أحداث العصر الرياضيَّة المبنيَّة على مبدأ المشاهد والمدانة بإضاعتها للموارد المادِّيَّة والبشريَّة. تعلمُ الاتِّحادات الرياضيَّة والتكتُّلات الرياضيَّة (مثل دوري كرة القدم والسلَّة والهوكي وغيرها) أنَّهم يتحكَّمون في الناس، لذلك فإنَّهم يمدِّدون المواسم، ويضيفون مبارياتٍ ودِّيَّة ودوريَّات الموسم وقبل الموسم وبعد الموسم وغيرها. يكفي ما يكفي. لا تسئ فهمي، فمن الممتع مشاهدة بعض المباريات، لكنَّ ذلك الاستعباد البائس للدوريَّات والمباريات والبطولات، شيءٌ آخر تمامًا. كثيرٌ من الأزواج يتشاجرون لأنَّ الزوج يفضِّل مشاهدة المباريات عن الحديث الحيِّ مع زوجته. هل تتخيَّل ذلك؟

شجِّع الرياضات الجماعيَّة والألعاب التعاونيَّة. لماذا يجب أن يكون **الفوز** دائمًا أهمَّ شيء؟ من الممكن الاستمتاع دون فائز ومهزوم. لقد أُغوي الناس بأنَّ المنافسة هي الطريقة الوحيدة للَّعب والاستمتاع. المنافسة لها مكانها، لكنَّ هناك مكانًا أيضًا للتعاون. لذا نحتاج إلى الاتِّزان.

خامسًا، تعلَّم أن تأكل باعتدالٍ وبحساسيَّة. ارفُض المنتجات الملآنة بالكيماويَّات السامَّة، والألوان الاصطناعيَّة، وغيرها من الوسائل المثيرة للشكوك التي تُستخدَم لإنتاج الطعام بطرق الهندسة الوراثيَّة وغيرها من الطرق غير الطبيعيَّة. كُن منتبهًا إلى سلسلة الغذاء البيولوجيَّة، وتناوَل أطعمة مثل الفواكه والحبوب، التي لا تضرُّ بهذا التوازن البيئيّ. الحيوانات التي تتغذَّى على الحبوب تعدُّ اليوم رفاهية لا تستطيع سلسلة الغذاء الطبيعيِّ أن توفِّرها للبشريَّة التي تزايد عددها.

استمتِع بالحدائق، حتَّى وإن لم تكن سوى آنية نباتات في شُرفة. علِّب طعامك واحفظه وجفِّفه وجمِّده. في سنواتنا الأولى، بفضل مجهودات زوجتي، كان أطفالنا يأكلون فواكه مجفَّفة طوال الشتاء بدلًا من الحلوى، وكانوا يحبُّونها بالقدر نفسه. بعددٍ من شُجيرات الفاكهة القزمة في حديقة المنزل، بإمكانك أن تقتني مائدة من الفواكه تليق بمَلِك.

بقدر المستطاع، اشترِ الطعام المنتج محلِّيًّا لتوفير الطاقة اللازمة لنقله. استكشِف تعاونيَّات المنتجِين والمستهلِكين. وبقدر المستطاع، استخدِم القمامة في إنتاج سمادٍ حيويّ. وأعِد تدوير كلِّ ما تستطيع إعادة تدويره. ازرَع أكبر قدر ممكن من الطعام الطازج.

قلِّل من ارتياد المطاعم. وعندما ترتاد مطعمًا، اجعله احتفالًا. خُذ معك إلى العمل تفَّاحة وحليبًا، فهذه الأشياء من المؤكَّد أنَّها أسرع من ''مطاعم'' الوجبات السريعة، فضلًا عن كونها أكثر فائدة غذائيَّة. صُم عن الطعام يومًا في الأسبوع وأعطِ المبلغ الذي كنت ستدفعه إلى الفقراء. استمتِع بوجباتٍ مع الأصدقاء حيث يُحضِر كلُّ صديق معه وجبة خاصَّة على سبيل المفاجأة. اشترِ طعامًا أقلَّ، بدلًا من شراء عقاقير التنحيف.

سادسًا، ميِّز بين رحلات السفر المهمَّة، والرحلات الباذخة. بدايةً، ارفُض أن تتعرَّض للخداع القائل إنَّك خسرت نصف

عمرك إن لم تزُر كلَّ المواقع الخلَّابة في العالم. كثيرٌ من الأشخاص الحكماء والمكتفين في العالم لم يسافروا إلى أيِّ مكان، بما في ذلك المسيح نفسه. لكن إذا سافرت، اجعَل لسفرك هدفًا. تجاوز ما تراه في إعلانات شركات السياحة الجذَّابة، واذهَب إلى الأماكن التي تعاني الألم والحاجة. اذهَب إلى حيث يمكنك أن تتلامس مع حياة الناس العاديِّين في البلد. عندما زار آلبرت شڤايتزر (Albert Schweitzer) الولايات المتَّحدة، سأله الصحفيُّون عن سبب سفره في الدرجة الثالثة من القطار. فأجاب قائلًا: ''لأنَّه لا توجد درجة رابعة!''.

اعتَدِ البشرَ، كما تعتادُ الأماكن. ابذل مجهودًا أصيلًا للتواصل مع الناس، إذ ستُثريك مثل هذه الخبرات. لماذا ننظر دائمًا إلى الناس من ثقافاتٍ أُخرى وكأنَّهم عيِّنات غريبة للدراسة؟ ذات مرَّة شاهدت رجلًا يسحب آلة التصوير من شخصٍ كان يريد تصويره ويحطِّمها على الأرض وهو يصيح غاضبًا: ''أنا إنسان، ولست صورة!''.

سابعًا، اشترِ الأشياء لنفعها وليس لكونها علامات على الرفاهية والمكانة الاجتماعيَّة. عندما تبني بيتًا أو تشتريه، فكِّر في سهولة الحياة فيه أكثر من كونه مبهرًا للآخرين. لا تقتنِ بيتًا أكبر من اللازم أو المناسب. مثلًا، لماذا يقيمُ زوجان وحدهما في بيتٍ فيه سبع غرف؟ هل تعيشان بمفردكما بعد أن كبر أولادكما؟ بدلًا من أن تتركوا بيتكم الكبير يزخر فقط بالذكريات الجميلة، لِمَ لا تَدْعُون شخصًا عازبًا، أو بعض الطلبة الجامعيِّين للإقامة معكما؟ رُبَّما يغمرون الغرف مرَّة أُخرى بالضحكات والشجار المعتاد، ويساعدونكما في مواجهة الوحدة والملل.

من ناحية الملابس، أغلب الناس لا يحتاجون إلى شراء المزيد من الملابس. لكنَّهم يشترون المزيد، ليس لأنَّهم يحتاجون إلى الملابس، ولكن لأنَّهم يريدون التوافق مع ''الموضة''. لا تأبَه بالموضة، واشترِ فقط ما تحتاج إليه. ارتدِ ملابسك حتَّى تبلى. توقَّف عن محاولة إبهار الآخرين بملابسك وأبهرهم بحياتك. إذا كنتَ تستطيع، تعلَّم متعة تفصيل الملابس. اشترِ الملابس العمليَّة لا الأنيقة فقط. نادى جون وسلي قائلًا: ''من جهة الملابس، إنَّني أشتري الملابس التي تبقى طويلًا، وعلى وجه العموم أشتري الملابس الأكثر بساطة''.[٥]

أعلم أنَّ قضيَّة الملابس هذه أكثر صعوبة للمراهقين عنها للراشدين. أغلب الراشدين وصلوا إلى حالةٍ من الشعور بالأمان الداخليِّ الذي يجعلهم لا يتأثَّرون كثيرًا بآراء الآخرين، فيصبحون متحرِّرين من الاحتياج إلى إبهار الناس أكثر من اللازم. أمَّا المراهقون (وبعض الراشدين الذين ما يزالون مراهقين وجدانيًّا)، فلم يحصلوا بعد على إحساسٍ بالمكانة في العالم، لذا فإنَّهم يشعرون بالاحتياج إلى الحبِّ والقبول. تُستَخدَم الموضة الصحيحة بصفتها وسيلة ثقافيَّة لتحديد المنتمين والمتوافقين مع مجموعةٍ معيَّنة من الناس ومَن هم ليسوا كذلك. ورغم أنَّنا يجب أن نظلَّ دائمًا واعين بالشرِّ الممكن لهذه الطريقة السطحيَّة في الحكم، فإنَّنا يجب ألَّا نُرغم أولادنا على تصرُّفات يمكن، في ثقافة المراهقين التي ينتمون إليها، أن تجلب إليهم السخرية التي لا لزوم لها. هذه من الأمور التي يجب أن نتعامل فيها بعضنا مع بعضٍ بحبٍّ وتفهُّم، معلِّمين ومشجِّعين بعضنا بعضًا.

يُمكن أن يكون الأثاث جميلًا وعمليًّا دون أن يُكلِّف الكثير. أثاث منزلك يعكس هُويَّتك، فلا داعي أن يبدو بيتك مثل معرض الأثاث المكتظّ. يمكنك تفصيل بعض قطع الأثاث أو قد تستخدم أثاثًا مستعملًا إذا كان مناسبًا.

تعلَّم أن تحصل على أسعارٍ جيِّدة ممَّا يُسمَّى ''لقطة''. يعلن بعض عن معارض في بيوتهم يبيعون فيها ما زاد عن حاجاتهم. في بعض الأحيان، توجد أشياء لم يعد أصحابها يحتاجون إليها، في حين هي في حالة جيِّدة وتجد أنَّ أسرتك تحتاج إليها بالتحديد. تابع مواسم التخفيضات ومحالَّ التخفيضات، لكن احذر، فمواسم التخفيضات يمكن أن تكون

سرطانًا ويمكن أن تزيد من شهوة الشراء لديك. أن تشتري شيئًا لا لزوم له، فقط لأنَّ سعره منخفض ليس حكمة بتاتًا. صلِّ من أجل أن تنفصل روحك عن الأشياء قبل أن تزور عالم المزادات والتخفيضات.

كلمة أخيرة يجب أن تُقال. البساطة لا تعني بالضرورة البخل. البساطة تتَّفق أكثر مع مبادئ مثل النفع والمتانة والحكمة والجمال. رغم أنَّني صنعتُ أسِرَّة أولادي بيديَّ، فإنَّنا اشترينا فرشات مريحة، واخترنا الأنواع المتينة التي تبقى مدَّة بقاء أولادنا في بيتنا (وأستطيع أن أشهد أنَّها لم تكن رخيصة!). يجب أن يجري اختيار الكثير من الأشياء بعناية لهدف أن تبقى طوال العمر.

مهمَّتنا ليست سهلة. وعادة ما نتساءل في كلِّ موقف: ماذا نفعل؟ سنُصارع وستتعرَّض نزاهتنا للضغوط من أكثر من اتِّجاه، وعادة ما تكون الضغوط الأكبر والأكثر هي الضغوط التي تدفعنا نحو المزيد من الشراء والاقتناء. وبينما نجاهد لكي نعرف ما نفعل في كلِّ موقف، يجدر بنا أن نضع أمامنا تلك الملاحظة الذكيَّة لمارك توين (Mark Twain): ''الحضارة هي تضاعفٌ لا حدود له للوازمٍ لا لزوم لها''.[٦]

***** العطاء، المأوى (دفعات المنزل، الخدمات، حاجات المنزل، متفرِّقات)، الطعام، المواصلات، الحاجات الطبِّيَّة، التأمين الصحِّي، تأمين الحياة، التعليم، الملابس، تحسينات المنزل، مصاريف العمل، هدايا، التسلية، المدَّخرات، مدَّخرات ضريبة الدخل، استثمارات، عُطل الراحة والاستجمام، علاوات، حاجات خاصَّة، متفرِّقات.

٨

البساطة الخارجيَّة: خطوات أوسع

أن نحصل على ما نريد، فهذا هو الغنى. لكن أن نكون قادرين على الحياة دونه، فتلك هي القوَّة.

جورج ماكدونالد (George MacDonald)

البساطة هي احتياجٌ ضروريٌّ جديد في عصرنا الحديث هذا. إنَّ كوكبنا الصغير، ببساطة، لا يستطيع أن يحتمل ذلك الاستهلاك الشَّرِه الذي يمارسه الغرب ذو الوفرة والثراء. قال غاندي ذات مرَّة إنَّ في العالم ما يكفي احتياج الجميع، لكن ليس ما يكفي جَشَعهم.

ليس الأمر رفع مستوى معيشة الفقراء في العالم لكي يصل إلى مستوى معيشة الغرب. إذ تُشكِّل أميركا الشماليَّة وغرب أوروبَّا ١٢٪ من سكَّان العالم ونحو ٦٠٪ من الاستهلاك الفرديِّ السنويّ. إذا حاول باقي العالم أن يصل إلى هذا المستوى من الاستهلاك، فإنَّ كلَّ موارد العالم المعروفة من النفط والقصدير والزنك والغاز الطبيعيِّ والرصاص والنحاس والذهب والزئبق ستُستهلَك جميعها في عشر سنوات فقط.[١] حتَّى إذا سمحنا باكتشافاتٍ علميَّة رائدة، فإنَّه سيبقى علينا أن نعترف أنَّ كوكبنا لا يستطيع أن يحتمل الحِمْل الزائد الذي يمكن أن يصير إذا رفعنا مستوى استهلاك الشعوب الغفيرة التي تعاني المجاعة الآن. ببساطة أقول إنَّ العالم لا يستطيع أن يحتمل أسلوب حياتنا. الحلُّ واضح. يجب أن نُقَلِّل نحن من مستوى معيشتنا واستهلاكنا إذا كنَّا نريد أن نقترب ممَّا يمكن أن يُسمَّى توزيعًا عادلًا لموارد العالم.

لكن هذا ليس كلَّ شيء. إنَّ إلحاح البساطة يتزايد أكثر عندما نضمُّ الدعوة إلى العدالة إلى التجاوب الرحيم مع حاجة العالم إلى الكرازة. يعيش عددٌ كبيرٌ من الأشخاص حول العالم بلا رجاء. الشعوب جائعةٌ قلبيًّا ومتعبة روحيًّا ويشتاقون إلى كلمة الحقّ. لم يسمع ثلثا شعوب هذه الأرض خبر الإنجيل المحرِّر. ألا تحرِّكك الرغبة أن تمدَّ يدك للمساعدة؟ ليس الوقت وقت الأمور المعتادة. يعيش ما يقارب ٢.٥ مليار إنسان خارج نطاق الشهادة المسيحيَّة. لن تصل الكنيسة إلى هؤلاء ''المختبئين'' بحالتها الحاليَّة بتاتًا. ولأنَّه لا يوجد مسيحيُّون في النطاق المؤثِّر في حياتهم، فيجب أن ننمِّي طرقًا خلَّاقة جديدة للوصول إلى الشعوب البعيدة والمختبئة إن كُنَّا نريد أن نتمِّم إرساليَّة المسيح أن نتلمذ العالم أجمع، إذ تتطلَّب مثل هذه المهمَّة بذل الكثير من الوقت والإمكانات المادِّيَّة.

ينصُّ العهد الذي خرج به المؤتمر الدَّوليُّ للكرازة الذي عُقِد في لوزان في سويسرا سنة ١٩٧٤م على أنَّ ''الهدف، بكلِّ الوسائل الممكنة، وفي أقرب وقتٍ مُمكن، أن يستطيع كلُّ إنسانٍ أن ينال فرصة أن يسمع الأخبار السارَّة ويفهمها ويستقبلها''. إنَّ قلوبنا تتعاطف مع هذا الهدف السامي والمقدَّس، لكنَّه لن يتحقَّق دون أن تتغيَّر أساليب حياتنا بصورة منظورة ومُضحِّية. ويستمرُّ التعهُّد مُضيفًا: ''إنَّنا مصدومون جميعًا بسبب الفقر الذي يعانيه الملايين، ويُقلقنا الظلم الذي تسبَّب في ذلك الفقر. ونحن الذين نعيش في أوضاعٍ تتميَّز بالوفرة، علينا أن نقبَل واجبنا لنعيش حياةً أبسط لكي نستطيع أن نُسهم بسخاءٍ أكبر في قضايا الإغاثة والكرازة''.[٢]

يصرخ المتخصِّصون في البيئة والاقتصاد في آذاننا أنَّ البساطة ضرورة جديدة. كما يصرخ ذلك الحشد العظيم من الشعوب المختبئة أيضًا بأنَّ البساطة ضرورة العصر. فهل نسمع صراخهم؟

موهبة العطاء

إنَّ الثروة أمرٌ خطير، ويؤكِّد التقليد الكتابيُّ بأكمله هذه الحقيقة. لذلك فإنَّني أعلم أنَّ الاقتراح الذي سأقدِّمه الآن، اقتراحٌ خطير، لكنَّه أيضًا مؤسَّسٌ بعمقٍ في الكتاب المقدَّس. يوجد مَن هم مدعوُّون للخدمة بالمال. إنَّ موهبة العطاء موهبةٌ روحيَّة حقيقيَّة وحيويَّة، والجوهريُّ فيها أن يُستَخدَم المال من أجل المصلحة العامَّة، أي أن نستخدم الموارد المادِّيَّة لأجل الملكوت. إنَّ الاحتياج كبيرٌ لهذه الخدمة بيننا.

دائمًا ما تدعونا البساطة إلى أن نحيا أسلوبَ حياةٍ بسيطًا، لكنَّها لا تدعونا بتاتًا إلى تقليل دخلنا. إنَّ الله يدعو بعضنا أن نعظِّم من دخلنا لنستخدمه لأجل مصلحة الجميع.

مرَّةً أُخرى، أؤكِّد خطورةَ هذه الخدمة. إنَّنا نتعامل هنا مع موادَّ متفجِّرة؛ فالثراء ليس للصغار والمبتدئين روحيًّا، فمن الممكن أن يدمِّرهم. إنَّ مَن أياديهم نظيفة وقلوبهم نقيَّة هم فقط مَن يستطيعون التعامل مع هذا ''الربح القبيح'' دون أن يتلوَّثوا به؛ إذ يمكن أن تدخل الشراهة والكبرياء، وكذلك الطمع والشهوة والجشع قلوبهم دون أن يدروا. هذا الطريق محفوفٌ بالكثير من المخاطر والإحباطات والتجارب، والذين يسيرون فيه يصير لزامًا عليهم أن يواجهوا قراراتٍ محيِّرة وخياراتٍ أخلاقيَّةً ضخمة لا يُضطرُّ أغلب الناس حتَّى أن يُفكِّروا فيها. إذا كانت هذه دعوتنا، فإنَّ حياتنا ستصبح أكثر حساسيَّة، لكنَّها لن تكون بالضرورة مؤلمة إذا سِرنا فيها بإرشاد الله. إنَّنا سنحتاج في ذلك الوقت إلى مساندة شعب الربِّ وصلاتهم، الذين يجب عليهم أيضًا في هذه الحالة أن يقفوا إلى جانبنا ويشيروا علينا ويرشدونا؛ لأنَّنا سنكون ساكنين بالقُرب من الجحيم من أجل خاطر السماء.

لعلَّ مِن أكثر جوانب هذه الخدمة حساسيَّةً وخطورة، ذلك الإحساس المزيَّف بالقوَّة. سنبدأ في الشعور بالسيطرة والقدرة على التأثير. سيبدأ الآخرون في السعي وراءنا، ليس بسبب من نحن، وإنَّما بسبب ما نستطيع أن نفعله، ورُبَّما يبدأون بالنظر إلينا بطرقٍ مدمِّرة روحيًّا. فمن ناحية، المال قوَّة؛ إذ تكون لدينا القدرة أن نحدِّد مستقبل هذا المشروع أو تلك القضيَّة، وسيُدرك الآخرون ذلك. والأخطر من ذلك أنَّنا **نحن** أيضًا ندرك ذلك. وكلَّما تغلغل فينا الاعتقاد أنَّنا في موقع السلطة والسيطرة، أخذت الكبرياء الروحيَّة تطلُّ بوجهها القبيح، ويبدأ الانحدار حتَّى يظنَّ كلُّ مَن هو في ذلك الموقف أنَّه ''المخلِّص'' وهو بالتأكيد مخلِّصٌ لا يخلِّص.

فقط المحاربون الروحيُّون القدامى يُمكنهم حَملُ هذه المسؤوليَّة بنجاح. فقط مَن تتلمذوا تحت يد الصليب القويَّة هم المؤهَّلون. لهذا السبب انتظرتُ حتَّى هذا الفصل لكي أناقش قضيَّة الخدمة بالمال هذه؛ لأنَّها ليست خطوة بدائيَّة، وليست مهمَّة سهلة. فقط المَهَرة في الحرب الروحيَّة هم الذين يمكن أن ينخرطوا في هذه الخدمة. إنَّ مَن نحتاج إليهم في ذلك الأمر هم أمثال ذلك الإنسان الذي يمكن أن يتلقَّى ٥٠ ألف دولارٍ من يد الربِّ ذات يومٍ، وبسبب دافعٍ إلهيٍّ داخليٍّ، يتبرَّع بهم كلِّهم في اليوم التالي (نعم، لقد قلتُ **كلَّهم** وليس العُشر).

لا يسعني بالتأكيد أن أطلب من أيِّ إنسانٍ أن يأخذ على عاتقه حَمْل هذه الخدمة المهمَّة والخطيرة دون إرشادٍ روحيّ. أوصى كليمندس السكندريُّ (Clement of Alexandria) أنَّ خادم الربِّ الثريَّ يجب ألَّا يحاول أن يحيا حياته المسيحيَّة بمفرده، لكن عليه دائمًا أن يطلب مشورة قائدٍ روحيّ. وإنَّني لأُثني على ذلك بكلِّ قلبي.

اخترَ شخصًا أو مجموعةً صغيرة يمكنك فيها أن تشارك بصدقٍ وشفافيَّة، وشخصًا حكيمًا في الأمور الروحيَّة– شخصًا لا يبهره المال وقادرًا أن يتكلَّم كلمة الحقِّ دون خوفٍ أو خجل. اطلُب مشورته. شارِك عن أهدافك الروحيَّة، بما في ذلك أهدافك الماليَّة بالتفصيل. كُن منفتحًا ومستمعًا وقابلًا للتعليم. إذا ميَّز ذلك المرشد الروحيُّ روح امتلاك وشاركك بما استطاع تمييزه، لا تكن دفاعيًّا. استمِع بإخلاصٍ واجتهادٍ إلى كلمات الحياة هذه. إنَّ العمل الذي أخذته يجعلك دائمًا في موقفٍ خطر روحيًّا. فمن الممكن جدًّا أن تصبح غير مؤهَّلٍ لمثل هذا العمل السامي والمقدَّس. لكنَّه عملٌ عظيم؛ إذ يمكن أن ينتج عنه خيرٌ كثير. إنَّني أعرف خدَّامًا كثيرين للمسيح يعملون بهدوءٍ وبلا ادِّعاء كقنواتٍ تتدفَّق من خلالها مبالغُ ضخمة من المال. ولكونهم متحرِّرين من أيِّ احتياجٍ إلى التمسُّك بهذه الأموال أو السيطرة عليها، فقد أصبحوا قادرين أن يعطوا مجَّانًا لكونهم أخذوا مجَّانًا.

أُنشئ المكانُ التاريخيُّ الغنيُّ الذي من داخله أكتب هذا الكتاب سنة ١٨٨٦م تحت مسمَّى جامعة غارفيلد (Garfield University) وقد أسبغت الحجارة الضخمة والأبراج الجميلة عليه طابعًا أشبه بالقلاع القديمة التي يمكن أن تُرى من على بُعد أميال. لكن سنة ١٨٩٧م صار خاويًا ومهجورًا. في ذلك الوقت، قرأ جيمس ديڤيس (James Davis) الإعلان الذي عُرض فيه هذا المبنى الجامعيُّ المهجور للبيع، وقال لزوجته: ''يا آنا، أعتقد أنَّ هذه هي فرصتنا لنقدِّم إلى العالم معهدًا علميًّا''. وهذا بالتحديد ما فعله. لقد اشترى ذلك المبنى الرائع وتبرَّع به لجماعة الكويكرز لكي يؤسِّسوا فيه جامعة مسيحيَّة. تخيَّل آلاف الأشخاص الذين أغناهم هذا المكان، فقط لأنَّ رجلًا واحدًا شعر بالحُرِّيَّة الكافية ليضع إمكاناته المادِّيَّة لخدمة الملكوت! وتخيَّل أيضًا الأماكن التي لا حصر لها التي يمكن فيها أن تتكرَّر هذه القصَّة بآلافٍ من التفاصيل المختلفة على مدار العالم كلِّه، حيث يمدُّ أشخاصٌ أمناء تأثير ملكوت المسيح بواسطة الخدمة بالمال.

هل يبدو لك الأمر وكأنَّني أتكلَّم فقط إلى الأغنياء الذين يستطيعون بمواردهم الماليَّة الكبيرة أن يتحمَّلوا عبء مشاريع ضخمة حول العالم؟ بالتأكيد لمثل هؤلاء مكانهم. لكنْ كثيرًا ما يُعبَّر عن الخدمة بالمال بطرقٍ أكثر بساطة. ومثل هذا العمل، ينخرط فيه أشخاصٌ عاديُّون ذَوو ميزانيَّاتٍ محدودة. ليس المطلوب موارد عظيمة، بل استعدادٌ متَّضعٌ أن يكون المرء قناةً مفتوحة.

فها هو ''زقٌّ'' بسيط لهذه الخدمة. مثلًا، تضع الأسرة معًا ميزانيَّة السنة. ميزانيَّة بسيطة تتميَّز بالاقتصاد والواقعيَّة. وتوضَع فيها فِقرةٌ للتقاعد وغيرها من الاهتمامات المشابهة. ويضافُ إليها عُشر إجماليِّ الميزانيَّة. ثُمَّ أيُّ مبلغٍ يُحَصَّل فوق هذه الميزانيَّة، يجري التبرُّع به بالكامل لمقاصد الملكوت. بهذه الطريقة، يمكن أن يأتمننا الله لنكون قنوات مفتوحةً غير مختلَّة. يمكننا عندئذٍ أن نكون القناة التي تشارك بفرحٍ الموارد الإلهيَّة. يمكن أن يأتي المال من الرواتب أو من طرق غير متوقَّعة تمامًا. سنتعجَّب للطريقة التي يستخدمنا الله بها.

عندما كان جون وسلي شابًّا، رأى أنَّ ٢٨ جنيهًا إسترلينيًّا في السنة، يمكن أن تكون كافيةً لاحتياجاته. ولأنَّ الأسعار ظلَّت كما هي إلى حدٍّ كبير، استطاع أن يحافظ على ذلك المستوى من الإنفاق طوال عمره. عندما اتَّخذ وسلي هذا القرار أوَّل مرَّة، كان دخله ٣٠ جنيهًا في السنة. في السنوات التالية، درَّت مبيعات الكتب عليه ١٤٠٠ جنيهًا سنويًّا، لكنَّه ظلَّ يعيش على القدر نفسه وكان يتبرَّع بالباقي.[٤] عاش وسلي عازبًا أغلب حياته، ولم يكن لديه أولاد، لذلك فهو لم يتعامل مع المشكلات الماليَّة التي تُصادِف الأُسرة، لكنَّ الفكرة تظلُّ نافذةً. يمكننا أن نفعل الشيء ذاته. من الواضح أنَّنا نستطيع أن نُجري بعض التعديلات في ما يتعلَّق بالأولاد الذين يكبرون، والادِّخار من أجل الجامعة، والتضخُّم السكَّانيّ، لكن يظلُّ المبدأ قويًّا وفاعلًا.

وها زقٌّ آخر. إذا كنت وشريك الحياة ترغبان في العمل، مارسا انضباطَ العيش على راتبٍ واحدٍ وتبرَّعا بالآخر. بهذه الطريقة، قد يكون مُمكنًا أن يُنفق زوجان على أُسرة مرسَلة بأكملها. لمَ لا؟ فهل هناك فرصةٌ أفضل من هذه للاستثمار؟ فكِّر في ما يمكن أن يحدث للحركة الإرساليَّة العالميَّة إذا قامت كلُّ أُسرةٍ مسيحيَّةٍ بذلك.

كما أنَّه ما يزال هناك أيضًا نموذجٌ آخر. تأمَّل دخلك بعناية. هل توجد طرقٌ بها تُبسِّط أسلوب حياتك بحيث تعيش على نصف ما تكسبه فقط؟ إن كان الأمر كذلك، فبدلًا من أن تترك العمل وينقص دخلك إل النصف، خطِّط للتبرُّع بنصف ما تكسبه.

وهناك أيضًا طريقةٌ أُخرى. بدلًا من أن تتبرَّع بالمال عشوائيًّا، استثمره من أجل ملكوت الله. عادةً ما يكون الأفضل أن تفتح حسابًا جاريًا أو حساب توفير، حيث يُستخدم المال الذي تضعه في هذا الحساب بالكامل لقضايا الملكوت. ثُمَّ، بحسب قيادة الربِّ لك، استثمِر هذا المال بطرقٍ تلائم المبادئ المسيحيَّة. ويمكن أن يعاد استثمار إجماليِّ المكاسب، أو توزيعها. دائمًا تمسَّك بمبدأ أنَّ المال، أيَّ مالٍ وكلَّ مالٍ تكسبه، مُلكٌ للربِّ تمامًا.

يمكن أن تكون الاستثمارات المتوافقة مع المبادئ المسيحيَّة قضيَّةً معقَّدة. إنَّني بالتأكيد لا أُشير إلى الاستثمار في ما هو غيرُ مسيحيٍّ بصورةٍ واضحة. إنَّما يجب الانتباه إلى قضايا العدالة والبيئة والعنف الأعمق عند الاستثمار في مشروعٍ ما. فماذا عن الاستثمار في العقارات والأراضي التي لا تهتمُّ كثيرًا بالاعتناء بالأرض؟ ماذا عن علاقة شركةٍ ما بالمنظومة العسكريَّة/الصناعيَّة؟ ماذا عن الشركات التي لها علاقة بأنظمة مستبِدَّة وظالمة خارج البلاد؟ بعض الشركات تقهر الفقراء، وغيرها تلوِّث البيئة، وهلمَّ جرًّا. وكما ذكرتُ سابقًا، فإنَّ الخدمة بالمال محفوفة بالكثير من التعقيدات.

إنَّ خدمة العطاء يمكن أن تكون إطارًا جيِّدًا للتفكير في العشور. صحيحٌ أنَّ العشور، كما ذكرنا من قبل، ليست مقياسَ العطاء في العهد الجديد، لكنَّها في بعض الأحيان تكون مفيدةً لتكونَ نقطة بداية منها نبدأ العطاء. في فترةٍ مبكِّرة من تاريخ كنيسة المخلِّص في واشنطن العاصمة، صارعَتِ الكنيسةُ في تحديد مكانة العشور في منظومة الانضباطات الروحيَّة الجماعيَّة التي تمارسها. لذلك استشارت اللاهوتيَّ راينهولد نيبور (Reinhold Niebuhr) الذي اقترح عليهم أن يقدِّموا، لا العشور، وإنَّما ما يُسمَّى "العطاء المتناسب، حيث تكون العشور هي الأرضيَّة الاقتصاديَّة التي لن تنزل تحتها إلَّا في حالة وجود أسباب قهريَّة". وكانت النتيجة، أنَّ صيغة الانضباط الروحيِّ الذي اتَّفقوا كلُّهم عليه كان هكذا: "إنَّنا نتعهَّد للمسيح وبعضنا لبعض أن نُعطي عطاءً متناسبًا مع دخلنا مبتدئين بعشورِ هذا الدخل".[٥]

لهذه الطريقة ميِّزة رائعة: أنَّ لها حدًّا أدنى من التعبير عن الانضباط والذي ليس المقصود به أن يكون المقياسَ النموذجيَّ بل الحدَّ الأدنى. أدرَكَ كلُّ الأعضاء ما هي نقطة البداية، لكنَّهم أيضًا فهموا أنَّ هذه ليست سوى بداية الرحلة. فهم على المستوى الفرديِّ والجماعيِّ يجب أن يصارعوا ليكتشفوا معنى أن يعطي الإنسان بصورةٍ متناسبة مع دخله، وهذا ليس أمرًا صغيرًا. وضَّحت إليزابيث أوكونر (Elizabeth O'Conner) هذه الصعوبة جيِّدًا:

> متناسب مع ماذا؟ متناسب مع الثروة المتراكمة للأُسرة؟ متناسب مع الدخل والمطالب الملقاة عليه، والتي تختلف من أُسرةٍ إلى أُخرى؟ متناسب مع إحساس المرء بالأمان ودرجة القلق التي يعيش بها؟ متناسب مع قدر وعينا بمن يعانون؟ متناسب مع إحساسنا بالعدالة ومُلكيَّة الله لنا وللجميع؟ الإجابة بالتأكيد أنَّه متناسب مع كلِّ هذه الأشياء.[٦]

ومع كلِّ ما في خدمة العطاء من صعوبات، فإنَّها تتميَّز بالفرح. فالكثير من الخير يمكن أن ينتج عنها، وحياة كثيرين

ستحصل على المساعدة. يتكلَّم ستانلي مونيهام (Stanley Mooneyham) عن زيارته لقريةٍ صغيرةٍ اسمها سينغالي في الهند، وهي قرية تعاني جفافًا شديدًا. وهناك تكلَّم مع أحد مُلَّاك الأراضي المسلمين الذي أصبحت البئر التي يملكها شبه جافَّة. وبالرغم من أنَّ ذلك الرجل نفسه كان يواجه كارثة، فإنَّه استمرَّ في مشاركة الماء الذي له مع المسلمين والمسيحيِّين على حدٍّ سواء. عندما قال له ستانلي مونيهام أنَّه بواسطة صندوق الإغاثة الخاصّ بخدمة رؤية العالم (World Vision) ستُعمَّق بئره، توقَّف كلامه في منتصف الجملة ووقف فاغرًا فمه. قال مونيهام: ''لم تخرج من فمه كلمة، لكنَّ روحه تكلَّمت بغنى بالينبوعَين اللذين امتلأت بهما عيناه. ودون أن يحاول أن يمسح دموعه، وقف وظلَّ يبكي. ثُمَّ أمسك بيديَّ بقوَّة ولم يتركني. وفي عينيه رأيت ردَّ فعله على المحبَّة- وكان ردُّ فعله هو الآخر محبَّة''.[٧]

موهبة خدمة الآخرين

يُمكن أيضًا أن يفتح أسلوب الحياة البسيط أمامنا مناطق جديدة للخدمة، فيُصبح ممكنًا لنا أن نقلِّل كثيرًا من احتياجاتنا، فنستطيع عندئذٍ أن نكرِّس وقتًا لعمل أشياء مهمَّة. اختزل جون وولمان تجارته لكي يعطي انتباهًا أكبر للسفر من أجل خدمة الآخرين. قال: ''بدا أنَّ الأفضل لي أن أعيش أسلوب حياةٍ يحرِّرني من الكثير من الارتباطات، رغم أنَّ إيراداتي ستَقلُّ كثيرًا''. ومع أنَّه كان يحصل على الكثير من عروض العمل والتجارة، فإنَّه كان يرفضها جميعًا لأنَّها كانت ''هموًما وأثقالًا خارجيَّة'' تعوقه وتشتِّت طاقاته. ويجب أن تتذكَّر أنَّ وولمان لم يمتهن الخدمة بالمعنى الذي يجعله متفرِّغًا من هموم سوق العمل لكي يعظ. لقد كان رجل أعمال، لكنَّه ببساطة قرَّر أن ''يعيش على القليل'' حتَّى ''لا يعوقه شيءٌ عن أن يكرِّس انتباهه الثابت والمستمرَّ للاستماع لصوت الراعي الحقيقي''.[٨]

كثيرون اليوم يفعلون الشيء نفسه. هناك نجَّارٌ أعرفه يعول أسرته بالعمل يومَين فقط في الأسبوع. أمَّا باقي أيَّام الأسبوع، فقد كرَّسها للاهتمام بقضايا الفقراء في مدينته. كما أنَّ لي صديقًا مزارعًا لديه مزرعة أشجار حمضيَّات باعها لكي ينفق على خدمته هو وزوجته لسنواتٍ عدَّة في حقل الإرساليَّات دون أن يُكلِّف أحدًا عبء إعالته (لقد قاما بذلك في وقتٍ متأخِّرٍ في حياتهما، بعد أن كبر أولادهما). ويحاول كثيرٌ من المدرِّسين تخفيض احتياجاتهم لكي يكرِّسوا فترة الصيف للخدمة بين الفقراء والمحتاجين. كما تنخرط أُسَرٌ كثيرة في خدماتٍ مكثَّفة في عطلة نهاية الأسبوع بصورةٍ مناسبة من حيث الوقت والمال. وهكذا دواليك.

إنَّ الإمكانات لا حدود لها. تنفتح فرصٌ كثيرة عندما نؤمن بأنَّ هذا ممكن. قد لا تُتيح لنا بعض الأوضاع ذلك القدر من المرونة، لكنَّ كثيرًا منها تُتيح لنا أكثر ممَّا نظنّ. لدينا أُسرة صديقة جرَّبت هذه الفكرة. الزوج كان مشرفَ بناءٍ، وكانت لديه وزوجته كلُّ المسؤوليَّات المعتادة التي لزوجين لديهما أربعة أبناء وبنات. وعلى مدى مدَّة من الزمن، استشعرا دعوة الله أن يساعدا في مشروعٍ مسيحيٍّ في غينيا الجديدة. استطاع الزوج مع الكثير من الصلاة والحكمة والكياسة أن يدبِّر عطلةً مدَّة شهرَين. وتضمَّن الأمر إنفاق كثيرٍ من مالهما لكي تنخرط الأُسرة في هذه الخدمة التي امتدَّت شهرَين. لكنَّهما قالا لي إنَّ القيمة التي أُضيفت إلى حياة جميع المشاركين كانت ضخمة- تستحقُّ كلَّ الاستثمار الموضوع. وهما الآن يُصغيان إلى الله ليريا إذا كان يريدهما أن يشتركا أكثر في العمل الجاري في تلك البلاد.

لا يحتاج المرء لأن يذهب إلى غينيا؛ فإنَّ هناك احتياجًا ضخمًا لقضاء وقتٍ في تقديم الخدمة أينما وُجِدَ الناس. مراكز التعامل مع الأزمات، وخدمات المشورة، والمستشفيات، وغيرها من الهيئات. يحتاج الكلُّ إلى مساعدتنا. يُمكن تقوية الخدمة المعتادة للكنائس المحلِّيَّة إذا كان عددٌ كبير من الأعضاء متاحين ليستثمروا حياتهم في خدمة الناس. في إحدى

العواصم الكبيرة، استطاعت مجموعة مسيحيَّة صغيرة أن تدبِّر منازل لنحو ٣٥٠ طفلًا مشرَّدًا. لكنَّ القيام بمثل هذه الأشياء يتطلَّب استثمارًا كبيرًا للوقت، ويحتاج بعضنا أن يجدوا طرقًا يحرِّرون بها أنفسهم لمثل هذه الخدمات. يحتاج كثيرون هذه الأيَّام لأن يعيدوا تنظيم حياتهم بطرقٍ خاصَّة إذا أرادوا أن ينضمُّوا إلى دعوة خدمة الآخرين ومساعدتهم.

لكنَّنا يجب ألَّا نركِّز فقط على الجوانب الماليَّة للخدمة. فرغم أنَّ تقليل احتياجاتنا لنجدَ الوقت لتقديم الخدمة هو أمرٌ جديرٌ بالثناء حقًّا، فإنَّ البساطة المسيحيَّة تضيف مكوِّنًا مهمًّا آخر. عندما نتخلَّص من مصالحنا الشخصيَّة، نصبح أحرارًا لنخدم مثل الخدَّام. أمَّا الخدمة التي تتميَّز بالبرِّ الذاتيِّ، فإنَّها تُلقى بعيدًا. يجب ألَّا نتسلَّط على الآخرين أو نجعلهم يشعرون بأنَّهم مديونون لنا. يمكن تقديم الخدمة بحُرِّيَّة ودون مناورة وسيطرة. يمكننا بفرحٍ أن نتخلَّى عن حقوقنا من أجل مصلحة الآخرين. هذه حُرِّيَّة عظيمة موجودة في خدمة الآخرين؛ إذ تعطينا القدرة أن نقدِّم بعضنا بعضًا في المحبَّة.

أريد أن أقدِّم كلمة مشورة خاصَّة في إطار خدمة الآخرين. أعتقد أنَّ من المهمِّ أن نجد طرقًا خاصَّة نقدِّم بها خدماتٍ بسيطةً لمن يعيشون بالقرب منَّا. لماذا أذكر مثل ذلك الأمر غير المهمّ؟ الإجابة هي أنَّه أبعد ما يكون عن عدم الأهمِّيَّة. أن نكون راضين بحياةٍ من الصلاح البسيط بين جيراننا يحتاج إلى إعادة تقييمٍ شاملةٍ لمنظومة قِيَمنا ومنظورنا لما هو مهمٌّ في الحياة. إنَّ نعمة البساطة هي فقط التي يمكنها أن تقدِّم لنا ذلك المنظور الجديد.

إنَّ إعطاء قيمة لجيراننا وتقديم الخدمة لهم لن يجعلنا في العناوين الرئيسيَّة لأيِّ منشورات، ولن يعطينا أيَّة مكانة متميِّزة في العمل. كما أنَّه لا يحظى بقيمةٍ كبيرةٍ في بعض الكنائس، ببساطة لأنَّه يسلبُ وقت الخدمات المهمَّة في الكنيسة. إنَّ مساعدة جيراننا في الاعتناء ببيوتهم، أو مجالسة أطفالهم، أو قضاء الوقت في زيارتهم، هي الأشكال المختلفة لتقديم الخدمة لجيراننا. لكن إلى أن نتعلَّم أن نعيش ببساطة، سنجد أنَّ من الصعب أن نؤمن بأنَّ هذه خدمات مهمَّة. تكلَّم جون وولمان عمَّا أسماه ''الفطام عن الرغبة في العَظَمة الخارجيَّة''.[٩] ومن دون عمليَّة الفطام هذه، لن نعرف البساطة، ولن نجد مساحةً كبيرةً في حياتنا من أجل جيراننا.

موهبة التضحية

هناك احتياج اليوم إلى ما أسمِّيه البساطة النبويَّة. إنَّنا نحتاج إلى أصواتٍ معارِضة تشير نحو الطريق الآخر، ونماذج خلَّاقة تسير على خلاف معطيات المجتمع السائد. من الواضح أنَّ البساطة النبويَّة تواجه مخاطر المبالغة، لكنَّ هذا الخطر ليس أكبر من خطر المبالغة الموجودة في الوضع الحاليّ.

عادةً ما يتكلَّم هؤلاء الرجال والنساء المعارضين والمعارضات إلينا بصِيَغ مبالَغةٍ وتضخيم، وقد نصفهم بالمثاليِّين واليوتوپيِّين******. لكنَّنا نحتاج إلى كلماتهم لكي تجعلنا نستيقظ ونتحرَّك. إنَّ ضمائرنا تحتاج إلى مَن يخزها موقظًا إيَّاها. إنَّنا نحتاج لأن نفهم أهمِّيَّة هذا التوجُّه المثاليِّ المستحيل الذي يمثِّلونه.

عادةً ما يُعبَّر عن البساطة النبويَّة بطرقٍ تجعل الكثيرين منَّا يشعرون بالضيق، حيث تُقدَّم نماذج هي بالتأكيد ليست إجباريَّة على كلِّ المسيحيِّين في كلِّ الأوقات. لكنَّها، في الوقت نفسه، ليست مضادَّة لطريق المسيح. مثل هذه النماذج تصبح نافذة مفتوحةً وبابًا مشرَّعًا نحو خيارات جديدة، وإمكانات جديدة. إنَّهم مشاركون في خدمة التضحية.

يجب أن ندرك أنَّ علينا أن نتأنَّى قبل رفض البساطة النبويَّة دون تفكير. أليس يوحنَّا المعمدان موجودًا في الكتاب المقدَّس؟ ورغم أنَّ يسوع لم يرتدِ جلود الحيوانات ولم يأكل الجراد والعسل البرِّيَّ، فهذا لا يعني أنَّه علينا أن نفعل ذلك.

وبناءً على كلمة الربِّ، عاش إيليَّا قُرب ينبوع ماءٍ في الصحراء لمدَّة ثلاث سنين، ورُبَّما تكون الدعوة التي نتلقَّاها من الربِّ مشابهة لتلك. على أيِّ حال، فإنَّه يقع في قلب البساطة النبويَّة إنكارُ الذات من أجل المسيح.

اختار بعض الناس حياة العزوبة من أجل امتداد إنجيل ملكوت الله. وفي أيَّامنا، هاجم الكثيرون الرسول بولس لأنَّه كان يحثُّ غير المتزوِّجين أن يفكِّروا في حياة العزوبة بصفتها خيارًا أصيلًا (١كورنثوس ٧)، وهم بذلك يفوتهم إدراك الحكمة العميقة في مشورته. يُقسِّم الزواج بالضرورة أولويَّات الإنسان وولائه. لكي يكون الزوجان أمينَين نحو عهد الزواج، يجب أن يهتمَّا بكثيرٍ من الأمور الشخصيَّة والماليَّة. أمَّا العازب فيمكنه أن يُهمِل مثل هذه الأمور ويُركِّز فقط على امتداد إنجيل ملكوت الله. يفهم كلُّ شخصٍ متزوِّج لديه أيُّ قدرٍ من الحساسيَّة أنَّ هذه هي الحال.

لم يكن الرسول بولس ضدَّ الزواج، لكنَّه أصرَّ على أنَّه يجب على الناس أن يحسبوا حساب النفقة. يجب ألَّا يدخل أحدٌ في عهد الزواج دون أن يفهم القدر الكبير من الوقت والطاقة المطلوبَين لجعل هذه العلاقة تنجح. يجب أن نواجه حقيقة أنَّنا لا نستطيع أن نفعل مثلما فعل الرسول بولس ونحن متزوِّجون ولدينا أبناء وبنات.

من أعظم المآسي في العصر الذي نعيش فيه هي ذلك العدد من القادة المسيحيِّين الذين أعطوا أنفسهم تمامًا لقضيَّة المسيح، لكنَّهم دمَّروا زيجاتهم وعائلاتهم وأولادهم وبناتهم. ولم يكن ذلك ضروريًّا، إذ كان يجب أن يفهم كثيرون منهم ببساطةٍ أنَّ حساسيَّتهم للدعوة كانت غير متوافقة مع مسؤوليَّاتهم الزوجيَّة وأنَّه كان عليهم أن يختاروا حياة العزوبة بدلًا من الزواج إذا أرادوا أن يكرِّسوا وقتهم للخدمة بهذه الطريقة. إنَّ التحذيرات التي يقدِّمها الرسول بولس تتميَّز بالحكمة العمليَّة العميقة. يسوع نفسه قال إنَّ بعض الناس خَصَوا أنفسهم من أجل ملكوت السموات (متَّى ١٩: ١٢).

إنَّنا نسيء إلى الآخرين عندما لا نُعلن أنَّ حياة العزوبة هي بالفعل خيارٌ مسيحيٌّ مشروعٌ وأصيل. الزواج ليس للجميع، ويجب أن نقول ذلك. يمكن أن يخوض الشخص العازب أنواعًا من البساطة لا يقدر عليها المتزوِّج والذي لديه أولاد. بالكلام وبالفعل، يجب على الكنيسة أن تُشجِّع مثل هؤلاء الخدَّام للمسيح. يجب ألَّا يُنظَر إليهم بتاتًا على أنَّهم أقلُّ من غيرهم أو أنَّهم غريبو الأطوار. يجب أن نفعل كلَّ ما نستطيع أن نفعله لمساعدة هؤلاء الذين اختاروا حياة العزوبة، لأنَّهم يحتاجون إلى صداقتنا وحكمتنا.

أمَّا في ما يتعلَّق بالمتزوِّجين، فعليهم أن يكونوا في اتِّفاقٍ في أيِّ قرار من هذا النوع– اتِّفاقٍ مبنيٍّ على عهد الزواج. لا مكان لأن يحاول الزوج أن يمارس نوعًا من أنواع ''الرئاسة'' على زوجته في ذلك الأمر. يتطلَّب مثل ذلك القرار وقتًا. كما أنَّ كلَّ شريكٍ من الشريكَين يجب أن يعبِّر عن مشاعره بكلِّ حُرِّيَّة.

سيرغب أغلب الأزواج أن يكون لهم أطفال، وينبغي فعلًا أن يكون لهم أطفال، لكن ينبغي لنا أن نكون مدركين للمسؤولية التي يتضمَّنها ذلك الأمر. يجب أن نكون مستعدِّين لأن ندفع الثمن ماليًّا وعاطفيًّا.

رُبَّما يحتجُّ بعض الناس قائلين: ''أتمنَّى لو كنتُ قد حسبتُ حساب النفقة لكنَّني لم أفعل. لديَّ الآن أُسرة، لكنَّني ما زلتُ أشعر بأنَّني مدعوٌّ لخدمةٍ ليس فيها وقتٌ للزواج ولا لمتطلَّبات الأُسرة''. ولمثل هؤلاء أقول: إنَّ دعوتك الآن هي أسرتك. يجب أن تلتزم العهد الذي قطعته مع زوجتك. إنَّ القفز إلى نوعٍ من أنواع الخدمة الذي من شأنه أن يُدمِّر زواجك هو خطيَّة. كُنْ راضيًا بأن تستثمر حياتك في زوجتك وأولادك. وإذا كانت الخدمة مُهمَّة، فإمَّا أنَّ الله سيقيم آخرين ليقوموا بها، وإمَّا أنَّه سيُعدِّل في الوقت المناسب من أوضاع حياتك بحيث تُلائم مسؤوليَّاتك الأُسَريَّة هذه الخدمة.

جانبٌ آخر من خدمة التضحية هو الصوم المسيحيّ. نادى كثيرون بالصوم الأسبوعيّ بصفته طريقةً لتدبير مواردَ مختلفة

لمواجهة الجوع الذي في العالم. هذه ممارسة تستحقُّ الثناء بالتأكيد، لكنَّني أريد هنا أن أتعامل مع قضيَّة الصوم على مستوًى أعمق.

يساعدنا الصوم أن نصنع اتِّزانًا في حياتنا، ويجعلنا أكثر حساسيَّةً للحياة بأكملها، فلا نكون مهووسين بالاستهلاك. إنَّه مثل جهاز إنذارٍ داخليٍّ يساعدنا أن نرتِّب أولويَّاتنا بصورةٍ سليمة، ويعطينا حساسيَّةً روحيَّة.

يكشف لنا الصوم الأشياء التي تتحكَّم فينا. إنَّنا نُغطِّي مشاعرنا وما في داخلنا بالطعام وغيره من الأشياء الجيِّدة، لكنَّنا عندما نصوم، تظهر هذه الأشياء على السطح. الحقيقة الأولى التي ظهرت لي مع أوَّل خبراتي مع الصوم، كانت حقيقة اشتهائي للأحاسيس الطيِّبة. بالتأكيد ليس سيِّئًا أن يشعر الإنسان بمشاعر طيِّبة، لكنَّنا يجب أن نكون قادرين ألَّا نسمح لهذه المشاعر أن تسيطر علينا. الكثير من التوجُّهات تريد التحكُّم فينا: الغضب والكبرياء والخوف والعنف والشراهة والجشع. كلُّ هذه وأكثر منها ستظهر على السطح عندما نصوم، ومن الجيِّد أن يحدث هذا لكي نراها ونحاربها ونهزمها ونتحرَّر منها، حتَّى نعيش بعينٍ بسيطة ترى الله فقط.

الفكرة المحوريَّة في الصوم هي الإنكار الطوعيُّ لوظيفة طبيعيَّة من أجل خاطر نشاط روحيٍّ قويّ. تذكَّر بالتأكيد أنَّه لا يوجد شيءٌ خطأ في هذه الوظائف الطبيعيَّة في الحياة– لكن توجد أوقات نحتاج لأن نُنحِّيها جانبًا لكي نتمكَّن من التركيز. عندما ننظر إلى الصوم من هذا المنظور، يمكننا أن نرى منطقيَّته وأبعاده الأوسع. مثلًا، هناك احتياجٌ كبيرٌ اليوم لأن نتعلَّم الصوم عن الناس. أغلبنا لديه ميل إلى التهام الآخرين، وعادة ما نُصاب بعسر هضمٍ شديد نتيجةً لذلك. لذا أقترح أن نصوم عن الناس بعض الوقت، ليس لأنَّنا نُعادي المجتمع، بل لأنَّنا نحبُّ الآخرين محبَّة مقصودة، وعندما نكون معهم نريد أن نكون قادرين أن نعمل لمصلحتهم، لا أن نسبِّب لهم ضررًا. قال توماس ميرتون (Thomas Merton): ''في الاختلاء العميق أجد اللطف الذي به أستطيع حقًّا أن أحبَّ الإخوة...الصمت والاختلاء يعلِّمانني أن أحبَّ إخوتي لما هم عليه، وليس لما يقولون''.[10]

نحتاج أيضًا إلى أوقاتٍ نصوم فيها عن وسائل الإعلام. من المدهش لي أنَّ كثيرين لا يستطيعون قضاء يومٍ كامل يُركِّزون فيه على شيءٍ واحدٍ دون قطع حبل أفكارهم باستمرار بطلبات ومقاطعات متعدِّدة. الصحف والمذياع والتلفاز، والمجلَّات*******...كلُّ شيءٍ يقطع تركيزهم. بعض الناس مستعبَدون تمامًا للتلفاز حتَّى إنَّهم إذا امتنعوا عنه يشعرون بأعراض انسحاب كالمدمنين. بالتأكيد، هناك وقتٌ مناسب لوسائل الإعلام المختلفة، لكنَّ هناك أيضًا وقتًا للاستغناء عنها.

يمكننا أيضًا أن نتعلَّم أن نصوم عن الهاتف. هذا الجهاز اختراعٌ رائع بلا شكٍّ، لكنَّ من الممكن أن يتوقَّف بعض الناس عن الصلاة للردِّ على الهاتف. هل يمكن أن تتخيَّل شيئًا أكثر سُخفًا؟ أريد أن أُخبركم بسرٍّ: نحن لا نحتاج إلى الردِّ على هذا الجهاز في كلِّ مرَّةٍ يرنُّ فيها أو يرسل إشعارًا. نحن لسنا عبيده، وإنَّما سادته. عندما يأتي الناس لزيارتنا، يجب ألَّا نهينهم ونقطع محادثتنا لكي نردَّ على الهاتف. في بيتنا، عندما نجلس لتناول الطعام أو عندما أقرأ قصصًا للأطفال، فإنَّني لا أردُّ على الهاتف. أُريد أن يَعلَم أطفالي أنَّهم أهمُّ من أيِّ اتِّصالٍ تلفونيّ. سيعاود الناس الاتِّصال إذا كانوا يريدوننا حقًّا.

حتَّى الآن تناولت الفقر الاختياريَّ، لكنَّني الآن أُريد أن أتناول خطوة أبعد فيه– وهي الشركة أو العيشة الجماعيَّة. ليست الشركة الجماعيَّة إلَّا التخلِّي عن المُلكيَّة الخاصَّة في سبيل المجتمع الأوسع.

على مدار التاريخ، ظهرت مجتمعاتٌ طوباويَّة ثُمَّ اختفت، بالطريقة نفسها التي ظهرت بها مجتمعات تنافسيَّة قاسية. ليس البقاء هو السمةَ الأهمَّ، بلِ الأمانة. لقد حاول الكثيرون تحقيق الشركة الجماعيَّة ووجدوا أنَّها معقَّدة لدرجةٍ كبيرة، في حين

وجدها آخرون محرِّرة. وبصفتها نموذجًا نبويًّا لعصرنا، قد تسمح طريقة العيش هذه بأبسط مستوًى للمعيشة. فتصير السلع التي تكفي أُسرة نواة صغيرة بصورةٍ معتادة تكفي رُبَّما عشرين شخصًا.

ومع أنَّ أساليب الحياة الجماعيَّة كانت موجودة على مدى قرون، فإنَّ الكيانات الأبرز منها هي الأدْيِرة الكاثوليكيَّة. وقد أصبح هناك في الآونة الأخيرة اهتمامٌ متزايدٌ من الجماعات المسيحيَّة بهذا التعبير عن الإيمان. ومِن الأمثلة المعروفة على ذلك: مجتمع كلمة الله في مدينة آن آربور في ميشيغان وكنيسة الفادي في هيوستن، تكساس. وليس من الصعب اكتشاف أسباب هذا الاهتمام الجديد. إنَّها مشاعر الاغتراب والوحدة، والاهتمام بالمسؤوليَّة البيئيَّة، والرغبة في تحقيق توزيعٍ عادلٍ لموارد العالم، والإحساس بالفرح النابع من التحرُّر من الامتلاك والرغبة في المشاركة بسبب التجديد الكاريزماتيّ.

يجب أيضًا أن نُدرك أنَّ حجم الأسرة النواة وشكلها يجعلان هذه الترتيبات المجتمعيَّة أكثر سهولة وجاذبيَّة. لم تمضِ سنواتٌ كثيرة على الوقت الذي كانت فيه الأُسَر الكبيرة الممتدَّة أمرًا شائعًا، حيث كُنَّا نرى الزوجين ولديهم نحو ستَّة أطفال ويعيشون أيضًا مع الجدود، ورُبَّما شخصٌ أو شخصان إضافيَّان، وهكذا نحصل على مجتمعٍ كبيرٍ نسبيًّا، من حيث الحجم والتعقيد. واليوم، يمكن أن تحصل أسرةٌ من ثلاثة أو أربعة على الكثير من المشاركة مع آخرين.

هناك صعوباتٌ كثيرةٌ في مثل هذه الترتيبات المجتمعيَّة: كيف يمكن تحقيق الخصوصيَّة؟ وكيف يمكن التعامل مع الأمور الماليَّة؟ كيف يُربَّى الأطفال؟ وهكذا. وبالرغم من أنَّ الحياة الجماعيَّة لها الكثير من الأسبقيَّة التاريخيَّة، فإنَّه لا يوجد الكثير من الأساس الكتابيِّ لها. رُبَّما القيمة الأعظم للمجتمع المسيحيِّ هي الأهمِّيَّة الرمزيَّة. فهي بهدوءٍ وبساطةٍ تشكِّك في ثقافة الوفرة السائدة في المجتمع وتشير إلى اتِّجاهٍ آخر.

التوحُّد بالفقراء والمساكين

هناك طريقةٌ أُخرى بها تتَّخذ البساطة هيئةً خارجيَّة، وهي التوحُّد الواعي بالفقراء والمنسيِّين. لقد مارس يسوع المسيح مثل هذا التوحُّد بصورةٍ متكرِّرة، ويجب علينا نحن أيضًا أن نفعل هذا. بالتأكيد سيتَّخذ التعبير الخاصُّ عن ذلك التوحُّد صورًا متنوِّعةً جدًّا، لكن لا شكَّ أنَّنا يجب أن ننخرط في ذلك العمل من أعمال المحبَّة.

كثيرون منَّا يحتاجون لأن يتبنَّوا قضايا المقهورين ويشهدون مآسيهم، وينادون بالعدالة. علينا أن ندافع عن قضايا الضعفاء أمام الأقوياء. وعلى المسيحيِّ تحديدًا أن يكون صوتًا لمن لا صوت لهم، ووجهًا مكشوفًا لمن يخشى أن يكشف وجهه أمام المجتمع ومواقع السلطة فيه. أليس هذا بالتحديد ما فعله موسى أمام فرعون؟ عندما نمثِّل المساكين أمام الأقوياء، نكون سُفراء عن المسيح.

كان الكويكرز في المناطق الجديدة في أميركا وسطاء ما بين الحكومة الفيدراليَّة وقبائل السكَّان الأصليِّين مطالبين بالعدالة. يقول جاك إلول (Jacques Ellul): ''إنَّني أتمسَّك بأنَّه في كلِّ موقفٍ من مواقف الظلم والقهر، يجب على المسيحيِّ– الذي يجب ألَّا يتعامل مع الموقف بالعُنف– أن يجعل نفسه طرفًا أصيلًا في القضية، ممثِّلًا للضحايا والمقهورين''.[11]

لكنَّ هناك تحذيرًا واجبًا هنا. يجب على المسيحيِّ أن يُدافع عن قضيَّة هؤلاء الذين هم بحقٍّ فقراء ومهمَّشين. في كثيرٍ من الأحيان، يبدو الأمر كما لو أنَّ لدى المسيحيِّين موهبةً خاصَّة في اختيار القضايا التي تكاد تكون قد انتهت، أو يناصرون أمورًا لديها آلافٌ من المناصرين. يجب أن نتجاوز التقارير الصحفيَّة (في واقع الأمر، عادةً ما تكون الصحف عقبات في

سبيل ذلك العمل) لكي نصل إلى المظلومين الحقيقيِّين. إذا أردنا أن نتوحَّد بالفقراء والمساكين، فإنَّنا سنهتمُّ بالحصول على المعلومات **الحقيقيَّة**. يذكِّرنا إلول أنَّ المسيحيِّين ''يجب أن يهتمُّوا بالأسى البشريِّ لدرجة بذل الجهد لاكتشاف من هُم بالحقيقة مفقودون قبل أن يفوت الأوان''.[١٢]

إنَّ هذه خدمة لا تُشكَر كثيرًا. إنَّنا نسعى إلى أن ننقاد بالروح القدس لكي نصل إلى المتروكين والعاجزين حقًّا. سنُدافع عن قضيَّة الذين ''لا يثيرون الاهتمام'' سياسيًّا. سنقدِّم أمام رؤساء المدن ورؤساء مجالس المدن قضايا أشخاصٍ يرغب الآخرون في إخفائها ''تحت البساط''. سنُزعج الناس بأمورٍ يحسبونها ''تافهة''. لكنَّ هذا هو المطلوب إن كُنَّا نريد أن نتوحَّد بالفعل بالفقراء والضعفاء والمنسيِّين.

من الطرق الأُخرى التي نتوحَّد بها بالفقراء والمساكين، أن نكون بينهم. هناك بعض الذين يقودهم الله لكي يجعلوا من ذلك دعوتهم في الحياة: وهي الحياة بين الفقراء والمعذَّبين. عاش ألبرت شڤايتزر (Albert Schweitzer) هذه الدعوة في أفريقيا، وهكذا أيضًا تويوهيكو كاغاوا في اليابان.

لكنَّ كثيرين منَّا سيدعوهم الله أن يعيشوا بين مُهمَلي الأرض بطرقٍ دراميَّة بصورةٍ أقلّ. سنتجاوب مع تشجيع الروح القدس لنا لنزور السجون والمستشفيات، ودور المسنِّين والمُحتضَرين، والمستشفيات النفسيَّة. سنُدرِّس الأطفال المحرومين من المهارات الأساسيَّة. وسنمضي الوقت في اللعب مع الطفل الجالس على الرصيف وحده الذي لا يجد مَن يلعب معه.

يحتاج أطفالنا لأن يشتركوا معنا في هذه الخدمة. إنَّنا لا نسديهم معروفًا عندما نحجب عنهم الألم والاحتياج الذي في هذا العالم. وإذا كنَّا نبقيهم في أحياءٍ معزولة من الغنى والوفرة، فكيف لهم أن يتعلَّموا الشفقة على المنكسرين في هذا العالم؟ لذلك لنتَّجه يدًا بيدٍ مع أطفالنا إلى جيوب اليأس والمعاناة في عالمنا.

يمكننا أن نكتشف إحدى الوسائل المحدَّدة للتوحُّد مع الفقراء والمساكين بالتوجُّه نحو التعليم. هل نرى أنَّ التعليم الجامعيَّ، مثلًا، تذكرةٌ للحصول على الامتيازات في هذا العالم، أم تدريبٌ لخدمة المحتاجين؟ ما الذي نعلِّمه لمراهقينا في هذا المجال؟ هل نحثُّهم على الدخول في الجامعات لأنَّها ستُعِدُّهم إعدادًا أفضل للخدمة؟ أم نحاول أن نرشيَهم بوعود المكانة المتميِّزة في المستقبل والرواتب العالية؟ لا عجب أنَّهم يتخرَّجون وهم مهتمُّون بمستوى معيشتهم أكثر ممَّا يهتمُّون بالمعاناة التي في العالم.

إذا كُنَّا نريد أن نقتفي آثار خطوات يسوع، فإنَّنا سننجذب نحو الفقراء. وعندما نفعل ذلك، فرُبَّما هناك سؤالٌ قيِّمٌ يجب أن نضعه نصب أعيننا هو ما إذا كُنَّا مستعدِّين لأنْ نقارن مستويات معيشتنا باحتياجات الفقراء عوضًا عن مستوى معيشة جيراننا.

اقتراحات عمليَّة ممكنة

من الممكن أن تكون قد وجدتَ هذا الفصل محبِطًا جدًّا ورُبَّما تظنُّ أنْ لا صلة له تمامًا بحياتك. قد تكون قرأت أفكارًا عظيمةً عن العطاء والخدمة، والعزوبة والحياة الجماعيَّة، تركَتْكَ تشعر بأنَّك في الحضيض من حيث الخدمة، وقد لا تكون متأكِّدًا أنَّك تريد هذه الأشياء، فضلًا عن قدرتك أن تقوم بها أصلًا. شعرتُ وما زلت أشعر بالشعور ذاته.

يجب ألَّا نيأس من كوننا ما نزال على سفح الجبل. لا يمكن الوصول إلى قمَّة المرتفع من خطوةٍ واحدةٍ. لذلك فإنَّني أختم هذا الفصل ببعض الاقتراحات العمليَّة الممكنة والمتاحة لنا جميعًا.

أوَّلًا، أسِّس في حياتك عادة الكلام البسيط الأمين. احذفْ جُمَلًا مثل ''أكاد أموت من الجوع'' وغيرها. فمثل هذا الكلام غير حقيقيٍّ ويحجب حقيقة أنَّ هناك كثيرين بالفعل يكادون يموتون من الجوع. عندما تكون جائعًا، قُلْ إنَّك جائع واحتفِظ بكلمة ''المجاعة'' لتشير إلى المجاعات الحقيقيَّة. اجعَل من الأمانة والاستقامة السمات المميِّزة لكلامك. ارفُض الكلام المموَّه والتكهُّنات الفارغة التي عادة ما يكون الهدف منها إخفاء الحقائق والإبهار بدلًا من تقديم المعرفة والاستنارة الحقيقيَّة.

إنَّنا نحصل على بساطة الكلام عندما ينبع كلامنا من مصدرٍ واحد. كتب سورين كيركيغارد: ''إذا كنت مطيعًا لله بالتمام، فعندئذٍ لن يكون فيك غموضٌ...وتصير بسيطًا أمام الله...يوجد شيءٌ واحدٌ يجعلنا بمنأى عن كلِّ خبث الشيطان وفخاخ تجاربه المفاجئة، وهو البساطة''.[١٣]

ثانيًا، دوِّن سيرة المال في حياتك. وأعني بذلك أن تُفكِّر مثلًا في مكانة المال في طفولتك. ما نظرة والديك نحو المال؟ هل أمضيت حياتك تشعر بأنَّك محرومٌ ماديًّا أم مُتنعِّم؟ كيف تؤثِّر هذه المواقف الماضية فيك اليوم؟

تأمَّل في توجُّهاتك المتغيِّرة تجاه المال عبر السنين. ما التأثيرات التي تسبَّبت في هذه التغييرات؟ هل كانت تغييرات جيِّدة أم سيِّئة؟

افحَصْ مشاعرك. هل تخاف من المستقبل؟ هل يعدُّ المال مصدرًا للأمان لك؟ هل تشعر بالذنب حيال ما تنفقه من مال؟

تأمَّل في شخصيَّتك. هل أنت من النوع المغامر أم من النوع الذي يُفضِّل الحيطة والحذر؟ كيف يؤثِّر ذلك في علاقتك بالمال؟

ثالثًا، حاول أن تجد طرقًا جديدةً وخلَّاقة للتواصل مع الأرض التي نعيش عليها. استمتِع بالتنوُّع الهائل للألوان من حولك. استمِع إلى الطيور– إنَّها رسلٌ من الله. تمشَّ أينما تستطيع. استمتِع بملمس النجيل والأوراق. ازرَع الزهور أو الأشجار في حديقتك أو شرفتك وأعِد اكتشاف الآية: ''للرَّبِّ الأرضُ ومِلؤُها. المَسكونَةُ، وكُلُّ السَّاكِنينَ فيها'' (مزمور ٢٤: ١).

رابعًا، تعلَّم أن تستمتِع بالأشياء دون أن تمتلكها. يمكن أن يصير الامتلاك نوعًا من الهوس في ثقافتنا. إذا امتلكنا شيئًا، فإنَّنا نشعر بأنَّنا قادرون أن نسيطر عليه، وإذا سيطرنا عليه، فإنَّه سيقدِّم لنا المزيد من المتعة. هذه الفكرة فكرة وهميَّة. هناك أشياء كثيرة في الحياة يمكننا أن نستمتع بها دون أن نمتلكها أو نتحكَّم فيها. إنَّنا نحصل على فائدة عظيمة من ''المُلكيَّة المشتركة'' لأشياءٍ كثيرة: المدارس والمباني العامَّة والحدائق العامَّة والأنهار والشواطئ العامَّة والطرق. لنتعلَّم أن نستمتع بجمال الشاطئ دون هوس أن نمتلك جزءًا منه. هناك الكثير من الأشياء يمكننا أن نشاركها مع الجيران والأصدقاء. في بعض الثقافات، يمكن أيضًا أن تكون هناك مُلكيَّة مشتركة للأراضي. تبرَّع ببعض الأشياء فقط لتحصل على الشعور بالتحرُّر من وَهمِ أنَّ السعادة في الامتلاك.

خامسًا، نمِّ عادة الاحتفالات المنزليَّة. هناك تنوُّعٌ لا حصر له للأشياء التي يمكن أن تفعلها من الأنشطة التي يمكن أن تجلب الكثير من المتعة وتُقرِّب أعضاء الأسرة بعضهم إلى بعض. تكلَّموا بعضكم إلى بعض. حتَّى الأطفال الصغار يمكن أن يقصُّوا أكثر القصص تسليةً وإثارةً إذا استمعنا إليهم. اقرأوا كُتُبًا بصوتٍ مسموع بعضكم لبعض. إنَّ هذه الأوقات التي نقضيها معًا يمكن أن تجعل من تجارة الترفيه التي يعجُّ بها المجتمع الحديث تبدو باهتة ورخيصة بالمقارنة– وهي بالفعل كذلك.

قدِّموا دعوةً إلى الجيران وغيرهم ممَّن يعانون الوحدة، لكي ينضمُّوا إليكم– فلن يعضُّوكم! ومن فضلك، لا تجعل من الأمر عبئًا كبيرًا حتَّى إنَّك في نهاية الأمسيَّة تسقط مُجهَدًا وتقرِّر أنَّك لن تفعل ذلك مجدَّدًا. كيف يمكنك أن تستمتع بالناس إذا كنت دائمًا تريد إبهارهم؟ إنَّ الضيافة الحقيقيَّة أكثر بساطة وأكثر استرخاءً.

سادسًا، علِّم أطفالك بالكلام وبالقدوة عن الجوانب المختلفة للبساطة، بما في ذلك استخدام المال. في ما يتعلَّق بالإنفاق، ارسُم خطوطًا وحدودًا واضحةً لن تتخطَّاها. إنَّ ثقافتنا تدرِّب أولادنا أن يرغبوا في كلِّ ما تقع عليه عيونهم في المتاجر. إنَّك لا تُحسن صنعًا إليهم عندما تستسلم لإلحاحهم المستمرِّ ومطالبهم التي لا تنتهي. يجب أن تحميهم، برفق وبحزمٍ من حُمَّى الاستهلاك. يحتاج الأطفال المدلَّلون إلى الانضباط. إنَّها إساءة رهيبة في حقِّ الأطفال ألَّا نضع حدودًا واضحة أمامهم. اشترِ لأطفالك ما يحتاجون إليه، فيتعلَّمون مع الوقت أن يريدوا ما يحتاجون إليه بالفعل.

درِّب أولادك أن يتحكَّموا في أنفُسهم. كنَّا نعطي مصروفًا لوَلَدَينا لكي ندرِّبهما على إدارة المال. طوال سنوات نموِّهما، كُنَّا نعطيهما ضعف عمرهما من السنتات: مثلًا، عندما كانا في السادسة والتاسعة، كان طفل السادسة يحصل على ١٢ سنتًا في اليوم وطفل التاسعة على ١٨ سنتًا. لكن كان عليهما أن يعملا من أجل الحصول على ذلك المال. كانا يخسران خمسة سنتات عن كلِّ مهمَّة متروكة، لكن لم يكن ممكنًا أن ينزلا عن الصفر ويصبحا مديونَين. كما قرَّرنا أيضًا أنَّ من المهمِّ للولدَين أن تكون لهما مهامٌّ يقومان بها لأنَّهما فردَين في الأسرة دون الحصول منها على مقابل. كان لكلِّ طفلٍ ثلاثة بنوك: واحد للإنفاق، وواحد للادِّخار، والثالث للتبرُّع. كان مطلوبًا منهما أن يدَّخرا ١٠٪، والتبرُّع بالقدر ذاته. أمَّا الباقي، فكُنَّا نقرِّر معًا كيفيَّة إنفاقه. في السنين الأولى، كنتُ أدفعُ قيمة ضروريَّاتهما، وكانا هما يدفعان قيمة الأمور الترفيهيَّة. مع الوقت، رفعنا مصروفهما وكُنَّا ندفع نصف ضروريَّاتهما. ثُمَّ لاحقًا، أصبحا ينفقان على نفسَيهما تمامًا. ولأنَّنا عمِلنا معهما بالتدريج لكي يصلا إلى الحكم الذاتيِّ، أصبح كلٌّ منهما بحلول السادسة عشرة يدير دخله بنفسه باستثناء السكن والطعام. وعندما وصلا إلى سنِّ الثامنة عشرة، كانا قد حصلا على ما يكفي من الحكمة والمشورة والخبرة لكي يكونا حكيمَين ومسؤولَين عن استخدام المال (وكانت، عمومًا، لدينا الحكمة الكافية أن نمنع أنفسنا من التدخُّل في قراراتهما، ونتوقَّف عن إعطائهما النصائح إلَّا إذا طلباها). مع أنَّ الترتيبات المذكورة آنفًا كانت ممكنة، فإنَّها لم تكن مثاليَّة بلا أخطاء. فقد اختلفنا أكثر من مرَّة عمَّا هو ضروريٌّ وما هو رفاهية. ارتكبنا كثيرًا من الأخطاء، لكنَّ رغبتنا كانت أن نساعد ولدَينا لكي ينميا في فهمهما لقيمة المال والطريقة السليمة لاستخدامه.

سابعًا، حاوِلْ أن تطيع مشورة جون وولمان: ''أسكِت أيَّة حركة ناشئة من محبَّة المال''.[١٤] إنَّ محبَّة المال أمرٌ مخادعٌ– عادةً ما يكون أكثر مَن يحبُّون المال هم مَن يمتلكون أقلَّ قدرٍ منه. راقبْ تناميَ محبَّة المال داخلك عندما تنمُّ عن الخطر، واسكُن هادئًا في قوَّة الله حتَّى تنتصر عليها. لا تحاول أن تناقش الرغبة، كُنْ صامتًا وهادئًا. اسمَح لفيضان المحبَّة والنور أن يغلب فيضان الطمع والخوف. إذا بقيت هادئًا بين يدي المسيح، فستكتشف أنَّ الخير يتنامى والشرَّ يتناقص.

ليست مهمَّة بسيطة أن نحاول أن نستكشف التعبيرات الخارجيَّة للبساطة المسيحيَّة. سيكون من السهل جدًّا أن نرتكب الأخطاء في الاتِّجاهين، إمَّا التحكُّم الزائد عن اللازم، وإمَّا الإسراف. رُبَّما تساعدنا مشورة وليَم پن للتقليل من هامش الخطأ عندنا: ''إنَّ التقشُّف يكون جيِّدًا إذا كان السخاء مصاحبًا له. الأوَّل هو أن نترك النفقات الزائدة، والثاني أن نعطيها لتسديد احتياجات الآخرين''.[١٥]

****** يوتوبيا هي المدينة الفاضلة عند أفلاطون (الناشر).

******* كُتب هذا الكتاب قبل انتشار وسائل التواصل الاجتماعيّ. ويجدر إدراجها إلى جانب وسائل الإعلام التي كانت تستحوذ على وقت المرء وتركيزه قبل بضعة

عقودٍ مثلما تفعل وسائل التواصل الاجتماعيّ اليوم (المترجم).

٩

البساطة الجماعيَّة: الكنيسة

''لقد شعرتُ بأنفاسٍ رقيقةٍ في روحي وهي تسعى نحو الله...وتملَّكتني رغباتٌ قويَّة من أجل عائلته، الذين يعرفون تحرُّكات الروح القدس، أن يتحرَّروا من محبَّة المال، ومن تلك الروح التي تجعل الناس يطلبون المجد بعضهم من بعض، وأن يضعوا دائمًا نصب عيونهم، في كلِّ أمورهم وتجارتهم، سواء في البرِّ أم في البحر، مجيء ملكوته على الأرض كما في السماء''.

جون وولمان (John Woolman)

المجهودات الفرديَّة جيِّدة بالتأكيد، لكنَّها دائمًا محدودة. هناك أمورٌ يمكن أن نقوم بها معًا. لقد رتَّب الله الحياة البشريَّة بحيث نحتاج بعضنا إلى بعض لكي نصل إلى كلِّ ما هو مطلوبٌ منَّا. نحن نحتاج بعضنا إلى بعض لكي نعرف معنى أن نحبَّ الله، ونحتاج إلى مساعدة بعضنا بعضًا لكي نعرف معنى أن نحبَّ القريب. المسيحيَّة الفرديَّة تعريفٌ متناقض.

في الأصحاح الثاني عشر من رسالة رومية، يرسم الرسول بولس صورة جميلة عن مجتمعٍ من الناس يعيشون في بساطة. هذه الفقرة الموضوعة في إطار تعليم عن مواهب الروح القدس، تُقدِّم فهمًا عمليًّا عميقًا عن الطريقة التي بها ينبغي أن نعيش. علينا أن نعطي بسخاءٍ لاحتياجات القدِّيسين ونمارس كرم الضيافة المعتاد. ينبغي أن نكون متداخلين في احتياجات بعضنا بعضًا، حيث نفرح مع الفَرِحين ونبكي مع الباكين. وعلينا أن نتعامل مع الفروق الطبقيَّة بطريقة تُمكِّننا بحُرِّيَّة أن نكون بين البسطاء وننقاد نحو المتَّضعين. علينا أن نتخلَّى عن عمل الأشياء بطريقتنا، ونهتمَّ بما يمكن أن يبني الشركة المسيحيَّة. علينا أيضًا أن نعيشَ بسلامٍ وتناغم، فلا ننتقم، ونثق بالربِّ على الدوام. يا له من نموذجٍ جذَّابٍ للبساطة لنقتدِ به!

الخدمة التعليميَّة للكنيسة

تعدُّ خدمة التعليم في الكنيسة من أكثر الاحتياجات إلحاحًا في الصراع المعاصر من أجل البساطة. يوجد جهلٌ مُطبِقٌ بالحقائق الأوَّليَّة عن البساطة الداخليَّة والخارجيَّة على حدٍّ سواء. يحتاج الناس أن يعرفوا الحقَّ حتَّى يحرِّرهم. يمكن أن نقدِّم إسهامًا قيِّمًا بتشجيع رُعاتنا أن يقتحموا مثل هذه الموضوعات. يمكننا أن نجعلهم يعرفون أنَّنا شخصيًّا نصارع لكي ندرك معنى أن نكون مواطنين مسؤولين في عالمٍ جائع، وأنَّنا نرحِّب بتعليمهم وإرشادهم وبصيرتهم.

كما يمكن أن نجعل رعاتنا يعرفون بأمانتنا وانفتاحنا أنَّنا مستعدُّون ومتقبِّلون منهم أن يفتحوا مثل هذه الموضوعات الخِلافيَّة، وأنَّنا مستعدُّون أن نقبل أن نواجه التحدِّي في أمورٍ نعدُّها مصالحنا الخاصَّة، لأنَّنا نريد الحقَّ أكثر من مصالحنا الخاصَّة هذه.

هذا التشجيع يمكن أن يكون مفيدًا جدًّا. إنَّ الرعاة، مثلنا جميعًا، لا يستمتعون بتقديم عظاتٍ ورسائلَ مثيرةٍ للخلاف ولا تتمتَّع بالشعبيَّة. من المشجِّع لهم أن يعرفوا، على الأقلِّ، أنَّ هناك مَن هم مستعدُّون للترحيب بتقديم الحقِّ في هذه الأمور،

مقرونًا بالدراسة العميقة، والصلاة الأمينة.

يحتاج الرعاة أيضًا لأنْ يتشجَّعوا أن يشاركوا الحقَّ بجسارةٍ ولطف. إنَّ الناس يحتاجون إلى الحقِّ، وليس من مصلحتهم أن نُبقيهم جاهلين. يحتاجون إلى الحُرِّيَّة التي تأتي من نعمة البساطة. وإذا كان واجبًا علينا أن نقدِّم لهم تعاليم كلمة الله بأكملها، فعلينا أن نهتمَّ بهذه الأمور التي تستعبد الناس بقسوة. قيل عن مارتن لوثر إنَّه قال: ''إذا كرزتَ بكلِّ جوانب الإنجيل في ما عدا الأمور التي تتعامل بالذات مع قضايا عصرك، فإنَّك لم تكرز بالإنجيل بتاتًا''.[١] وبالنظر إلى البيئة العالميَّة الحاليَّة، فإنَّ الجوانب المتعدِّدة للبساطة هي من الأمور التي تحتاج لأن نوليها الآن اهتمامًا خاصًّا في تعليم الكنيسة وخدمتها.

يجب علينا أن نعلِّم بكلِّ جرأةٍ عن العلاقة الجوهريَّة بين جوانب البساطة الداخليَّة والخارجيَّة. يجب ألَّا نسمح للناس بعد الآن بأن ينخرطوا في ممارسات تقويَّة مفصولة عن الحقائق الاجتماعيَّة القاسية في الحياة. وفي الوقت نفسه، ينبغي ألَّا نقدِّم شهادةً اجتماعيَّة قويَّة خالية من الحيويَّة الروحيَّة الداخليَّة. إنَّ وعظنا وتعليمنا يجب أن يقدِّما هذَين الجانبَين في اتِّحادٍ عضويٍّ لا ينفصم. إذا كان تعليمنا متمحورًا حول النصِّ الكتابيِّ، فسنجد حرفيًّا مئات الأمثلة– مِن أبي الآباء، إبراهيم، إلى القدِّيس يوحنَّا، ومن نصوص الحكمة إلى الكتابات الرؤيويَّة.

رُبَّما تكون قد شعرتَ بالإرهاق والملل بسبب تركيزي المستمرِّ على هذا الأمر، لكنَّ الاحتياج إلى مِثل هذه الرسالة المتكاملة اليوم أصبح واضحًا بقدر ما أصبح غيابها مخيفًا. ومن المؤكَّد أنَّ هذه هي السمة المميِّزة للكتابات الكلاسيكيَّة في هذا الموضوع، والسمة الأكثر غيابًا في الكتابات المعاصرة. خُذ مثلًا كتاب فرنسيس دي سال ''**مقدِّمة إلى الحياة المكرَّسة**'' *(Introduction to the Devout Life)* الذي يتضمَّن إرشاداتٍ بشأن التأمُّل والصلاة والاتِّضاع والاختلاء، علاوةً على المشورة بشأن الثراء والفقر والملابس وبساطة الكلام. أو كتاب وليَم لو *(William Law)* بعنوان ''**دعوةٌ جادَّةٌ إلى حياة مكرَّسة ومقدَّسة**'' *(A Serious Call to a Devout and Holy Life)* الذي فيه ثلاثة فصولٍ عن الأمور الاقتصاديَّة موضوعةٍ وسط الكلام حول التدريبات التكريسيَّة. أو كتاب ريتشارد باكستر (Richard Baxter) ''**دليلٌ إلى الحياة المسيحيَّة**'' *(A Christian Directory)* الذي يقدِّم إرشاداتٍ عمليَّة عن الصلاة والإيمان، والمحبَّة والخضوع، علاوةً على إدانة خطيَّة الظلم الاجتماعيِّ، وبشجاعة يضع برنامجًا للأخلاقيَّات الاقتصاديَّة. هذا الاتِّزان الرائع في الكتابات القديمة بين الداخليِّ والخارجيِّ، بين التكريس الروحيِّ والفعل العمليِّ، يتجسَّد بصورة جيِّدة جدًّا في كلمات برنارد دي كليرڤو (Bernard of Clairvaux): ''مرثا ومريم أختان''.[٢] في واقع الأمر، إنَّ من أفضل الطرق التي تساعدنا أن نرى الارتباط الأصيل بين البساطة الداخليَّة والخارجيَّة هو أن نَدرس في كنائسنا بعضًا من هذه الكتابات الكلاسيكيَّة المسيحيَّة حول الموضوع.

موضوعٌ ثانٍ نحتاج لأن يُعلَّم في الكنائس هو الأُسس الكتابيَّة واللاهوتيَّة للعدالة. يجب أن ننتبه مجدَّدًا إلى رسالة الأنبياء. هل نحن مستعدُّون لنُطبِّقَ على عصرنا النقد الاجتماعيِّ اللاذع الذي قدَّمه عاموس النبيُّ؟ هل نستطيع أن نستمع إلى الدعوة الملتهبة التي يوجِّهها إشعياء إلى الشعب نيابةً عن الفقراء والضعفاء؟ هل ننتبه إلى الإدانة العاصفة التي يدين بها النبيُّ ميخا الظلم والفساد الاجتماعيَّين؟ هل نحن مستعدُّون لنسمع يونان وهو ينادينا أن نكون مواطنين منتمين إلى العالم كلِّه ونحمل المسؤوليَّة الإرساليَّة؟ سيدفعنا الإصغاء **بحقٍّ** إلى الرسالة الكتابيَّة حول العدالة نحو قضايا الفقر والجوع المعاصرة بلا أدنى شكّ.

قضيَّةٌ أُخرى تحتاج إلى دراسة جادَّة وتعليم متعمِّق هي الالتزامُ الإرساليُّ الموضوع على كنيسة يسوع المسيح. فمع كلِّ المؤتمرات الإرساليَّة للكنائس، فإنَّ المعرفة تظلُّ في هذا المجال ناقصة بصورةٍ مأساويَّة. يحتاج المرسلون لأن يكفُّوا عن

إصابتنا بالملل بالأفلام ذات الألوان المُبهرة التي يصوِّرونها عن رحلاتهم الإرساليَّة ويدخلوا عُمق فهمِ لاهوت الإرساليَّات، والدراسة الاجتماعيَّة لحركة الشعوب، والدراسة الأنثروبولوجيَّة للكرازة عبر الثقافات. ما من شيءٍ سيدفعنا نحو تبسيط حياتنا أكثر من الفهم الواضح لمسؤوليَّاتنا نحو الكثير من ''الثقافات المختبئة'' الموجودة على سطح الأرض والتي لم تصل إليها أيَّة شهادةٍ مسيحيَّة.

وموضوعٌ رابعٌ يحتاج إلى دراسة جادَّة هو العلاقة بين البساطة والسلام، أو بالعكس بين الطمع والحروب. هل أدَّى تراكم الرفاهيات والثروات إلى زرع بذور الثورة والخراب؟ إلى أيِّ حدٍّ تُستخدَم قوَّة السلاح لحماية الوضع المميَّز للأثرياء، والإبقاء على الفقراء خارج دائرة تحقيق المكسب؟ هل ينبع السلام طبيعيًّا من حياة البساطة؟ هذه وغيرها من الأسئلة المشابهة تحتاج إلى التفكير الدقيق المصحوب بالصلاة.

في خدمة التعليم، نحتاج أيضًا لأنْ نُعيد التفكير في عقيدة العمل لدينا. إنَّ الهدف من العمل ليس الحصول على الثروة والممتلكات، بل خدمة المصالح المشتركة للبشر وتمجيد الله. حتَّى الپيوريتانيُّون (Puritans)، الذين اتُّهِموا بتبنِّي أخلاقيَّات عمل كئيبة، كانوا يرون العمل فرصة لتعزيز المصلحة العامَّة بدلًا من إشباع الطموحات الأنانيَّة. كان ريتشارد باكستر، أحد أعظم قادة الپيوريتانيِّين، يحثُّ تلاميذه أن يختاروا الوظائف التي فيها نقدِّم أفضل خدمة لله. يقول باكستر: ''لا تخترْ تلك الوظيفة التي فيها ستحصل على أعلى درجات الكرامة أو الثراء في هذا العالم، لكن اختَر التي تتيح لك تقديم أفضل ما تستطيع من الخير، وتكوِّن أفضل طرقٍ للابتعاد عن الخطيَّة''.[٣]

إنَّ البساطة تقاوم بشِدَّة كلًّا من الكسل وإدمان العمل. يجب امتداح الاجتهاد والإخلاص، لكنَّ الاستعباد الإدمانيَّ هو خطيَّة. تدعونا البساطة إلى الخروج من أسلوب الحياة الذي يقول: ''هيَّا، هيَّا! المزيد، المزيد!''. وإذا كان علينا أن نُعلِّم الآخرين أن يعيشوا السلام والقوَّة الناتجة من الحياة غير المتعجِّلة، فعلينا أن نُظهِر ذلك في حياة الكنيسة. إذا كُنَّا نؤمن بتماسك الأُسرة، فيجب علينا أن نساعد الأُسَر أن تجتمع معًا في الأمسيَّات بدلًا من الخمسة والعشرين اجتماعًا للِّجان المختلفة. إنَّ مثل ذلك النشاط المحموم يعدُّ خطيَّة، ويجب أن نكون مستعدِّين لقول ذلك. أن يبذلَ الإنسان نفسه في قضيَّة المسيح فهذا أمرٌ يختلف تمامًا عن ذلك النشاط المحموم الذي تتميَّز به الكنيسة المعاصرة.

إذا كُنَّا جادِّين بشأن التعليم عن البساطة المسيحيَّة، فيجب أن نخاطِب اللاهوت الشائع عن الثروة. هذا اللاهوت يتَّخذ أشكالًا متعدِّدة، لكنَّه يدور حول الشيء ذاته دائمًا، وهو أنَّ الله سيباركنا مادِّيًّا أكثر من أكثر أحلامنا جموحًا. يحتوي هذا التعليم على حقيقة مهمَّة؛ فالله بالفعل يريد أن يبارك أولاده. لكنَّ المشكلة الحقيقيَّة تكمُن في إدراك السبب الذي من أجله يباركنا الله. ليست بركة الله من أجل تعظيم الإنسان، ولكن لكي يستفيد ويُفيد غيره، يتبارك ويبارك كلَّ أمم الأرض. إنَّ هذا الفهم يصنع كلَّ الفرق. لاهوت الوفرة والثروة يقول: ''أُعطي لكي آخذ''. أمَّا البساطة المسيحيَّة، فتقول العكس: ''آخذ لكي أُعطي''. والفرق بينهما عميق.

إنَّ الخطأ المميت في كلِّ هذه الخطط قصيرة النظر، التي فيها نُقدِّم إلى يسوع لكي يجعلنا أثرياء، هو الخطأ نفسه في تلك ''الرسائل المتسلسلة'' التي تعدك أن تصبح ثريًّا إذا دفعت مبلغًا وأرسلت تلك الرسالة إلى عشرة أشخاص–هناك من سيدفع الثمن. وببساطة، ولأنَّ موارد العالم محدودة، عندما تكون ثريًّا، فهذا يعني فقر الآخرين.

البقرة المقدَّسة

لقد تأمَّلتُ كثيرًا في تلك الرغبة الدائمة في الكنيسة نحو الأكبر والأفضل والمزيد. لا أقول إنَّ هذا سيِّئ، لكنَّني أتعجَّب

منه. إنَّني أسمع، كما تسمعون أنتم أيضًا بالتأكيد، وعَّاظ الإذاعة والتلفاز وطلبهم المتكرِّر للمال من المستمعين والمشاهدين. وأتلقَّى، كما أنَّني متأكِّد أنَّكم أيضًا تتلقَّون، الرسائل التي تشرح العمل العظيم الذي يعمله الله بواسطة مُرسِلي الرسالة، وتطلب المزيد من المال لمضاعفة ذلك العمل العظيم. ودائمًا ما يقولون إنَّ الله هو الذي أَلْهَمَ هذه المجموعات لطلب المزيد من المال. أتكلَّمُ في هذا الأمر بحذرٍ وتفهُّم لأنَّني، بكلِّ صراحة، لستُ تحت مسؤوليَّة جمع كمٍّ كبيرٍ من المال. لكن أليس من الممكن أن يقودنا الله في بعض الأحيان لكي نطلب الأقلَّ وليس المزيد؟ فقط أتمنَّى أن أسمع مرَّة واحدة أحد القادة المسيحيِّين يقول: ''يا أحبَّاء، لقد أحسن الله إلينا كثيرًا، وعندما صلَّينا بشأن المستقبل، بدا كأنَّه يريدنا أن نوصيكُم أن تعطوا الالتزام الماليَّ الشهريَّ الذي اعتدتم تقديمه إلى خدمتنا، إلى الفقراء''. أليس من الممكن أن يقود الله في هذا الاتِّجاه في بعض الأحيان؟ أعلم أنَّ مثل هذه الفكرة تبدو ساذجة، وبالتأكيد ليست استراتيجيَّةً فعَّالةً لجمع المساعدات الماليَّة، لكنَّ الطاعة أولويَّة أكبر من أيِّ برنامجٍ أو ميزانيَّة، وامتداد ملكوت المسيح أكبر، وله تأثيراتٌ ونتائج أكبر بالتأكيد من برامجنا ومشاريعنا الصغيرة.

يجب أيضًا أن أقدِّم كلمةً بشأن التقنيات التي يستخدمها الناس في جمع التبرُّعات للمشاريع الكنسيَّة. إنَّ إخبار الناس بالاحتياجات الحقيقيَّة شيء، أمَّا تعمُّد تنظيم الحملات التي تضغط لطلب التمويل بصورةٍ عاجلةٍ ومُلِحَّةٍ للوصول إلى أكبر قدرٍ من التجاوب، فذلك شيءٌ آخر. كما أنَّ التعليم عن الضرورة الروحيَّة للعطاء شيء، أمَّا استخدام التقنيات النفسيَّة المثبت أنَّها تزيد من العطاء، بغضِّ النظر عن الحالة الروحيَّة للمُعطي، فشيءٌ آخر. العطاء لمجرَّد العطاء ليس فضيلةً مسيحيَّة. العطاء بواسطة النموِّ الروحيِّ للمعطي يختلف عن العطاء بسبب شعوره بالذنب. كما أنَّ مُساعدة الناس ليفهموا مسؤوليَّتهم تجاه قضايا العدالة والكرازة، تختلف عن محاولات مداهنتهم بالوعود والمناورة بمشاعرهم.

يصل جمع التبرُّعات إلى آخر مداه عند إخبارنا بصورةٍ كافية عن الاحتياج. أمَّا إقناع القلوب، فهو مجال عمل الروح القدس، ويجب ألَّا نجرؤ على اقتحام أرضه. ولكي أكون أمينًا تمامًا، لن أقرأ بعد الآن رسائل طلب التمويل التي تأتي فيها العبارات المناسبة باللون الأحمر المميَّز، والتي تَعِدُ أن تعطيني ميداليَّة خاصَّة إذا تبرَّعت، فضلًا عن الرسائل التي تضمِّن رسالةً بخطِّ اليد (وإن كانت مصوَّرة عن الأصل) فيها رجاءٌ أخير، في حالة قرَّرت رفض الطلب. إنَّني بكلِّ حزنٍ أرفض أن أقرأ مثل هذه الرسائل؛ لأنَّني متأكدٌ أنَّها عادةً ما تكون طلبات تمويل من أجل قضايا جيِّدة جدًّا، لكنَّ الأسلوب تغيَّر من مشاركة المعلومات، إلى محاولة التأثير النفسيّ.

وفي إطار اهتمامنا ببساطة الكلام، أحبُّ أيضًا أن أفتح موضوع تسمية مباني كنائسنا. أعتقد أنَّ هناك صِدقًا أعمق في تسمية مبانينا باسم المدينة أو الشارع التي تقع فيه هذه المباني. أمَّا التسميات الوصفيَّة مثل كنيسة ''الكتاب المقدَّس المفتوح'' أو ''الإنجيل الكامل'' أو غيرها، فتوحي بطريقةٍ غير مباشرة أنَّ كنائس الآخرين هي كنائس ''الكتاب المقدَّس المغلق'' أو ''الإنجيل الناقص''. علاوةً على ذلك، تُساعدنا أسماء مثل ''كنيسة شارع «كذا» الأسقفيَّة'' أو ''كنيسة مدينة «كذا» المعمدانيَّة'' أن نربط هُويَّتنا بالتزامنا تجاه المنطقة والمجتمع المحلِّيِّ الذي نستهدف خدمته.

أودُّ أن أستمرَّ قليلًا في تحذيرنا بشأن تسميتنا لمجموعات الشركة المسيحيَّة. سألني أحد الأشخاص ذات مرَّة عن اسم المجموعة الصغيرة التي أنتمي إليها والتي كانت تحاول أن تختبر مفهومًا أعمق للحياة المجتمعيَّة. فأجبتُ: ''أعتقد أنَّه من الأفضل أن نحاول أن نعيش الشيء قبل أن نحاول تسميته''. ثُمَّ سرعان ما وجدتُ أنَّ هذه الإجابة كانت في مكانها، حيث إنَّ ذلك الشخص كان ينتمي إلى مجموعةٍ اسمها ''بيت الوحدة''، وهي مجموعة لم تختبر الوحدة بتاتًا. أعلم أنَّ التسمية تعدُّ طريقةً لوصف ما تريد المجموعة التأكيد عليه، لكنَّني في الوقت نفسه مهتمٌّ ألَّا ندَّعي ما لا نستطيع تقديمه. النمط

المعتاد في الكتاب المقدَّس هو أن يُعطى اسمٌ جديد للشخص بعد أن يحدث فيه التغيير.

تتناول البساطة في الكلام أيضًا مسألة الألقاب. في هذا الأمر، كان يسوع واضحًا ومباشرًا: ''وأمَّا أنتُمْ فلا تُدعَوْا سيِّدي، لأنَّ مُعَلِّمَكُمْ واحِدٌ المَسيحُ، وأنتُمْ جميعًا إخوَةٌ. ولا تدعوا لكُمْ أبًا علَى الأرضِ، لأنَّ أباكُمْ واحِدٌ الذي في السماواتِ. ولا تُدعَوْا مُعَلِّمينَ، لأنَّ مُعَلِّمَكُمْ واحِدٌ المَسيحُ'' (متَّى ٢٣: ٨-١٠).

هل يعني هذا أنَّنا لا يمكن أن نستخدم تعبير ''أب'' بتاتًا حتَّى للإشارة إلى الأب الوالد؟ بالتأكيد لا! ما كان يسوع يشير إليه هنا هو تلك الطريقة المدمِّرة التي بها نستخدم الألقاب لكي نسيطر على الآخرين ونؤثِّر فيهم: إذا كان المعلِّم (أو الأستاذ، أو الدكتور) قد قال شيئًا، فلا يمكن أن يعترض أحد. فإنَّ من السهل أن نرى الحكمة العمليَّة لكلمات يسوع هنا في المعاهد الأكاديميَّة؛ إذ عندما يجد الأساتذة صعوبةً في إقناع الطلبة، فإنَّ اللجوء الخبيث إلى المعرفة التقنيَّة والدرجات العلميَّة المتقدِّمة عادةً ما يُنهي الجدل. مثل تلك السيطرة المتلاعبة لا تتَّفق مع البساطة المسيحيَّة. لا شكَّ بالتأكيد أنَّ بعض الناس لديهم السلطة في التحدُّث بشأن أمورٍ محدَّدة أكثر من غيرهم، إلَّا أنَّني وجدت أنَّ هذه المرجعيَّات الحقيقيَّة لا علاقة لها بالألقاب.

إنَّ تعليم احترام الكبار ومَن هُم في سلطة شيءٌ، أمَّا محاولات التلاعُب والتأثير في الآخرين بشهاداتنا ومناصبنا وألقابنا مثل ''دكتور'' و''حضرتك'' و''بروفيسور'' و''معاليك''، فهي شيءٌ آخر. يكاد يكون في بعض الألقاب إسباغٌ على البشر ما يجب أن نوجِّهه فقط إلى الله.

إنَّ البساطة المسيحيَّة لا تُطالب باستخدام الألقاب أو حتَّى عدم استخدامها بطريقة تحقِّر من الناس. لكن ما تطالب به هو الفحص الأمين لتوجُّهاتنا بعضنا تجاه بعضٍ، واستعدادنا أن نكون خدَّامًا بالقول كما بالفعل.

التوتُّر الخلَّاق بين القيمة الجماليَّة والفائدة العمليَّة

إنَّ أيَّة محاولة للتعامل مع البساطة في الكنيسة لا يمكن أن تتجنَّب قضيَّة المباني والتصميمات الهندسيَّة. هذا ليس أمرًا يؤدِّي إلى إجابةٍ سهلةٍ، لكنَّني يمكن أن أقترح أنَّنا يجب أن نحافظ على القيمة الجماليَّة والفائدة العمليَّة في حالةٍ من التوتُّر الخلَّاق. لا أتخيَّل أنَّ هذا المبدأ البسيط يمكن أن يكون مفيدًا للَجْنة بناءٍ تحاول جاهدةً أن توفِّق بين عناصر الحجم والشكل (والتكلفة) في بناء قاعة عبادةٍ جديدة، لكنَّني أعتقد أنَّها يمكن أن تقدِّم بعض الإرشاد. إنَّنا نحتاج فعلًا لأن نهتمَّ بكلٍّ من الفائدة العمليَّة والجمال؛ الفاعليَّة والفنّ.

في النهاية، فإنَّ قراراتنا بشأن المعمار والمباني سيحدِّدها ما يقوله لاهوتنا بشأن الكنيسة، وذلك موضوعٌ يتجاوز حدود هذا الكتاب. لكنَّني يمكن أن أقدِّم بعض الاقتراحات محاولًا الحفاظ على عنصرَي الفاعليَّة والجمال في ذلك التوتُّر الجدليِّ الخلَّاق.

أحد الأسئلة التي نحتاج إلى الإجابة عنها هي الوظيفة التي نريد المبنى أن يخدمنا فيها، حيث إنَّ الشكل يجب أن يتبع الوظيفة. إذا كانت العبادة هي الاهتمامَ المحوريّ، فالحجارة أو الخشب أو الأسمنت يجب أن تُعبِّر عن ذلك. أمَّا إذا كان الهدف الأساسيُّ هو الشركة، فالشكل المعماريُّ المناسب سيكون مختلفًا. تخدمُ السقوف العالية المقوَّسة مثلًا غرض العبادة أكثر من غيرها، ويفيدُ التصميم الدائريُّ الشركة.

أودُّ أن أقترح اقتراحًا ثانيًا هو أن نواجه بأمانة شديدة قضيَّة ما إذا كان مشروع البناء الذي نقوم به يستهدف تعظيم مكانة

كنيستنا أم يستهدف مجد الله. إنَّني أُوصي من كلِّ قلبي أيَّة مجموعة تخطِّط لبناء مبنًى أن يجتمعوا **معًا** للصلاة والعبادة بهدف واحدٍ وهو الاستماع إلى صوت الله بشأن الخُطَّة المقترحة.

لقد تعلَّمتُ قيمة هذه الخبرة في أوَّل برنامج بناء اشتركتُ فيه. لقد كان مشروعًا صغيرًا إلى حدٍّ ما، وهو بناءُ مركزٍ تعليميٍّ يخدم أيضًا بصفة مركزِ رعايةٍ نهاريّ. لقد كان لدينا كلُّ الأسباب السليمة لنرغب في مِثل ذلك المبنى، وكُنَّا قد اجتزنا كلَّ اللجان المفروضة. حصلنا على الرسومِ الهندسيَّة، بل بدأنا حملة جمع التمويل. لكنَّني في ذلك الوقت أيضًا كنتُ أتعلَّم أشياءَ كثيرة عن الصلاة، وفي النهاية أدركتُ أنَّ ذلك أمرٌ ينبغي أن نصلِّي من أجله معًا، نحن شعبُ الكنيسة. لذا دعونا الجميع إلى اجتماعٍ للعبادة من أجل ذلك الغرض. اجتمعنا بلا ضغوطٍ لاتِّخاذ قرارٍ سريع، لأنَّه كانت لدينا بالفعل موافقة كنسيَّة رسميَّة للمشروع. قرأنا من الكتاب المقدَّس وصلَّينا ورنَّمنا وشاركنا واستمعنا بصمتٍ إلى صوت الله. لقد كان اختبارًا رائعًا. ذهبتُ إلى الاجتماع معتقدًا أنَّنا غالبًا سنستمرُّ في البناء، لكنَّني غادرتُ متأكِّدًا أنَّنا يجب ألَّا نشيِّد ذلك المبنى. لقد أتت نقطة التحوُّل الحاسمة عندما أدركتُ أنَّ القوَّة الدافعة وراء رغبتي في ذلك البناء، هي شعوري غير المُعلَن أنَّ مثل هذا البرنامج البنائيِّ كان أشبه بعلامة على نجاحي بصفتي قسِّيسًا.

لاهوتيًّا وفلسفيًّا، لم أكن أومن بذلك، لكنَّنا عندما عبدنا الله، ظهرت حالة قلبي الحقيقيَّة. وفي النهاية، كان قرارنا ألَّا نكمل المشروع، والآن عندما أنظر إلى الوراء أومن بأنَّه كان قرارًا صائبًا.

وهكذا، يجب أن نجد طرقًا بها نتساءل سواءً كان الهدف من مشروعنا هو المال والنجاح والمكانة أم خدمة الآخرين ورعايتهم ومجد الله. رُبَّما تعترض قائلًا: ''إنَّ الناس لن يأتوا إلَّا إذا أبهرناهم''. رُبَّما، لكن تذكَّر أنَّ هذا سلاحٌ ذو حدَّين: كثيرون (بمَن فيهم أنا) لن يذهبوا إلى الكنيسة التي تحاول أن تبهرهم عن قصد.

أقترح أيضًا أن ننادي بنهضة في عالم الفنَّانين والحرفيِّين. يمكن أن يوجد بين شعب الكنيسة مَن يستطيع نحت بابٍ جميلٍ أو منبرٍ لمجد الله. يُمكن أن يُمارس الشعب الرسم وعمل الفسيفساء والمفروشات والتطريز بحبٍّ وصلاة. يمكن ابتداع المنحوتات والفخَّار لمجد الله.

أيضًا اقتراحٌ رابعٌ أودُّ تقديمه هو أن نتذكَّر أنَّ الجمال يمكن التعبير عنه بطرقٍ كثيرة غير الطوب والحجارة. يمكن أن تزيد الزهور والأشجار الهائلة من إحساسنا باللون والتناسق. كثيرًا ما كنتُ أتمشَّى بين مباني الإرساليَّات الإسپانيَّة في كاليفورنيا وأتعجَّب من مبانيها المربَّعة البسيطة بحدائقها الغنَّاء ونوافيرها الجميلة. وإذا كنَّا نشعر بقيمة الشركة مع الإخوة والأخوات، فيجب أن نوفِّر أماكن هادئة من الجمال واللون حيث يمكن أن يجلس الأصدقاء ويتكلَّموا. رُبَّما حول نافورة هادئة يمكنها أن تهدِّئ اندفاعنا الداخليّ، وتغطِّي على ضوضاء الشارع أيضًا.

قد تقول إنَّ ذلك إسراف. رُبَّما تكون محقًّا. لكنَّه يمكن أن يكون من نوع ذلك الإسراف الذي مارسَته التي سكبت الطيب على رأس يسوع.

لا شكَّ أنَّنا نحتاج لأن نفكِّر في ما يُناسب جغرافيَّة المنطقة وإطارها الثقافيّ. ثُمَّ هناك مسألة الفاعليَّة مقابل التكلفة. ويجب أن يكون هناك أيضًا اهتمامٌ بقضيَّة الجودة والمتانة. أيضًا قد نرغب في أن نسأل ما إذا كانت مبانينا تشجِّع على أسلوب حياة يتماشى مع حياة يسوع وتعاليمه. تنبع هذه القضايا وغيرها الكثير من ذلك التوتُّر الجدليِّ الخلَّاق بين الجمال والكفاءة العمليَّة.

الاهتمام بالنفوس

يُمكننا القَول إنَّ مِن أهمِّ الخدمات الغائبة في الكنيسة اليوم هي خدمة الشيوخ. عندما جمع الرسول بولس شيوخ كنيسة أفسس في ميناء ميليتُس على بحر إيجة، قال لهم أن يرعوا رعيَّة الله التي أقامهم الروح القدس عليها (أعمال الرسل ٢٠: ١٧-٣٥). إنَّ هذه الخدمة، وهي الإشراف على الآخرين بمحبَّة، التي هي خدمة الشيوخ أو المشيخة، ما تزال مهمَّة الآن كما كانت من قبل. كما أنَّ هذه الخدمة تعزِّز البساطة المسيحيَّة.

أوَّل شيء ينبغي عمله، إذا كنَّا نريد أن نأخذ هذا العمل على محمَل الجِدِّ، هو أن نوفِّر الإطار الذي يمكن أن تحدث فيه. إنَّ رعاية الآخرين في أغلب الكنائس تكاد تكون مستحيلة، ببساطة لأنَّنا لا نعرف بعضنا بعضًا بما يكفي لكي نستطيع أن نساعد. لا يستطيع الراعي أن يتمنَّى حتَّى أن يقدِّم خدمة رعاية كافية إلى الجميع إذا كان حجم الجماعة التي يرعاها كبيرًا نسبيًّا. الحلُّ هو أن يُقدِّم مَن لديهم موهبة الرعاية والمشورة (سواء كانوا مرتسمين شيوخًا أم لا) هذه الخدمة لشعب الله. يجب أن يعرف هؤلاء الشيوخ رعيَّتهم جيِّدًا إذا كانوا يريدون أن يقدِّموا مشورة وإرشادًا روحيًّا كافيًا. كانت الاجتماعات التي أسَّسها جون وسلي تقدِّم ذلك النوع من الإشراف، حيث كان المؤمنون الجدد يُقسَّمون إلى مجموعاتٍ صغيرةٍ تجتمع أسبوعيًّا للمحاسبة والمساندة المتبادلة. وقد أسَّست كنائس عدَّة ما يُسمَّى ''مجموعات الرعاية'' أو ''الكنائس المصغَّرة'' للغرض ذاته.

ما علاقة كلِّ هذا بالبساطة؟ من السهل أن نرى الإجابة: إنَّنا لا نستطيع أن ندخل حياة البساطة دون مساعدة بعضنا بعضًا. إنَّنا نحتاج إلى ما يمكن أن يقدِّمه إلينا الآخرون من بصيرة وتمييز ومساندة. مثلًا، يوجد بعض الناس الذين يحتاجون بالفعل لأن يأخذوا إجازات ''سبتيَّة'' طويلة من عملهم في الكنيسة. لكنَّهم لن يفعلوا ذلك إلَّا إذا وجدوا مَن يشجِّعهم على أخذ مثل هذه الخطوة لتبسيط الحياة. وقد يحتاج آخرون إلى مَن يشجِّعهم ليخرجوا من كسلهم وانحصارهم في أنفسهم.

في بدايات جماعة مزرعة الشَّركة (Koinonia Farm) في جورجيا، عبَّرت سيِّدة ثريَّة عن رغبتها في الانضمام إلى ذلك المجتمع المسيحيِّ التجريبيِّ، فقال لها كلارينس جوردان (Clarence Jordan)، مؤسِّس المزرعة وقائدها الروحيُّ إنَّ عليها أوَّلًا أن تتخلَّص من أموالها. ''أعطيه للفقراء، أعطيه لأقربائك، ألقيه من فوق الجسر– لكنَّكِ يجب أن تدخلي المجتمع من دونه''. فسألته السيِّدة إن كان من الممكن أن تتبرَّع به للمزرعة. وبحساسيَّةٍ بالغةٍ استطاع كلارنس أن يستشعر خطورة ذلك العمل. لقد استطاع تمييز أنَّ تلك السيِّدة كانت تشعر بالوحدة؛ لأنَّ كلَّ أصدقائها كانوا يسعون إلى التقرُّب إليها بسبب ثرائها. قال لها جوردان: ''إذا وضعت هذا المال هنا، فستظنِّين أنَّنا أيضًا نحبُّك ونتودَّد إليك من أجل مالك''. استنتج جوردان أنَّه كان يُمكن أن يصير الثراء عائقًا أمام الشركة، إذ ستبدأ السيِّدة ترى أنَّها المُحسنة العظيمة لهذه الجماعة، وتشعر بأنَّهم يجب دائمًا أن يشعروا بالمديونيَّة لها. وختم جوردان كلامه قائلًا: ''لأجلك ولأجلنا، تخلَّصي من هذا المال ثُمَّ تعالي لتسيري في هذا الطريق معنا''.[٤] يا له من مثالٍ عمليٍّ جميل للقيادة الحكيمة القادرة على التمييز.

من فضلك لا تقرأ هذه الكلمات بطريقة بالغة التنظيم. إنَّني لا أتكلَّم عن سياساتٍ كنسيَّة جامدة، أو أُعطي فرصة لشيوخ الكنيسة أن يرى كلُّ واحدٍ منهم نفسه وكأنَّه نصف إله يتحكَّم في الآخرين. إنَّ خدمة الرعاية والإشراف التي أعنيها تتميَّز بأنَّها أبعد ما تكون عن الصفة الرسميَّة أو السلطويَّة. إنَّني أقترح فقط أنَّنا يجب أن نجد طرقًا بها نستقبل المساعدة والمشورة ممَّن أنعم الله عليهم بمواهب التمييز والحكمة الروحيَّتَين.

من الطرق التي وجد الكثيرون منَّا أنَّها تسهِّل حدوث هذه الخدمة، ما يُسمَّى اجتماعات ''توضيح الرؤية''، وهو اجتماعٌ

لعددٍ من الأشخاص الذين نقدِّر فيهم حكمتهم الروحيَّة، حيث نشارك بالأمور التي نرغب أن نحصل فيها على ''توضيح الرؤية''. يمكن أن يكون الأمر أيَّ شيء، من قرارات متعلِّقة بالعمل والخدمة (مثلًا، كان قراري بالانتقال من الرعاية الكنسيَّة، إلى التدريس في الجامعة والكتابة، نابعًا من أحد هذه الاجتماعات)، إلى مشاركة الميزانيَّات للحصول على التقييم المتبادل، إلى القرارات الخاصَّة بالزواج، أو أشياء أُخرى.

يجب ألَّا يُتَّخذ القرار في الاجتماع نفسه. في واقع الأمر، من الأفضل أن ننتظر قليلًا لنرى إن كان القرار الذي شعرت به الجماعة سيُؤكَّد لاحقًا بطرقٍ أُخرى أم لا. يبدأ الأمر بأن يُشارك الفرد بالأمر الذي يشغله، ثُمَّ تبدأ الجماعة في طلب الحصول على فكر المسيح بشأن الأمر. تُطرحُ أسئلةٌ وتجري نقاشاتٌ، وأيضًا يقضي الجميع وقتًا من الصلاة والعبادة. يجب ألَّا تُعطى نصائح متعجِّلة بتاتًا لئلَّا تتشتَّت الجماعة وتبتعد عن الحقِّ بدلًا من الاقتراب منه. يجب أن ينبع الكلام من قوَّة الربِّ في الجماعة. يجب أن يكون لكلِّ فردٍ الانضباط الداخليُّ الذي يجعله لا يُقحم بتاتًا بتاتًا أيَّ انحيازٍ شخصيّ. ومَن لا يستطيعون التحكُّم في لسانهم لا ينتمون إلى مثل هذه الاجتماعات.

ماذا يحدث؟ عادةً– وليس دائمًا– ما يبدأ ظهور إرشادٍ أوضح وأكثر تأكُّدًا. يوجد بالتأكيد إحساسٌ طبيعيٌّ بالتأكُّد يظهر من التقييم المتبادَل، لكنَّ شيئًا أكثر من ذلك يحدث– شيئًا لا يخضع بسهولة للتصنيف الاجتماعيّ. إنَّه واقعٌ آخر لم أعرفه من قبل في الخبرات المعتادة من جمع المعلومات والتقييم والمناقشات وإبداء الآراء. ليست لديَّ طريقة لتقييمها بصورةٍ قاطعة، لكنَّني أعتقد أنَّ الفارق يرتبط بحقيقة أنَّه عندما يجتمع المسيحيُّون حول الالتزام والرغبة في سماع صوت المسيح، فإنَّهم يحصلون على الإرشاد الذي يطلبونه.

إنَّ مثل هذه الاختبارات الجماعيَّة يمكن أن تساعدنا أن نحتفظ بعيوننا بسيطةً. يمكن أن يحذِّرنا الإخوة والأخوات في المسيح عندما نحمل أكثر ممَّا نستطيع أن نحتمل أو عندما نصبح منتفخين أكثر من اللازم، أو كلا الأمرَين معًا، كما قال لي أحد الأصدقاء ذات مرَّة: ''إنَّك تحتاج لأن تتَّضع تحت يد الربّ''. رُبَّما يشجِّعوننا أنَّنا نتحرَّك في الاتِّجاه الصحيح. ورُبَّما يحثُّوننا على المحبَّة والأعمال الصالحة.

يمكن أيضًا أن تكون الجماعة عاملًا محفِّزًا للخدمة وتقديم الأساس للمساندة المعنويَّة ورُبَّما المادِّيَّة أيضًا. عندما جاءت كلمة الربِّ إلى مثل هذا الاجتماع في أنطاكية، أرشَدَت بولس وبرنابا أن يذهبا إلى الأمم، دون الحاجة إلى الذهاب إلى عشرين كنيسة لكي يجمعا التمويل؛ إذ كانت الجماعة في أنطاكية هي أساس دعمهم روحيًّا ونفسيًّا واقتصاديًّا (أعمال الرسل ١٣: ١-٣؛ ١٤: ٢٧-٢٨).

افترِضْ أنَّ في كنيستك أرملة لديها طفلان صغيران.[٥] وتعمل محامية وتشارك بنشاطٍ في الكنيسة. افترِض أنَّه بدأت تنمو داخلها قناعة قويَّة أن تستخدم مهنتها في الخدمة بين فقراء المدينة، فدعتْ مجموعةً من الكنيسة ليساعدوها على تمييز مشيئة الربِّ في ذلك الأمر. ماذا يعني مثل ذلك القرار؟ أوَّلًا، بسبب كمِّ الوقت المفترض أن تقدِّمه هذه الأرملة في مثل تلك الخدمة، سيتحتَّم عليها أن تستقيل من خدمة فريق الترنيم ولجنة التسمية والترشيحات. ثانيًا، رُبَّما بسبب فقدانها لراتبها من شركة المحاماة التي تعمل فيها، لن تستطيع أن تشارك في ميزانيَّة الكنيسة بالسخاء الذي اعتادته سابقًا. ثالثًا، ولعلَّه الأهمُّ، يمكن أن يكون تناقص دخلها كبيرًا حتَّى إنَّها ستحتاج إلى مساعدة ماليَّة إذا انخرطت في مثل هذه الخدمة.

إذا استطاع أعضاء اجتماع ''توضيح الرؤية'' أن يؤكِّدوا الدعوة لمثل هذه السيِّدة، فيجب أن يكونوا في الوقت نفسه ملتزمين مساعدتها أن تدبِّر ما ستحتاج إليه لكي تلتزم تلك الخدمة. في بعض الأحيان، يمكن أن تتحمَّل المجموعة

المشاركة في قرارٍ مثل ذلك بمفردها عبء مساندة ذلك العمل، وفي مرَّاتٍ أُخرى تُحفِّز مشاركة آخرين. في كلتا الحالتَين، من المدهش أن نرى إمكانيَّة أن تتحقَّق أحلامٌ مستحيلة عندما تطلب مجموعةٌ– ولو صغيرة– من الأشخاص الأمناء إرشادَ الربِّ مؤمنين إيمانًا حقيقيًّا أنَّ الربَّ سيُرشدهم.

إنَّ رعاية النفوس خدمةٌ قديمة جدًّا قد أثبت الزمن قيمتها وكرامتها. ليهبنا الله ''زقاقًا'' جديدة تتحقَّق فيها هذه الخدمة نفسها في زماننا.

التوازن الاقتصاديُّ

بمجهودات الرسول بولس لجمع العطايا لفقراء أورشليم (رومية ١٥: ٢٥-٢٧)، وضع أمام المسيحيِّين في كلِّ الأجيال مبدأً اقتصاديًّا يضعنا أمام تحدٍّ. كان بولس الرسول يرى أنَّ الوضع في أورشليم يمثِّل فرصة عظيمة للتعبير عن الوحدة المسيحيَّة عبر الخطوط الفاصلة عرقيًّا وثقافيًّا. يا له من امتيازٍ نادرٍ للأمم أن يعبِّروا عن محبَّتهم المسيحيَّة لإخوتهم وأخواتهم اليهود المحتاجين! لم يبذل بولس الرسول مجهودًا قليلًا لإتمام إرساليَّة الرحمة هذه، ويمكننا أن نلتقط إشارات مهمَّة لذلك العمل في رسالته الثانية إلى أهل كورنثوس.

في البداية، يسجِّل بولس التجاوب المشجِّع للمؤمنين في مكدونية الذين كانوا هم أيضًا خارجين لتوِّهم من صعوبات اقتصاديَّة شديدة، ورغم ذلك قدَّموا بسخاءٍ شديدٍ وفرح: ''لأنَّهُمْ أعطَوْا حَسَبَ الطاقَةِ، أنا أشهَدُ، وفَوْقَ الطاقَةِ، مِنْ تِلقاءِ أنفُسِهِمْ، مُلتَمِسينَ مِنّا، بطِلبَةٍ كثيرَةٍ، أنْ نَقبَلَ النِّعمَةَ وشَرِكَةَ الخِدمَةِ التي للقِدِّيسينَ '' (٢كورنثوس ٨: ٣).

ها هو عطاءٌ بسخاءٍ وفرح. ليس مجرَّد تطبيقٍ ميكانيكيٍّ لقاعدة العشور، وليست محاولات محسوبة من جانب أهل مكدونية (شمال اليونان) لكي يعطوا أقلَّ ما يمكن. لقد كان المكدونيُّون فرحين من أجل الفرصة التي أتيحت لهم للمشاركة. وفي هذه الرسالة، كان الرسول بولس يشجِّع أهل كورنثوس (جنوب اليونان) أن يزدادوا في هذه النعمة أيضًا (٢كورنثوس ٨: ٧).

هل تشعر بروح الفرح والتخلِّي عن حبِّ التملُّك لديهم؟ لم يكن هناك مجالٌ للقلق بشأن خطط الاستثمار والأمان المادِّيِّ عندما ظهرت فرصة مساعدة المؤمنين الذين في احتياج. ظهرت أمامهم فرصة أن يسيروا في خُطى المسيح، الذي ''مِنْ أجلِكُمُ افتَقَرَ وهو غَنيٌّ، لكَيْ تستَغنوا أنتُمْ بفَقرِهِ'' (٢كورنثوس ٨: ٩). فقط الأحمق هو من يفشل في استغلال تلك الفرصة الذهبيَّة.

لكن ما يزال عليَّ أن أذكر أكثر العبارات الصادمة التي قالها بولس: ''فإنَّهُ ليس لكَيْ يكونَ للآخَرينَ راحَةٌ ولكُمْ ضيقٌ، **بل بحَسَبِ المُساواةِ**. لكَيْ تكونَ في هذا الوقتِ فُضالَتُكُمْ لإعوازِهِمْ، كيْ تصيرَ فُضالَتُهُمْ لإعوازِكُمْ، **حتَّى تحصُلَ المُساواةُ**'' (٢كورنثوس ٨: ١٣-١٤). يا لها من قاعدة صادمة للآذان المعاصرة. إنَّ جوهر ما يقترحه بولس الرسول هنا هو تحقيق مثل ذلك التوازن الاقتصاديِّ والعدالة الاجتماعيَّة داخل المجتمع المسيحيّ. إنَّها، كما يقول، مسألة ''مساواة''. لم يكن بولس الرسول يستهدف تحقيق مساواة إحصائيَّة دقيقة بحيث يكون دخل الجميع متساويًا. لقد كانت حُرِّيَّة الإنجيل مغروسة فيه عميقًا أكثر ممَّن يلعب ألعابًا حسابيَّة فرِّيسيَّة. لكنَّه كان يشير إلى حالةٍ من السخاء والمحبَّة تجعل الأغنياء لا يشعرون بالراحة بتاتًا بينما يعاني الآخرون.

وللتشديد على ذلك المبدأ، يحكي بولس قصَّة الإطعام العجيب لبني إسرائيل بالمنِّ في البرِّيَّة: ''كما هو مَكتوبٌ: «الذي

جَمَعَ كثيرًا لَمْ يُفضِلْ، والذي جَمَعَ قَليلًا لَمْ يُنقِصْ»'' (٢كورنثوس ٨: ١٥).

توفِّر هذه الإشارة إلى العهد القديم تعليمًا واضحًا في هذا الصدد. كلَّ صباح، كان الله بنعمته يمدُّ بني إسرائيل بمادَّةٍ غذائيَّة عجيبة على شكل رقائق تسمَّى ''المنّ'' (خروج ١٦: ٩-٣٦). وللتعامل مع طَمَعِهم الذي لا يشبع ولكي يعلِّمهم درسًا عن الثقة، أوصاهم الله أن يجمعوه يومًا بيوم. لكن، بسبب حالتهم الروحيَّة، جمع بعضهم أكثر من المسموح، لكن للعجب عندما قِيس بمقياس العُمِر (الذي يعادل لترين)، يقول الكتاب المقدَّس: ''ولَمَّا كالوا بالعُمِرِ، لَمْ يُفضِلِ المُكَثِّرُ والمُقَلِّلُ لَمْ يُنقِصْ. كانوا قد التَقَطوا كُلُّ واحِدٍ علَى حَسَبِ أُكلِهِ'' (خروج ١٦: ١٨). لكنَّ بعض الناس لا يتعلَّمون بتاتًا؛ إذ قسَّم بعضٌ من بني إسرائيل، بطبعهم المعهود من عدم الثقة، مونة اليوم إلى حِصَصٍ ليحتفظوا ببعضه إلى الغد تحقيقًا للأمن الغذائيّ، فبرأيهم قد لا يمدُّهم الله بالمنِّ غدًا. في واقع الأمر، كان ما حدث لا يخلو من الحكمة والاقتصاد والتقشُّف من جانبهم. لكنَّ الله كان يريد أن يعلِّمهم شيئًا آخر عن الخبز اليوميّ، وهكذا فإنَّ المنّ ''توَلَّدَ فيهِ دودٌ وأنتَنَ'' (خروج ١٦: ٢٠).

كانت الدروس المستفادة من المنِّ واضحة: ثِقْ بالله ثقة تامَّة، لا يُسمَح بالتكديس- والدرس الأوضح- لا يُسمَح بالطمع. **كان هناك نصيبٌ متساوٍ للجميع**. كان السبب في وجود نصيبٍ متساوٍ واضحًا جدًّا؛ فهو يقضي على الطمع والغيرة والانقسام. وهذا هو مبدأ المساواة الذي يؤكِّده الرسول بولس بقوَّة.

ماذا يجب أن يعني هذا المبدأ لنا اليوم؟ الظلم الاجتماعيُّ صارخٌ بين الجماعة المسيحيَّة حتَّى إنَّه لا يحتاج إلى توضيح. بالكاد ينجو الملايين من إخوتنا وأخواتنا المسيحيِّين في آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينيَّة من الموت جوعًا- وكثيرون لا ينجون- فضلًا عن ضعف حالتهم الصحِّيَّة والتعليميَّة. هل نجرؤ أن نسترخي في الراحة والسهولة والوفرة التي نعيشها ونقضي الأيَّام نناقش لون القماش الذي سنختاره لمقاعد الكنيسة، بينما تتوالى فصول هذه المأساة؟

لا، إنَّنا حتمًا يجب أن نفعل شيئًا. لكنَّ الصعوبة الحقيقيَّة هي كيفيَّة التجاوب مع هذه المعضلة. هل الإخلاص الفرنسيسكانيُّ المبكِّر للفقر هو الأسلوب الأمثل؟ أيَّد بعض الناس ذلك ودعوا الكنيسة إلى التجرُّد الجذريِّ من أرصِدتها. رُبَّما تكون بعض الكنائس مدعوَّةً إلى مثل تلك الخطوة، لكنَّ الكثير منها لن تكون. وإلى الكنائس التي لا ترى أنَّ التجرُّد التامَّ من الأرصدة هو الحلُّ المناسب لهم، فإنَّني أقترح ثلاثة اقتراحات.

أوَّلًا، يمكننا أن نؤسِّس سياسةً ماليَّة للعطاء بالقدر نفسه الذي ننفق به على أنفسنا (أي جماعيًّا بصفتنا كنيسة). أعلم أنَّ لذلك الاقتراح صعوبات كثيرة. هل نعدُّ راتب المسؤول عن الكرازة إنفاقًا على أنفسنا أم على الآخرين؟ هل تعدُّ ميزانيَّة المدرسة الصيفيَّة للأطفال التي تصل خدمتها إلى أطفالٍ جُدد من غير أطفال الكنيسة، عطاءً للآخرين؟ ماذا عن برنامج البناء الذي يمكن أن يفتح الباب لانضمام أعضاءٍ جُدد إلى الكنيسة؟ ورغم أنَّ هذه الفكرة صعبة بالفعل، فإنَّها ما تزال سياسة تستحقُّ الدراسة. فعلى الأقلِّ، ستستمرُّ في دفعنا إلى التساؤل دائمًا عن مقدار اهتمامنا باحتياجات المسيحيِّين في أماكن أخرى.

ثانيًا، يمكننا أن ننمِّي علاقة مستمرَّة مع الكنائس الأفقر اقتصاديًّا. رُبَّما تكون كنيسة في مناطق شعبيَّة، أو كنيسة في دولة أخرى. عندما كنتُ أرعى بعض الكنائس في جنوب كاليفورنيا، أقمنا علاقة بجماعة مسيحيَّة في المناطق الشعبيَّة الفقيرة في لوس أنجلوس وعندما كُنَّا نجمع ''من أجل القدِّيسين في لوس أنجلوس''، عيَّنَّا فعلًا مَن كانوا يتواصلون شخصيًّا مع متلقِّي هذه التبرُّعات. لهذه التوصية أيضًا صعوباتها؛ فمن السهل أن نظنَّ في أنفسنا أنَّنا الملاك الحارس لتلك الرعيَّة الأخرى ونتوقَّع

منهم أن يكونوا شاكرين لنا طوال العمر. ورغم كلِّ أشكال الخطورة، فإنَّها تبقى فكرة مفيدة للطرفَين، إذا طُبِّقت بحساسيَّة.

ثالثًا، يمكننا أن نخصِّص سنةً خاصَّةً نعدُّها سنة اليوبيل، فيها نحاول أن نقدِّم كلَّ ما نستطيع تقديمه لعملٍ أو خدمةٍ معيَّنة. رُبَّما مثلًا نختار الكنيسة الإنجيليَّة في الهند، أو برنامج الإرساليَّات في كنيستنا. يمكن أن يتبنَّى الأفراد أُسَرًا أو كنائس محلِّيَّة صغيرة. وعلى مدى سنة واحدة، يمكن أن نجد طرقًا بها نعطي بقدر المستطاع. رُبَّما يبيع بعضنا أراضيَ أو عقارات أو سيَّارات. يمكن أن يقيم بعضنا الآخر معارض لبيع ما يستغنون عنه من أشياء. وفي سنة محدَّدة، يمكن أن تُخصِّص لجنة الميزانيَّة كمًّا غير مسبوقٍ للعطاء الخارجيّ. وينبغي أن نعلن لكنائسنا أنَّ المقصودَ من سنة اليوبيل هذه أن يعلم بمحبَّتنا إخوتنا وأخواتنا من أراضٍ وبلدانٍ أخرى لا يتكلَّمون لغاتنا. وهكذا فإنَّ وفرتنا يمكن أن تسدَّ إعوازهم فيحدث نوعٌ من ''المساواة''.

هل هذه اقتراحات غير واقعيَّة؟ يوتوبيَّة؟ أعتقد ذلك، لكنَّ بعض الكنائس يمكن أن تجرؤ على فعل ذلك. ولماذا لا تجرؤ كنيستك؟

مساعدات عمليَّة

من الجيِّد أن نسعى إلى تحقيق إصلاح شامل وواسع النطاق. كما أنَّ من المهمِّ أيضًا أن نجد طرقًا بسيطة بها نحثُّ بعضنا بعضًا على المحبَّة والأعمال الصالحة. لذلك فإنَّني أختم هذا الفصل ببعضٍ من النصائح البسيطة للجماعات المسيحيَّة.

لنعِش برحمةٍ وصَبرٍ بعضنا تجاه بعضٍ، ولتتميَّز علاقاتنا بالتسامح والنعمة والمساحة. إنَّنا كثيرًا ما نجرح بعضنا بعضًا بلا داعٍ في محاولاتنا الحماسيَّة من أجل الحقِّ والعدل والبرّ. يمكن أن تتسلَّل روح الإدانة إلى علاقاتنا بخبثٍ شديد. يمكن للأسف أن نبدأ بالنظر إلى ممتلكات بعضنا بعضًا وبحساب قيمتها. لكن يوجد طريقٌ أفضل: نحتاج ببساطة لأنْ نكون بعضنا مع بعضٍ- أن نحبَّ ونساندَ ونهتمّ. بالتأكيد يجب أن نعيش ونقول الحقَّ الذي أُعلن لنا، لكنَّ مهمَّة تقويم بعضنا بعضًا هي من شأن الله وليست من شأننا.

لنجرؤ أن نمارس ما يمكن أن نسمِّيه ''الموت الكنسيُّ الرحيم''؛ بمعنى أنَّنا يجب أن نُميت اللجان والبرامج التي عاشت أطول من اللازم وتخطَّى عمرها فائدتها موتًا رحيمًا وندفنها دفنًا لائقًا. لا داعي لتعقيد حياة الرعيَّة باجتماعاتٍ لا طائل منها. قد تُساعد المراجعات السنويَّة التي ''تُقلِّم'' المؤسَّسة الكنسيَّة في تبسيط حياتنا.

لنبحث عن طرقٍ بسيطة لمساعدة بعضنا بعضًا. تُنظِّم كنائس كثيرة معارضَ للملابس التي لا تزال في حالة جيِّدة وصغُرت على أطفالهم، وذلك لبيعها بأسعارٍ مخفَّضة لعائلات أُخرى لا يزال لديها أطفال أصغر. لدى بعض الكنائس مخازن طعام يملأها الأعضاء بالمعلَّبات وغيرها من المواد الغذائيَّة بحيث تكون متاحة لمن لديه احتياج. في وقت الحصاد، يمكن أن تخصِّص الكنيسة طاولة يضع عليها أصحاب المحاصيل والفاكهة ما يزيد على احتياجهم لمشاركتها مع الآخرين. ولدى كنائس أُخرى ''قائمة بالاحتياجات'' ينشر الأعضاء فيها أسبوعيًّا أو شهريًّا الأشياء التي يحتاجون إلى بيعها أو شرائها من أجهزة لم يعودوا يحتاجون إليها أو كتب أو ملابس أو غير ذلك بدلًا من شراء الجديد الباهظ الثمن دائمًا.

فلنبحَثْ عن طرقٍ نعيد بها إحياء التقليد المجتمعيّ القديم، حيث من كان لديه احتياج إلى بناء أو ترميم سقفٍ أو غيره أن يدعو مَن حوله للمساعدة، حيث يمكن تبادل المهارات في السباكة أو الكهرباء أو النجارة. لقد شاهدتُ بيوتًا بأكملها تُبنى بعمل المحبَّة المشترك. ومع التكلفة الباهظة للسكن هذه الأيَّام، يمكن أن تكون هذه هي الطريقة الوحيدة التي بها

يستطيع شابٌّ أن يمتلك بيتًا ويبدأ حياته.

فلنستهدفْ أن ندفع رواتبَ مُجزية لرعاتنا. هل نخشى أن تسيطر عليهم روح الطمع؟ يجب ألَّا يوضع أصلًا في مكان الرعاية مَن لديه ضعفٌ في منطقة محبَّة المال (١تيموثاوس ٣: ٣). ليكن كرمنا تجاه رعاتنا معروفًا للجميع. إنَّها طريقة لإظهار محبَّتنا، كما أنَّها تتيح لهم أيضًا فرح المشاركة في العطاء لأشخاصٍ وقضايا يشعرون بأهمِّيَّتها.

لنسعَ أيضًا إلى تنظيم احتفالات مشتركة وأيَّام أعياد. سنتبارك عندما نحتفل بجود الله وبحياتنا معًا. الكثير من تلك الاحتفالات لا تحتاج لأنْ تكلِّف الكثير، لكنَّ بعضًا منها يجب أن يكون مكلفًا. نحتاج إلى بعض الأوقات نتوقَّف فيها عن أسلوب التقشُّف قليلًا ونحتفل بسخاء، وبفرحٍ ''ونذبح العجل المسمَّن''. عندما كنت أُعلِّم، كان لدى الجامعة حدثٌ سنويٌّ يسمَّى ''سيمفونيَّة الربيع''. وقد كانت الفائدة التي تعود من هذا الحدث على الروح الإنسانيَّة تفوق الوصف والحساب. لقد كان أكثر حدثٍ ينتظره الجميع طوال السنة: موسيقا وثياب تقليديَّة وألوان مُبهجة...لقد كان مهرجانًا رائعًا تُستخدم فيه كلُّ خبرات الإنتاج الترفيهيِّ المهنيِّ دون تفاهة أو سطحيَّة. مثل ذلك الحدث ليس رخيصًا، بل كان يُنفَق عليه بسخاء من حيث الوقت والطاقة والمال. إنَّنا جميعًا نحتاج إلى مثل هذه الاحتفالات المبهجة في الوقت الذي فيه نسعى إلى تحقيق البساطة المقدَّسة والتي هي سمة أصيلة من سمات ملكوت الله.

١٠

البساطة الجماعيَّة:
العالم

إنَّني أحسبُ العالم كلَّه أبرشيَّتي.

جون وسلي (John Wesley)

على كوكبنا المزدحم هذا، لا توجد بعدُ قضايا خاصَّة وشؤونٌ داخليَّة!

ألكسندر سولجنيتسين (Aleksandr Solzhenitsyn)

كما يتَّسم شعب الله بفضيلة البساطة المسيحيَّة، يمكن أن يعرف العالم أيضًا قيمة بساطة الحياة...فقط إذا أراد العالم أن تكون الحياة كذلك.

لكن للأسف، يبدو أنَّ العالم لا يطلب إلَّا ''...شَهوَةَ الجَسَدِ، وشَهوَةَ العُيونِ، وتَعَظُّمَ المَعيشَةِ...'' (١يوحنَّا ٢: ١٦). في واقع الأمر، لا يبدي العالم اهتمامًا كبيرًا بالبساطة المسيحيَّة، أو أيِّ نوعٍ آخر من البساطة. بل يبدو العالم مندفعًا اندفاعًا مجنونًا في اتِّجاه الصراع والازدواجيَّة والارتباك والغموض. يهرب العالم عمومًا من المسؤوليَّة ويسعى سعيًا محمومًا نحو اللَّذة غير المحدودة وغير المرشَّدة. إنَّ انتباه العالم مثل انتباه الذبابة المنزليَّة، التي في عيونها مئات العدسات المركَّزة على مئات الأشياء في الوقت نفسه، فلا تهدأ بتاتًا ولا تستقرُّ، وتعيش دائمًا من أجل اللحظة الحاليَّة. ''ولا يُحرَمُ أحدُنا نَصيبَهُ مِنَ اللَّذائذِ، ولا نَترُكُ مكانًا إلَّا ولنا فيهِ أثرٌ مِنْ لذَّةٍ. فهذا حَظُّنا ونصيبُنا في الحياةِ'' (حكمة سليمان ٢: ٩).

هل ينبغي أن نهمل العالم ونتركه وشأنه تمامًا؟ رُبَّما يجب أن نضع عليه العنوان الذي يمثِّله: ''مغارة لصوص'' أو ''نظام الأشرار'' أو ''بابل الزانية''؟ هل علينا أن نعترف أنَّ بيننا وبينه اختلافات لا يمكن المصالحة بينها وننسحب من العالم ومن أموره؟ رُبَّما يجب أن نشيِّد بيننا وبينه أسوارًا أعلى، ونحفر خنادق أوسع وأعمق ونترك العالم ''يذهب إلى الجحيم''. رُبَّما. رُبَّما.

وكأنَّ يسوع كان يتوقَّع الأفكار التي تغرينا بالانفصال عن العالم، تحدَّى أتباعه قائلًا: ''أنتُمْ نورُ العالَمِ...فليُضِئْ نورُكُمْ هكذا قُدَّامَ الناسِ، لكَيْ يَرَوْا أعمالكُمُ الحَسَنَةَ، ويُمَجِّدوا أباكُمُ الذي في السماواتِ'' (متَّى ٥: ١٤، ١٦). بعيدًا عن تأييد الانسحاب من العالم، كان يسوع يعطي تلاميذه أوامر التحرُّك نحو العالم. علينا أن نكون حَمَلَة النور والرجاء والصلاح. إنَّنا أقدام يسوع وأياديه التي تقدِّم الرجاء والشفاء إلى هذا العالم. ومع أنَّنا لسنا ''من'' العالم، فإنَّنا بالتأكيد ''في'' العالم، مواطنون منخرطون تمامًا، نعمل لأجل الذين يسيرون معنا مسيرة الحياة. في واقع الأمر، إنَّنا نعمل ونصلِّي ونتوق إلى افتداء كلِّ خليقة الله واستردادها.

إذًا هل كوننا مسيحيِّين يجعلنا مسؤولين عن العالم؟ نعم! نحن عاملون مع الله ومسؤولون معه عن العالم. إنَّنا النور والملح والخميرة التي في هذا العالم.

كيف، إذًا، نعيش هذه الحياة؟ هناك طرقٌ عدَّة، لكن من المؤكَّد أنَّ البساطة المسيحيَّة هي طريقة مهمَّة يمكن أن نشارك بها في التجديد الشامل لهذا العالم، من حيث البيئة الطبيعيَّة والمؤسَّسات الاجتماعيَّة والتعليميَّة والشركات التجاريَّة والاقتصاديَّة. إنَّها استراتيجيَّة للتغيير على أوسع مقياس، يمكننا أن نشترك فيها كلَّ يومٍ، بل كلَّ ساعة، بل كلَّ لحظة. إنَّنا عندما ننمِّي حياةً من البساطة، فإنَّنا نضاعف من فرصنا لصنع تأثيرٍ للخير في العالم من حولنا.

فهمُ الرياسات والسلاطين

تبدأ أيَّة مناقشةٍ للبساطة المسيحيَّة وعلاقتها بالعالم في الزمان والمكان والمجتمع الذي نجد أنفسنا فيه بمواجهة ''الرياسات والسلاطين''. وكما يكتب بولس الرسول: ''فإنَّ مُصارَعَتَنا لَيسَتْ مع دَمٍ ولَحمٍ، بل مع الرّؤَساءِ، مع السَّلاطينِ، مع وُلاةِ العالَمِ علَى ظُلمَةِ هذا الدَّهرِ، مع أجنادِ الشَّرِّ الرُّوحيَّةِ في السماويَّاتِ'' (أفسس ٦: ١٢). ولأنَّه لم يكن بتاتًا ممَّن يرضَون بمجرَّد التقوى الشخصيَّة وميلها المعتاد إلى الهروب من مشكلات العالم، فإنَّ بولس الرسول يساعدنا لكي نرى أنَّنا جزءٌ من صراعٍ كونيٍّ بين الخير والشرِّ، والحياة والموت، والمحبَّة والكراهية. وكما يواجهنا بولس باحتياجنا أن نكون مُعَدِّين لصراعٍ يشغل كلَّ زماننا، ويستحوذ على كلِّ فكرنا، ويستخدم كلَّ مواهبنا. إنَّنا عاملون مع الله– بوداعةٍ وشجاعةٍ نتعاون معه لمصلحة كلِّ الأرض.

في البداية، نحتاج لأن ندرك أنَّ ''الرياسات والسلاطين'' التي يتكلَّم عنها ليست مثل القصص الخياليَّة الشعبيَّة؛ إنَّها ليست أرواحًا غير متجسِّدة تهيم فوق الغرف والقاعات والقرى والمدن والأُمَم المختلفة، باحثة عن فرصٍ لإحداث الضرر (سأقول المزيد عمَّا هي هذه الرياسات والسلاطين في الحال). علاوةً على ذلك، عندما يقول بولس إنَّ صراعنا ليس مع ''لحمٍ ودم''، فهو لا يعني أنَّ اللحم والدم غير مهمَّين. على العكس؛ فهما على قدر كبير من الأهمِّيَّة. ما يقصده بولس هو أنَّه يوجد واقعٌ أعمق وراء اللَّحم والدم يؤثِّر فيهما ويحرِّكهما.

تشمل الرياسات والسلاطين في تعليم الرسول بولس حقائق عدَّة مجتمعة ومتفاعلة بعضها مع بعض: شخصيَّات بشريَّة، وقوى روحيَّة واعية بنفسها، سياساتٍ وهيكليَّاتٍ مؤسَّسيَّة، والبيئة الثقافيَّة الطاغية أو ما يمكن أن نسمِّيه روح العصر.

نحن نعرف ''الشخصيَّة البشريَّة'' جيِّدًا. فيمكن أن يدمِّر دكتاتور متوحِّش– مثل عيدي أمين (Idi Amin)– ويشوِّه ويعيث فسادًا في حياة أعدادٍ لا تُحصى من البشر. وفي المقابل، يمكن أن يقود قائد فاضل مثل أبراهام لنكولن (Abraham Lincoln) الشعب في وقت المآسي بشجاعةٍ وحكمة. لكنَّ الشخصيَّة البشريَّة ليست كلَّ القصَّة.

وعندما أتكلَّم عن ''قوى روحيَّة واعية بنفسها''، فإنَّني أعني واقعًا موجودًا في ما وراء ما نستطيع أن نراه ونقيسه. وهو واقع له تأثيرٌ حقيقيٌّ في المشهد البشريِّ، وهي ليست مجرَّد ''قوى'' غير شخصيَّة، وإنَّما كيانات روحيَّة لها وعي ذاتيّ. علاوةً على ذلك، فإنَّ تلك القوى الروحيَّة أو ''السلاطين'' (باليونانيَّة: exousia) يمكن أن تكون إمَّا خيِّرة كما في رومية ١٣، وإمَّا شرِّيرة كما في أفسس ٦.

أمَّا ''السياسات والهيكليَّات المؤسَّسية'' فهي تنبع من التفاعل الحركيِّ الدائم بين الشخصيَّات البشريَّة وتلك القوى الروحيَّة الواعية؛ فتكون النتيجة سياسات ظالمةً ومؤسَّسات فاسدة. يستطيع الشرُّ الواعي بذاته– أي إبليس وأتباعه من الأرواح الشرِّيرة– أن يتجسَّد في الهيكليَّات التي يؤسِّسها البشر، وهو يفعل ذلك بالتأكيد. فالمؤسَّسات يمكن أن تكون محض شرٍّ منظَّم، والعكس أيضًا صحيح. يمكن أن تجلب مؤسَّسات وتنظيمات الكثير من الخير والبركة في حياة البشر. وفي ما وراء السياسات العادلة والقوانين التي تحقِّق المساواة يوجد أيضًا واقعٌ روحيٌّ عميق، وهو الله وملائكته، والشخصيَّات البشريَّة

ذات السمات النبيلة الواثقة.

وما يزال هناك المزيد. هناك روح العصر، أي البيئة الثقافيَّة التي تكاد تتخلَّل الهواء الذي نتنفَّسه. أهي ثقافة تعطي الحياة أم الموت؟ أهي بيئةٌ محرِّرة أم مقيِّدة؟ أهو وسطٌ يُعطي قيمة للمحبَّة غير المشروطة أم الخوف والعنف؟ أهو مناخٌ من الرجاء أم من اليأس والإحباط؟ أهي بيئةٌ مفتوحة أم مغلقة، مشجِّعةٌ أم ديَّانة، سخيَّةٌ أم بخيلة؟ هذه البيئة الثقافيَّة– التي هي مجموع الإجابات عن هذه الأسئلة– تتأثَّر بعمقٍ بالتأثير المتبادل بين الشخصيَّات البشريَّة، والقوى الروحيَّة الواعية، والسياسات والهيكليَّات المؤسَّسية.

هذا التفاعل المتحرِّك والمستمرُّ لكلِّ هذه الأنواع الأربعة من الواقع الذي نعيشه– الشخصيَّات البشريَّة، والقوى الروحيَّة الواعية، والسياسات والهيكليَّات المؤسَّسية، والروح العامَّة للعصر– هو ما يشير إليه بولس الرسول عندما يقول ''الرياسات والسلاطين''. ونحن مدعوُّون للانخراط في ذلك الصراع الكونيّ. وفي أفسس ٦، يوصينا بولس أن نشنَّ تلك الحرب السلميَّة التي يشنُّها حمل الله على تلك الرياسات والسلاطين وولاة العالم على ظلمة هذا الدهر. إنَّنا نشنُّ الحرب على كلِّ هذه الهيكليَّات الشيطانيَّة والقوى الظالمة بطريقةٍ تتماشى مع الأسلحة القويَّة التي يذكرها في أفسس ٦ وهي الحقُّ والبرُّ والسلام والإيمان والصلاة. نهاجم الشرَّ على كافَّة المستويات: الشخصيَّة والاجتماعيَّة وكلِّ المنظومات والمؤسَّسات.

ومثل أيِّ حربٍ، فإنَّ هذه الحرب ضدَّ الرياسات والسلاطين، نشنُّها على كافَّة الجبهات وعلى مدى ٣٦٠ درجة. فعندما نخاطب مُلَّاك الشقق الصغيرة في الأحياء الفقيرة الذين يُثقِّلون بالإيجار على الأُسر محدودةِ الدخل، فيجب أن نتكلَّم بسلطان إلى ''رياسة'' الطمع والاستغلال التي تحرِّكهم من وراء الستار. وعندما نواجه صنَّاع السياسات أو مديري الشركات، فإنَّنا نفعل ذلك بقوَّةٍ داخليَّة ناشئةٍ من الصلاة والصَّوم، والبساطة والخضوع.

عفوًا، إنَّني لا أقصد أنَّنا يجب أن نذهب إلى هنا وهناك نصرخ في وجوه الناس بآياتٍ كتابيَّة، أو حتَّى نقول أيَّ شيء دينيٍّ بالمفهوم المعتاد. إنَّني أتذكَّر جيِّدًا لقاءً عقده خمسةٌ منَّا مع مسؤولٍ رفيع في البيت الأبيض حول موضوع الحرب والسلام. اجتمعنا نحن الخمسة قبل اللقاء لنصلِّي طالبين فكر المسيح ولنحاول أن نستشعر ''حضوره وسطنا''. أمَّا في الاجتماع نفسه، فلم نستخدم أيَّة لغةٍ ''دينيَّة''، لكنَّ الحدث بدا ملآنًا بما يمكن أن نسمِّيه ''ثقلًا'' حقيقيًّا، واستمع المسؤول لما كنَّا نقوله باهتمامٍ غير معتاد. وأعتقد أيضًا أنَّنا تكلَّمنا بالحقِّ بقوَّة. هل غيَّر اجتماعنا الصغير هذا سياسات الحكومة؟ لا أعلم، لكنَّني مقتنعٌ أنَّ ما تحقَّق أكثر كثيرًا ممَّا كان يمكن أن يتحقَّق لو اندفعنا حاملين خططنا المحدودة ومطالبنا المزخرفة بتعابير دينيَّةٍ مبتذلة.

العقارات والرياسات

من السهل اليوم أن نرى ما أقوله إن كان الأمر، مثلًا، معاداة الساميَّة في الرايخ الثالث، أو عنصريَّة قوانين جيم كرو(Jim Crow) ________، لكن من النادر أن تكون خياراتنا واضحة بهذه الدرجة من الوضوح (وفي الحقيقة، فإنَّ الأمور لم تكن واضحة حتَّى في تلك الأوقات للذين كان يغلِّفهم الضباب الثقافيُّ في ذلك الوقت). فلأضرب هذا المثلَ الذي يبدو بريئًا لما أتحدَّث به: بيع الأملاك والعقارات وشراؤها. من فضلك افهَمني. إنَّني لا أثير هذه القضيَّة لألوم أحدًا. إنَّني أمتلك منزلًا وأرضًا، لذا فإنَّني متورِّط في المشكلة تمامًا مثل الجميع. ما أريد أن أبرزه هو عندما تكون هذه الرياسات والسلاطين خبيثة ومتسلِّلة.

من أكثر المنظومات دمارًا في عالمنا اليوم منظومة تحديد قيمة الأراضي والمباني المبنيَّة فوقها. هذه المنظومة تستبعد

أغلب المجموعات البشريَّة. نصنع الخريطة ونقسم الأراضي ونوزِّعها على صاحب أكبر عرضٍ، كما لو كانت الأرض قطعة فنِّيَّة نادرة تباع في مزاد. إنَّ التعامل مع الأرض وكأنَّها سِلعة لا يعبأ بالإعلان الكتابيِّ أنَّ ''للرَّبِّ الأرضُ ومِلؤُها. المَسكونَةُ، وكُلُّ الساكِنينَ فيها'' (مزمور ٢٤: ١). الأرض مُلكٌ لله وحده. لكنَّنا نتعامل مع الأرض كما لو كُنَّا نحن الذين صنعناها. نشتريها ونبيعها. وتكون النتيجة أنَّ قيمة الأرض، وما نبنيه فوقها، يحدِّدها السوق.

ومع أنَّ نظام السوق الحرَّة ليس جيِّدًا ولا سيِّئًا في ذاته، فإنَّ تطبيق مبادئ السوق الحرَّة وكلَّ صفقة تتولَّد فيها، لها تأثيرٌ جيِّدٌ أو سيِّئٌ في المشاركين فيها. هذا حقيقيٌّ لا سيَّما في ما يتعلَّق بالأراضي والعقارات.

وكما هو متوقَّع، في نظام اقتصاد السوق الحرَّة، الأرض التي عليها أكبر قدرٍ من الطلب، هي أغلى الأراضي. والأمثلة التي تخطر على البال مباشرة هي القصور الواقعة على الجبال أو المنتجعات المطلَّة على الشواطئ. ولعلَّ الأقلَّ وضوحًا، والأكثر شيوعًا، تلك الأراضي السكنيَّة والتجاريَّة التي تقع في المناطق ''الأفضل'' في المدينة أو ''الأكثر شُهرة'' أو الأماكن التي ''توجد فيها الوظائف''. فمَن لديهم المال الوفير يمكنهم أن يعيشوا حيثما يريدون، وعادة ما يتجاورون. أمَّا أصحاب الموارد الأقلِّ، فإنَّهم يعيشون في مناطق أقلَّ ثراءً. فتكون النتيجة فصل الفقراء عن الأغنياء.

وهنا تتدخَّل الرياسات والسلاطين. فمع أنَّ الأفراد والأُسر ذات الإمكانات لديها الكثير من الأسباب الجيِّدة التي تجعلها تعيش في هذه المناطق، فإنَّ تأثير هذا النظام في الفقراء هو تأثيرٌ شيطانيّ. في النظام الذي يميل إلى جعل الأغنياء يفصلون أنفسهم عن الفقراء، يتحدَّد الإنفاق على المدارس والبنية التحتيَّة وغيرها من الخدمات الحكوميَّة في كلِّ منطقة بناءً على الشريحة الضريبيَّة للسكان المقيمين فيها، وهكذا فإنَّ الفقراء يتلقَّون خدمات أقلَّ ويحصلون على فرصٍ وظيفيَّةٍ واجتماعيَّةٍ وترفيهيَّةٍ أقلَّ من الأغنياء. والأكثر من ذلك، فلأنَّ الفقراء لا يقدرون مادِّيًّا على العيش بين الأغنياء، فإنَّهم يصبحون معزولين عن التيَّار الاقتصاديِّ العامِّ للمجتمع. يصبح الفقراء معزولين ومهمَّشين لأنَّهم لا يستطيعون العيش في أماكن متَّصلة بالاقتصاد الكلِّيّ. وبدلًا من تحقيق الوحدة بين الذين لديهم والذين ليس لديهم، فقد حقَّقنا الانفصال. بدلًا من الخير للجميع، أصبح الخير لبعض الناس فقط. وبدلًا من الخدمات الفعَّالة للجميع، لدينا خدمات ضعيفة كثيرة الأعطال للفقراء.

على الجانب الآخر، فإنَّ البساطة المسيحيَّة تهدف إلى وضع الفاعليَّة والقداسة في مكان العطب والشرّ. ونحن إذ نسعى خلف البساطة، نسحب البساط من تحت الاتِّجاه الذي يسير فيه العالم ونعيد توجيهه نحو رؤية جديدة باعثة للحياة عن العيش معًا. إنَّ البساطة تولِّد قيمًا جديدة، منها تنشأ قراراتٌ جديدة، ومن ثَمَّ يتكوَّن مجتمعٌ جديد.

قضيَّتان مهمَّتان

إذا لم تكن الرياسات والسلاطين مجرَّد قوى كونيَّة خارجة عن سيطرتنا، بل ناتجة من تفاعل بين الواقع البشريِّ والروحيِّ والاجتماعيِّ والمؤسَّسيِّ، فإنَّ لدينا إذًا الفرصة أن نشترك مع الله في إعادة تشكيل أنظمة العالم الذي نعيش فيه. إنَّنا عاملون مع الله، باذلون الجهد معًا للوصول إلى عالم يعمل بصورة أفضل.

يقودنا هذا إلى القضيَّة الأولى في ما يتعلَّق بتطبيق البساطة المسيحيَّة في العالم: **هل نستطيع أن نضع لأنفسنا هدفًا أساسيًّا، وهو توفير ما يكفي من غذاء وملابس ومأوى لكلِّ إنسان على سطح هذا الكوكب، بالإغاثة وأعمال الرحمة، أو بالتنمية الاقتصاديَّة؟** بصفتنا مسيحيِّين، لا يوجد مبرِّرٌ لمثل ذلك الهدف أفضل من تعليم يسوع عن الدينونة النهائيَّة في إنجيل متَّى ٢٥. عندما سيقول ''ابن الإنسان'' للأبرار: ''لأنِّي جُعتُ فأطعَمتُموني. عَطِشتُ فسقَيتُموني. كُنتُ غَريبًا فآوَيتُموني. عُريانًا فكسَوْتُموني. مَريضًا فزُرتُموني. مَحبوسًا فأتَيتُمْ إلَيَّ''. فيسأله الأبرار مندهشين عن كيفيَّة حدوث ذلك. فيجيب يسوع: ''الحَقَّ أقولُ لكُمْ:

بما أنَّكُمْ فعَلتُموهُ بأحَدِ إخوَتي هؤُلاءِ الأصاغِرِ، فبي فعَلتُمْ'' (متَّى ٢٥: ٣٥-٤٠).

كثيرون هذه الأيام قد أُعطوا جانبًا واحدًا من الإنجيل؛ أي رسالةً تقدِّم الأخبار السارَّة بالخلاص في الحياة الآتية، دون الاهتمام باحتياجات البشر هنا والآن. لا. إنَّ علينا أن نُعلن الأخبار السارَّة التي تشمل جانبَي الحياة قبل القبر وبعده. وفي الوقت نفسه الذي ننادي فيه بيوحنَّا ٣: ١٦، نحتاج أيضًا أن نشارك بالكلمات الباعثة للحياة التي ترنَّمت بها مريم العذراء في تمجيدها للربّ:

وَرَحمَتُهُ إلَى جيلِ الأجيالِ للَّذينَ يتَّقونَهُ.
صَنَعَ قوَّةً بذِراعِهِ.
شَتَّتَ المُستَكبِرينَ بفِكرِ قُلوبِهِمْ.
أنزَلَ الأعِزّاءَ عن الكَراسيِّ ورَفَعَ المُتَّضِعينَ.
أشبَعَ الجياعَ خَيراتٍ وصَرَفَ الأغنياءَ فارِغينَ (لوقا ١: ٥٠-٥٣).

لقد لُحِّنت هذه الكلمات ورُنِّمت بموسيقا جميلة عبر القرون، لكنْ يجب ألَّا يحجب الجمال الذي تُقدَّم به هذه الترنيمة السياق الذي قيلت فيه والرسالة المحوريَّة التي أُرسلت إلى مراهقة تعيش على حدود السياسات العالميَّة في ثقافةٍ خاضعة للاستعمار. وكما أشرتُ في الفصل الثالث، فهذا نصٌّ من نصوص التحرير من الأحوال الاجتماعيَّة المدمِّرة، ورسالةُ رفضٍ لأيِّ نظامٍ يقوم على فكرة أنَّ بعض الناس أغنياء وسيظلُّون كذلك، وبعضهم الآخر فقراء وسيظلُّون كذلك. عاش يسوع ومات من أجل التحرير الروحيِّ والاجتماعيِّ، وهو يريد الشيء نفسه لنا اليوم. ولأنَّنا أتباعه، يجب أن يستحوذ هذا الهدف نفسه على تفكيرنا، ويجب أن يتجلَّى في مساعدة الآخرين أن يحصلوا على أكثر احتياجاتهم جوهريَّةً، جسديًّا وروحيًّا.

لكنَّ هناك قضيَّة ثانية تنبع من الأولى يجب أن نواجهها، وهي قضيَّة جدِّيَّة. إذا كان للمسيحيِّين أن يحملوا بالكامل مهمَّة تحقيق الاكتفاء العالميِّ في الغذاء والملابس والمأوى للجميع، بصفته تعبيرًا واضحًا عن الإنجيل، فإنَّ مستوى معيشة الملياري نسمة من الفقراء في العالم سترتفع بصورةٍ ملحوظة. ومع أنَّ هذا احتمالٌ مشجِّع، فإنَّ هذه النقلة ستكون ضغطًا مهولًا على الموارد الطبيعيَّة للأرض. تخيَّل مقدار الأرض الزراعيَّة والماء والخشب وكلَّ الموادِّ التي سنحتاج إليها لكي نطعم ملياريَ بطنٍ جائع ونكسو ملياريَ جسدٍ شبه عارٍ، ونُسكِن ملياريَ نفسٍ مُشرَّدة. تخيَّل لو عاش العالم كلُّه معيشة الوفرة التي يعيشها نحو ٦٠٠ مليون شخصٍ يعيشون في اليابان وأميركا الشماليَّة، وأوروبا الغربيَّة. باختصار، لا تستطيع الأرض أن تحتمل هذا المستوى من المعيشة للجميع.

مع كلِّ ارتفاعٍ لمتوسَّط مستوى المعيشة في العالم، ترتفع إمكانيَّة إحداث ضررٍ للأنظمة الطبيعيَّة التي تعتمد عليها حياتنا. ومع أنَّ هذا يجب ألَّا يثنينا عن محاولة رفع مستوى معيشة الملياريَ نسمة من الفقراء، فإنَّنا يجب أن نواجه هذا التحدِّي بحكمة، محاولين أن نحافظ على الاتِّزان بين التنمية الاقتصاديَّة من ناحية، والحفاظ على البيئة من ناحية أُخرى.

حلَّان مناسبان

عندما نحاول أن نفهم المحنة اليائسة التي نحن فيها في ما يتعلَّق بفقراء العالم، تلحُّ الرغبة في إيجاد الحلول المناسبة علينا وتضغط من نواحٍ عدَّة. فلأذكُر اثنين من هذه الحلول، مع ذكر عيوب كلِّ حلٍّ منهما.

يقع الحلُّ الأوَّل في تطبيق نظامٍ اقتصاديٍّ جديد على أمل أنَّ تغيير النظام الحاليِّ يُمكن أن يؤدِّي إلى تغييرٍ واسع المدى

في حياة الأفراد. كانت الرأسماليَّة والشيوعيَّة وكلُّ نظامٍ اقتصاديٍّ وُضِع، تهدف إلى الهدف ذاته، ولم يستطع أيٌّ منها أن يحقِّق الهدف المنشود والموعود. يشير هذا الفشل المستمرُّ إلى أنَّ العجز العامَّ الذي لدينا، نحن سكَّانَ هذا الكوكب، في عدم قدرتنا على تحقيق ذلك العالم الذي نرغب أن نعيش فيه، متأصِّلٌ في الطريقة التي نُدير بها أمورنا الشخصيَّة وليس في النظام الاقتصاديِّ العامِّ المستخدَم.

هذا لا يعني أنَّه لا يوجد نفعٌ في القيم الخاصَّة بكلِّ الأنظمة الاقتصاديَّة التي اقتُرِحَت وطُبِّقت. في واقع الأمر، هناك تبريرٌ كتابيٌّ ما للرأسماليَّة من جهة والشيوعيَّة من جهة أُخرى، وهما على طرفَي النقيض في الطيف الاقتصاديّ.

فكِّر في الرأسماليَّة مثلًا في ضوء عدد من فقرات العهد الجديد: ''فاثبُتوا إذًا في الحُرِّيَّةِ التي قد حَرَّرَنا المَسيحُ بها'' (غلاطِيَّة ٥: ١)، ''إنْ كانَ أحَدٌ لا يُريدُ أنْ يَشتَغِلَ فلا يأكُلْ أيضًا'' (٢تسالونيكي ٣: ١٠)، ''يَجِبُ أنَّ الحَرَّاثَ الذي يتعَبُ، يَشتَرِكُ هو أوَّلًا في الأثمارِ'' (٢تيموثاوس ٢: ٦). في هذه الفقرات يبدو الرسول بولس مثل أحد تلاميذ آدم سميث (Adam Smith)، الفيلسوفُ الأخلاقيُّ الإنكليزيُّ الذي يعتقد كثيرون أنَّه أبو الرأسماليَّة واقتصاديَّات السوق الحرَّة. في كتاب ''**تساؤل بشأن طبيعة ثروة الأمم وأسبابها**'' *(An Inquiry into the Nature and Causes of the Wealth of Nations)*، يكتب سميث: ''يبذل كلُّ فردٍ مجهودًا مستمرًّا لكي يكتشف التوظيف الأمثل لأيِّ رأس مال يمتلكه. وهو في واقع الأمر ينظر إلى مصلحته هو وليس إلى مصلحة المجتمع''.[١] وهكذا فإنَّ النظام الرأسماليَّ يشجِّع الحُرِّيَّة والمبادرة الذاتيَّة والمُلكيَّة، وهذه أمور يقدِّرها الكتاب المقدَّس.

وبالمثل، فإنَّ هناك أيضًا تبريرًا كتابيًّا للمنظور الاقتصاديِّ الشيوعيّ. فكِّر، مثلًا، في مبدأ سنة اليوبيل في سِفر اللاويِّين، الأصحاح ٢٥. سنة اليوبيل هذه هي أبعد ما تكون عن اقتصاديَّات السوق الحُرَّة؛ ففيها تعود مُلكيَّة الأرض إلى مالكها التاريخيّ. إنَّه ببساطة اقتصادُ إعادة التقسيم. في سِفر أعمال الرسل، نقرأ أنَّ المجتمع الكنسيَّ الأوَّل كان له ''...قَلبٌ واحِدٌ ونَفسٌ واحِدَةٌ، ولَمْ يَكُنْ أحَدٌ يقولُ إنَّ شَيئًا مِنْ أموالِهِ لهُ، بل كانَ عِندَهُمْ كُلُّ شَيءٍ مُشتَرَكًا'' (أعمال الرسل ٤: ٣٢). وقد عرفنا أنَّه لم يوجد بينهم محتاج ''...لأنَّ كُلَّ الذينَ كانوا أصحابَ حُقولٍ أو بُيوتٍ كانوا يَبيعونَها، ويأتونَ بأثمانِ المَبيعاتِ، ويَضَعونَها عِندَ أرجُلِ الرُّسُلِ، فكانَ يوزَّعُ علَى كُلِّ أحَدٍ كما يكونُ لهُ احتياجٌ'' (أعمال الرسل ٤: ٣٤-٣٥). انتشرت مقولةٌ منسوبةٌ إلى كارل ماركس (Karl Marx)، المؤسِّس الشريك للنظام الشيوعيِّ الحديث، تقول: ''مِن كلِّ واحدٍ، بحسب إمكاناته، إلى كلِّ واحدٍ، بحسب احتياجاته''. المشاركة والعقليَّة المتشابهة والمُلكيَّة المشتركة هي أمورٌ موجودة في الشيوعيَّة **وأيضًا** في الإعلان الكتابيّ.

وكما توضح المناظرات الحامية في وسائل الإعلام، لا شكَّ أنَّ لدى الناس آراءً عدَّة في الأمور الاقتصاديَّة. إنَّنا بالتأكيد نستطيع أن نتكلَّم الكلام الذي يضعنا في أفضل صورة، لكنَّنا في واقع الأمر نتوق إلى نظامٍ يحقِّق الخلاص الزمنيَّ بلا تكلفة، أو بأقلِّ تكلفة ممكنة علينا نحن الأفراد. إنَّنا نحبُّ أن نكون كسلانين نشاهد التفَّاح يتساقط حيث سيأكله الدود، معتقدين أنَّ النظام سيحوِّله تلقائيًّا إلى مربَّى التفَّاح.

في حقيقة الأمر، إنَّنا لا نستطيع أن نعتمد على نظامٍ اقتصاديٍّ ليساعدنا في صراعنا ضدَّ الرياسات والسلاطين؛ لأنَّ مثل ذلك النظام ببساطة لا يشتبك مع المجال الذي نحتاج لأنْ نشتبك معه. التعريف الواسع للاقتصاد هو أنَّه دراسة كيفيَّة الحصول على أقصى منفعة من قدرٍ محدودٍ من الموارد المادِّيَّة، سواء كانت أرضًا أم عملًا أم رأسَ مال. كلُّ فضيلةٍ يمكن أن نجنيها من الرأسماليَّة أو الشيوعيَّة أو أيِّ نظام اقتصاديٍّ آخر لا تغيِّر حقيقة أنَّ هذه الأنظمة **مادِّيَّة**. ونحن نصبح مادِّيِّين للدرجة التي نسمح بها لأيِّ نظامٍ مادِّيٍّ أن يحدِّد لنا رؤيتنا للعالم. لكن، كما نعلم، فإنَّ الرياسات والسلاطين هي في

''السماويَّات''؛ أي أنَّها واقعٌ فائق للطبيعة يؤثِّر في العالم الماديّ. إنَّها بطبيعتها تُحرِّك أيَّ نظامٍ نضعه، إمَّا نحو الخير وإمَّا نحو الشرّ. لكي نُغيِّر القوى، يجب أن نتراجع خطوة عن أيِّ نسق مادِّيٍّ أنانيٍّ، ونتقدَّم خطوة نحو طريقة تجعلنا معًا، وتُقاس بالرحمة الإلهيَّة وليس بالاستهلاك المادِّيّ.

الحلُّ الثاني المناسب الذي ينبع من دوافع الرحمة بدلًا من دوافع الاستهلاك، ما يزال للأسف محبوسًا بصورةٍ كبيرةٍ في بنية النظام السائد. يقيس هذا الأسلوب الحالة الحاضرة ويبدأ بتصميم الاستراتيجيَّات لمواجهتها. هل المشكلة هي الجوع؟ إذًا سنحصل على طعام للجائعين. هل المشكلة هي الإسكان؟ سنبني بيوتًا. هل المشكلة في الكساء؟ سنجد ملابس. هذا الأسلوب يرى العالم كسلسلة من المشكلات التي علينا حلُّها.

من المهمِّ بالتأكيد أن ننظر إلى العالم ونتحمَّس لحلِّ مشكلاته. في واقع الأمر، بقاء الذين هُم بالكاد على قيد الحياة يعتمد على هذا الأسلوب في التعامل مع الوضع الحاليّ. الحكومات والمنظَّمات غير الحكوميَّة والأعمال الخاصَّة والكنائس والأفراد– نحتاج بالتأكيد إلى اشتراك الجميع لكي نستطيع أن نساعد من هم في حالة احتياج عاجل. لكن على المدى الطويل، فإنَّ هذا حلٌّ مكتوبٌ له الفشل. فعندما نعدُّ اهتمامنا بالعالم مجرَّد سلسلة من التدريبات على حلِّ المشكلات، فإنَّ ذلك يجعلنا نصدِّق انطباعًا خاطئًا أنَّنا نستطيع حلَّ **كلِّ شيء**. إنَّنا نشعر بأنَّ كلَّ ما نحتاج إليه هو أن نضبط هذا النظام هنا، أو نحسِّن من تلك العمليَّة هناك، ثُمَّ ندخل **سلام الله** الكامل.

لكنَّنا للأسف لا نستطيع حلَّ كلِّ مشكلات العالم دون مشاركة العالم. افترض مثلًا أنَّنا استطعنا حلَّ مشكلة الجوع العامِّ بواسطة توزيع الطعام. حتَّى متى ستظلُّ البطون شبعى قبل أن تجوع مرَّة أُخرى؟ مَن يستطيع أن يضمن سخاء الأفراد والدول ذاتهم عندما تقع المجاعة المقبلة؟ افترِض أنَّنا استطعنا أن نبني بيتًا لكلِّ أُسرة. مَن يصون تلك البيوت؟ مَن يبني المزيد إذا تزايد عدد السكَّان؟ ماذا عن الملابس؟ والرعاية الصحِّيَّة؟ وغيرها من القضايا البيئيَّة؟ ستكون كلُّ هذه المعونات قصيرة العمر، ما لم يأتِ الوقت الذي فيه يشعر كلُّ فردٍ بالميل الداخليِّ والانضباط الخارجيِّ نحو طلب رفاهية الجميع.

الحلُّ طويل الأمد هو أن نهزم ونغيِّر الرياسات والسلاطين، في الداخل وفي الخارج، حتَّى يصبحوا– ونصبح نحن أيضًا– كيانات وكائنات تعيش أساليب حياة تتميَّز بالرحمة والمسؤوليَّة تجاه كلِّ الخليقة. لا أستطيع أن أصف وصفًا مجسِّدًا لأسلوب حياةٍ كهذا في سياق هذا النصِّ، لكنَّني أستطيع أن أقترح بعضًا من الخطوات المبدئيَّة في هذا الاتِّجاه. والآن لنتناول هذه الخطوات.

الاتِّجاهات المستدامة

هناك طرقٌ كثيرة ومتنوِّعة للتعبير عن البساطة المسيحيَّة، ويجب أن نُعطي كلَّ إنسانٍ الحُرِّيَّة الكاملة ليستكشف ويطبِّق ما يناسبه بأفضل صورةٍ ممكنة. لكن توجد بعض الاتِّجاهات العامَّة للتطبيق يمكن أن تساعدنا في سعينا نحو حُرِّيَّة البساطة في ما يتعلَّق بالعالم. لننظُر إلى اثنين منها.

يتضمَّن الاتِّجاه الأوَّل التفكير على نطاقٍ واسعٍ بشأن الطريقة الاستهلاكيَّة التي نتعامل بها مع الاحتياجات البشريَّة الآن، وكيفيَّة تسديدها بطرق أكثر استدامة في المستقبل. سيصبح التفكير في اتِّجاه تطبيق **التنمية المستدامة** في كلِّ دول العالم ضرورة كونيَّة في القرن الحادي والعشرين وما بعده. ففي غضون أكثر من مئتَي سنة، نمت الولايات المتَّحدة وأوروبا الغربيَّة حتَّى إنَّ احتياجات كلِّ فرد إلى الطعام والملابس والمأوى تُسدَّد تمامًا وبصورةٍ يوميَّة. ومع أنَّ هذا هو عمومًا ثمرة اقتصاديَّات السوق الحُرَّة والمؤسَّسات الديمقراطيَّة، فإنَّ هناك شكًّا حقيقيًّا إن كان ''أسلوب الحياة الغربيِّ'' هذا سيظلُّ مُستمرًّا، حتَّى

في الغرب نفسه.

ومع أنَّ أسلوب الحياة في الغرب يأخذ صورًا عدَّة، فإنَّ هناك خطًّا رفيعًا يربط بين هذه الصور، وهو الاعتماد على موارد رخيصة نسبيًّا، وأغلبها غير متجدِّدة. دون هذه الموارد، يمكن أن تُطفأ الأضواء وتُسدَل الستائر على أسلوب الحياة ''الغربيّ''.

هناك بالتأكيد تعبيراتٌ عدَّة عن ذلك الاعتماد غير المستدام، لكن لنتأمَّل مثالًا واحدًا: إذا نظرنا إلى اقتصاد الطاقة في الولايات المتَّحدة سنة ٢٠٠٢م، فسنجد أنَّ ٨١٪ من الطاقة المستخدَمة قد جرى توليدها من وقود أحفوريٍّ غير قابل للتجدُّد مثل البترول والغاز الطبيعيِّ والفحم.[٢] تدفئة البيوت، وسير السيارات، وتشغيل المشاريع– كلُّ هذه الأمور تسهم في نوعيَّة الحياة، وتعتمد كلُّها على الطاقة. بكلماتٍ أبسط، تَنتُج الطاقة التي تجعلنا نتوظَّف وننتج ونتحرَّك وندفِّئ بيوتنا أو نبرِّدها، من موارد ستنفد يومًا ما.

يقول بعض الناس إنَّ هذا سيحدث بعد خمسين عامًا، ويقول آخرون بعد ما يزيد على مئة عام. لكن، **سيأتي** يومٌ يصبح فيه الوقود الأحفوريُّ هذا إمَّا غير متاحٍ وإمَّا يصبح استخراجه مكلفًا جدًّا حتَّى إنَّ الشخص المتوسِّط لن يكون قادرًا على شراء الطاقة الناتجة منه. سيؤثِّر هذا الاعتماد على الوقود الأحفوريِّ ونفاده المحتوم في النهاية في كلِّ ناحيةٍ من نواحي الحياة يُمكن تخيُّلها: العمل والترفيه والمدارس والسفر، حتَّى الكنيسة. كيف سيعيش مواطنو الولايات المتَّحدة إذا نفدت غدًا مواردها من هذا النوع من الوقود؟ أو كيف يمكنهم حتَّى أن يبقوا على قيد الحياة؟ وهي فقط مسألة وقت قبل أن تصبح هذه الأزمة حقيقة واقعة.

إنَّني بذلك أريد أن أوضح نقطة واحدة: أنَّنا لا نعيش أسلوبَ حياة قابلًا للاستدامة، وأنَّ أغلب أشكال الحياة التي نستمتع بها الآن مبنيَّةٌ في واقع الأمر على استهلاك لموارد غير مُتجدِّدة. إنَّ الموارد محدودة للشعوب الغربيَّة، **وأيضًا** للشعوب التي تتطلَّع إلى أسلوب الحياة نفسه في الدول النامية. إذا لم نتوقَّف ونتأمَّل ونُعِد التفكير ونبتكر– بصورةٍ جذريَّة– طرقًا جديدةً نعيش بها حياتنا اليوميَّة، فإنَّ أسلوب حياتنا سينهار، سواء في أثناء حياتنا أم حياة أولادنا أم أولادهم. وسيكون أيُّ تطويرٍ استطعنا استحداثه في البلاد النامية أيضًا قصير العمر. وإذا بقي الوضع كما هو عليه، فإنَّ الجيل الثالث أو الرابع، هنا وفي كلِّ مكانٍ آخر في العالم، سيضطرُّ لأنْ يتحمَّل أخطاء أجدادهم وأنانيَّتهم.

الاتِّجاه المستدام الآخر الذي يمكننا أن نفكِّر فيه هو أن نقضي ما يكفي من وقتٍ ونبذل ما يكفي من جهدٍ لكي نراجع بصرامة طرق حياتنا بصفتنا أفرادًا، ونُطبِّق تغييرات مُبدِعة في حياتنا تراعي حقيقة أنَّنا يجب أن نتحرَّك نحو طرق حياة قابلة للاستدامة.

يمكننا أن نعيد تدوير الأشياء، ونعيد استخدامها، أو نقرِّر عدم شراء هذه الأشياء من الأساس. يمكن أن نستقلَّ الدرَّاجات الهوائيَّة بدلًا من السيَّارات. يمكن أن نسير. أو نختار أن نظلَّ في بيوتنا للتعرُّف إلى جيراننا. يمكننا أن نكتب ونغنِّي ونسلِّي أنفسنا وأصدقاءنا. إنَّنا عندما نطبِّق القيم التي نجدها في البساطة المسيحيَّة في حياتنا، فهذه هي الطريقة الأوَّليَّة التي يمكننا بها أن نشجِّع هذه القيم في العالم الذي نعيش فيه في بيوتنا وأحيائنا ومدننا ودُولنا. يمكننا أن ننادي أن تكون الشركات مسؤولة اجتماعيًّا، ونشجِّع سنَّ القوانين والإجراءات التي تحافظ على البيئة. نستطيع أن نساعد أعضاء الكنائس أن يجسِّدوا في حياتهم فضائل البساطة المسيحيَّة...وأكثر من ذلك. إنَّ التأثير الأكثر عمقًا والأطول أثرًا الذي يمكن أن يكون لنا في العالم، سيتحقَّق بتأمُّل أساليب البساطة المسيحيَّة وتطبيقها في حياتنا.

إنَّنا الآن مستعدُّون لأنْ ندرس المجالات الثلاثة التي نجد أنفسنا فيها طوال الوقت، وهي المجال الشخصيُّ ومجال المجتمع الصغير، ثُمَّ المجتمع الأكبر– ونحلم بالتأثير الذي يمكن أن يكون لنا إذا جسَّدنا في هذه المجالات دعوة الله إلى البساطة.

مبادرة شخصيَّة

يبدأ التأثير في العالم بواسطة البساطة المسيحيَّة بالإنسان الفرد. الفرد هو أصغر وحدة في المجتمع البشريِّ، وهو نقطة بدايتنا. لا نحتاج لأنْ ننظر إلى ما هو أبعد من الكتاب المقدَّس لكي نجد المبرِّر أن نتَّخذ الفرد نقطةً للانطلاق. الكتاب المقدَّس مشبعٌ بتأمُّلاتٍ في حياة أفرادٍ، بما في ذلك خياراتهم، ونتائجها: إبراهيم وهاجر وسارة، إسحاق ورفقة، يعقوب وعيسو، ليئة وراحيل، زلفة وبلهة، يوسف وإخوته... اتَّخذ جميع هؤلاء قراراتٍ دقيقة في حياتهم كانت لها تأثيرات بعيدة المدى. لقد كانوا أفرادًا في أُسرٍ وعشائر، وكانوا مسؤولين بعضهم أمام بعض وأمام الله عن أفعالهم الشخصيَّة. أدَّت كلُّ التصرُّفات الفرديَّة، سواء كانت كبيرة أم صغيرة؛ ما تبدو مهمَّة وما تبدو تافهة، إلى تكوين شعبٍ بأكمله، شعب العهد، شعب بني إسرائيل.

يساعدنا النظر إلى الكتاب المقدَّس بعدسة المسؤوليَّة الفرديَّة أن نطرحَ الأسئلة الصحيحة بشأن الحياة في العالم. إذا كان الله قد أعطى الأسرة الأولى مهمَّة الوكالة وأخلاقيَّاتها (كما ترد في تكوين ١)، فكيف عليَّ أن أجسِّد هذه الأخلاقيَّات في حياتي الشخصيَّة؟ إذا كان حضور الربِّ يسوع في حياة زكَّا قد أدَّى إلى ذلك التأثير في منظوره إلى المال والممتلكات (لوقا ١٩: ١-١٠)، وهل يريد الله أن يؤثِّر فيَّ أنا أيضًا بحضوره؟ وكيف سأتجاوب؟ إذا كانت دعوة الرسول بولس إلى الكنيسة الوليدة في كورنثوس، أن تخدم ''خدمة المصالحة''، هي دعوة موجَّهة إليَّ أنا أيضًا، فكيف أُجسِّد المصالحة في حياتي؟ (٢كورنثوس ٥: ١٨-٢٠). هذه، وغيرها، أسئلة أساسيَّة نطرحها بينما نمسك بالكتاب المقدَّس في يد ونمسك في اليد الأُخرى بمهمَّة تمثيل البساطة المسيحيَّة في العالم.

يخاطب أغلب المكتوب في هذا الكتاب الأفراد لكي يعيشوا البساطة في حياتهم الشخصيَّة. ما أريد أن أضيفه هنا هو وضع البساطة في إطار العمل على تغيير العالم بأسره. كيف يمكن أن تشجِّعنا أساسات حياتنا اليوميَّة على توفير حياةٍ أفضل لأُسرنا وجيراننا، وفي واقع الأمر، لخليقة الله كلِّها؟

وتتأصَّل إمكانيَّة أن يُغيِّر هذا العمل الجماعيُّ للأفراد في طبيعة تأثيرنا في الخليقة من حولنا. في كتاب ''**الخُطَّة الإلهيَّة**'' *(The Divine Conspiracy)*، يقول دالاس ويلارد (Dallas Willard) بوضوح إنَّ كلَّ واحدٍ فينا لديه ''ملكوت'' هو نطاقُ تأثير إرادته الفاعلة، حيث يحدث فيه ما يريده أن يحدث. ويعكس هذا، بتصويرٍ بشريٍّ، حقيقة ملكوت الله، أي نطاق إرادته الفاعلة، حيث ما يريده الله يحدث.

إنَّنا معتادون التفكير من مُنطلق مُلك الله. عندما نقرأ عن كلمة الله التي دعت الخليقة إلى الوجود، ونشهد حفاظ الله على اتِّزان الطبيعة ودوائرها التي تدور باتِّزان (''المُنزِلِ مَطَرًا علَى وجهِ الأَرضِ، والمُرسِلِ المياهَ علَى البَراريِّ'' [أيُّوب ٥: ١٠])، فإنَّنا نختبر ثمار امتداد ملكوت الله، واتِّساع نطاق مشيئته.

وبالمثل، فإنَّ الله قد أعطى لكلِّ واحدٍ منَّا ''مجالًا'' تتحقَّق فيه إرادتنا **نحن**، للخير وللشرّ. إنَّه النطاق الذهنيُّ والمادِّيُّ الذي فيه يؤثِّر ما نفعله ونقوله في مآل الأشياء. إذا كان ملكوتنا الشخصيُّ يعمل جيِّدًا ويتميَّز بالفضيلة، فإنَّ من يؤثِّر فيهم ذلك الملكوت، سيتشجَّعون للسلوك السليم والفضيلة الحقيقيَّة. أمَّا إذا كان ملكوتنا مضطربًا ويتميَّز بالرذيلة، فإنَّ كلَّ مَن

سيلمسهم سيدفعهم نحو العطب والرذيلة. وكلَّما اتَّسع نطاقُ ملكوتنا، كان لنا تأثيرٌ أكبر في الآخرين. وكلَّما كان ملكوتنا أصغر، كان تأثيره قليلًا. وسواء كان كبيرًا أم صغيرًا، فإنَّه يتفاعل طوال الحياة مع ملكوت الله.

ورغم أنَّنا نتمنَّى دائمًا السلام والوصول إلى ما يمكن أن نعدَّه ''برَّ الأمان'' حيث لا نحتاج دائمًا إلى اتِّخاذ قرارات مصيريَّة، فإنَّ الله لن ينتهك حدود ملكوتنا، لذا **يجب** علينا دائمًا أن نتَّخذ القرارات ونتحمَّل مسؤوليَّتها؛ لأنَّ الله اختار بكلِّ حُرِّيَّةٍ أن يمنحنا نحن أيضًا إرادة حُرَّة، فملكوت الله لا يمكن أن يُلغي القرارات التي نتَّخذها في مجال ملكوتنا الشخصيِّ، مهما كانت النتائج. لذلك فإنَّ الأمر يعود إلينا تمامًا، لنكون إمَّا عاملين مع الله من أجل الخير العامِّ، وإمَّا منافسين له، حاسبين أنفسنا نحن الذين نحكم الكون. لهذا السبب، إذا أردنا أن تتثبَّت فضائل البساطة المسيحيَّة في العالم من حولنا، فإنَّ كلَّ واحدٍ منَّا عليه أن يقوم بالعمل الأساسيِّ، بشراكةٍ مع الله.

الآن، يجب ألَّا نظنَّ أنَّ الهدف من كلِّ ذلك هو أن يمدَّ كلٌّ منَّا ملكوته الصغير ليسود الآخرين. كلَّا**!** ليس الهدف أن نمدَّ حدودنا و''نوسِّع رُقعتنا''. الهدف هو أن نضع ممالكنا الصغيرة في اتِّجاه مملكة الله **العُظمى،** مجال تنفيذ إرادته الفاعلة، حتَّى نستطيع دائمًا أن نقول: ''لتكن لا إرادتي، بل إرادتك''. وسواء كان مجال تنفيذ إرادتنا الفاعلة صغيرًا أم كبيرًا، فما يجب أن نفعله هو أن نضبط إرادتنا على موجة إرادة الله.

إذا كانت هذه هي الحال– إذا كانت لكلٍّ منَّا مساحة لنا فيها القَول الفصل؛ وإذا كانت هذه هي طبيعة حياتنا كما خلقها الله– فهذا يُظهر بوضوحٍ دور البساطة المسيحيَّة في تشجيع حياة العالم وتنميتها. إنَّنا نرى أنَّ للقرارات التي نتَّخذها– ما نأكل، وما نشرب، وما نلبس، ومكان السكن، ومَن نقضي وقتنا معهم (بكلماتٍ أُخرى، كلُّ ما نفعله داخل ممالكنا الشخصيَّة)– تأثيرًا ليس فقط في حياتنا بل أيضًا في حياة كلِّ مَن حولنا ومعيشتهم. في واقع الأمر، في عالمٍ يزداد اتِّصاله بعضه ببعض، لأفعالنا تأثيرٌ قيِّمٌ في كلِّ خليقة الله. يمكن إمَّا أن يتأسَّس ملكوتنا على القيم التي نكتشفها في ملكوت الله– المساواة، العدالة والرحمة والصبر والمحبَّة وغيرها– وإمَّا على قِيَم مغايرة. يمكن لممالكنا الصغيرة أن تعكس بصورةٍ مقصودة طريقةَ حياةٍ تشجِّع حياة العالم من حولنا وتدعمها أو لا تفعل ذلك بتاتًا. يمكن أن يتعاون نطاق إرادتنا الفاعلة مع مُلك الله أو لا يتعاون معه.

وبخلق مساحة للتأمُّل والتقييم والتخطيط وتغيير أسلوب الحياة الشخصيِّ، يمكن أن تعلِّمنا ممارسة البساطة المسيحيَّة أن نتعرَّف منظومة القيم التي في العالم، ونستعيض عنها بمنظومة القيم الخاصَّة بملكوت الله. علاوةً على ذلك، فإنَّ البساطة تخلق لنا المساحة والوقت والطاقة والموارد التي يمكن أن نُعيد بها ترتيب حياتنا لكي نتَّبع بعزمٍ مبادئ ملكوت الله في حياتنا اليوميَّة. نحو ألف قرار يوميًّا، وعشرة آلاف قرار أسبوعيًّا، وملايين القرارات مدَّة الحياة هي مُجمل تأثير ممالكنا الأرضيَّة في أنفسنا وفي العالم. وعندما نتأمَّل ونتجاوب، فإنَّ الله يكشف لنا الإمكانات المتاحة لنا في كلِّ لحظة لأن نعمل على تشجيع الخير في ممالكنا الشخصيَّة، مرتبطين بالخير الذي يرعاه ملكوت الله العامّ. إنَّنا عندما نتبع البساطة المسيحيَّة، فإنَّ أسلوب حياتنا يتغيَّر، وتبدأ الأولويَّات والممارسات التي نمارسها في حياتنا الشخصيَّة في مشابهة أولويَّات ملكوت الله، ومن ثمَّ فإنَّ تأثير حياتنا يمتدُّ إلى آفاقٍ لا نستطيع أن ندرك مداها.

إذًا، من أين نبدأ؟ ما الخطوات الأولى نحو تشجيع الحياة التي تعمل بتناغمٍ مع مقاصد الله في هذا العالم؟ كيف نبدأ بإصلاح المجال الذي تعمل فيه إرادتنا الفاعلة؟ هناك الكثير من الاتِّجاهات التي يمكن أن نتحرَّك فيها. يمكن أن نزيد من وعينا بأفعالنا بالقراءة والاستماع والمشاهدة. يمكننا أن نستخدم السفر لخدمة الفقراء أو أن نذهب في رحلات من ''الإرساليَّة المعكوسة''، حيث يكون دورنا أن نتعلَّم من هؤلاء الذين يعيشون على حافة المجتمع. يمكن أن تتضمَّن

الصداقات المزيد من الأشخاص المختلفين عنَّا، سواء كانوا طلبة من بلدانٍ أُخرى، أم أُسرًا من خلفيَّةٍ عرقيَّةٍ أُخرى تسكن في الجوار. يمكن أن تعكس الميزانيَّات انخفاضًا في مستوى المعيشة الذي اعتدناه. يمكن أن يتحوَّل نظامنا الغذائيُّ من المنتجات الحيوانيَّة إلى المزيد من الخُضَر والفاكهة، وكمٍّ أصغر من الخيارات التي تستنزف الكثير من الموارد.

مهما كانت الخطوات الفرديَّة التي نتَّخذها، فإنَّ الهدف هو أن تتحوَّل أولويَّاتنا من تسديد احتياجاتنا، إلى تلبية احتياجات الآخرين. وإنَّنا نرجو أن تكون تلك هي الحال سواء على المدى القصير (مثلًا، مواجهة الاحتياجات العاجلة والمباشرة للفقراء) أم على المدى الطويل (العمل من أجل تغيير الأنظمة). نتمنَّى أن تسهم حياتنا في ابتكار توزيع أكثر عدالة لموارد العالم وثقافة تضمُّ الجميع وتشجِّعهم.

لعلَّه لا يوجد عملٌ أساسيٌّ يجعل الفرد يجسِّد البساطة المسيحيَّة في العالم أكثر من أن يشعر المرء بالراحة مع نفسه. كُلَّما أصبحنا أقلَّ راحة في أنفسنا، صرنا نبحث عن أشياءٍ حولنا تجعلنا نشعر بالراحة، وصرنا أكثر استهلاكًا لموارد العالم. كُلَّما شعرنا بالثقة والطمأنينة في أنفسنا، أصبحنا أقلَّ احتياجًا إلى الأشياء لتُشعِرنا بالطمأنينة.

إنَّها لقيمة عُظمى أن نتعلَّم أن نكون أكثر راحة مع أنفسنا دون أشياء إضافيَّة، وندرك علاقة هذه الطمأنينة الذاتيَّة بتشجيع البساطة في العالم. إنَّنا في الغرب تحديدًا نعيش كفئران تجارب في تجربةٍ ضخمةٍ للاقتصاد الاستهلاكيّ. يقال لنا المرَّة تلو الأُخرى إنَّنا إذا اشترينا ذلك المنتج، أو اختبرنا تلك الخبرة، فإنَّ كلَّ شيء سيكون على ما يرام. ويكمُن وراء تلك الرسائل التي لا تتوقَّف، نشاطٌ أساسيٌّ واحد: الاستهلاك والاستهلاك فقط. ويجب على كلِّ فردٍ أن يستمرَّ في الاستهلاك لكي يشعر بأنَّه الشخص الصحيح في المكان الصحيح..."أنا أتسوَّق إذًا أنا موجود". وهكذا تستمرُّ أحداث القصَّة. هذه واحدة من الرياسات والسلاطين التي نحتاج لأن نتحدَّاها.

يمكن أن تجعلنا البساطة المسيحيَّة نتحرَّك في اتِّجاهٍ مختلفٍ تمامًا. علينا أن نركِّز على الشيء الواحد بدلًا من الكثير، وعلى الواضح بدلًا من المشوَّش، وعلى البسيط بدلًا من المعقَّد. علينا أن نعيد توجيه أنفسنا نحو الواقع الجديد الذي نتلامس معه كلَّما أصبحنا أكثر راحة مع أنفسنا دون الاحتياج إلى ذلك الاستهلاك المستمرّ.

وكلَّما أصبحنا أكثر وعيًا بالسلام الداخليِّ، تدفَّقت الثورة العالميَّة على ثقافة الاستهلاك. وكما يكتب بلايز پاسكال: "إنَّ السبب الوحيد لتعاسة الإنسان هو أنَّه لا يعرف كيف يجلس هادئًا في غرفته".[3] أهذه مبالغة؟ لا أعتقد. إنَّ سلوك البشر هو مصدر أغلب مشكلاتهم ومشكلات باقي الخليقة. فما الذي يفسِّر فقدان الحياة البشريَّة في الحروب والمجاعات؟ إنَّه سلوك البشر. ما الذي يفسِّر تلك الهوَّة السحيقة بين الأغنياء والفقراء؟ سلوك البشر. ما الذي يفسِّر تآكل التنوُّع البيئيِّ وانقراض الحيوانات؟ أيضًا سلوك البشر. لا شكَّ أنَّه إذا جلس الإنسان ساكنًا في غرفته (كما يقول پاسكال) فإنَّ أشياء كثيرة لن تحدث، لكنَّ هذا بالتحديد ما كان يقصده: إنَّنا نفعل أكثر من اللازم، ممَّا يكشف حقيقة عدم راحتنا مع أنفسنا وعدم رضانا بالوضع الذي نحن فيه. "الأصغر هو الأفضل"، "امتلك الأقلّ"، "الذين يموتون وعندهم عددٌ أقلُّ من الألعاب هم الفائزون". هل يمكن أن تكون هذه شعارات إعلانيَّة للملكوت؟

اتِّجاهٌ آخر للسلوك الفرديِّ في تجسيد البساطة المسيحيَّة التي تغيِّر العالم هو أن نتعلَّم أن نقدِّر ما لدينا بالفعل وما سيكون لدينا. من وسط ثقافة استهلاكيَّة متوحِّشة لألمانيا النازية، يكتب ديتريتش بونهوفر:

> نحتاج في كلِّ مرحلةٍ من مسيرتنا لأن نستعيد الإحساس بالجودة والنظام الاجتماعيِّ المبنيِّ على الجودة. وعلينا أن ندرك أنَّ الجودة هي العدوُّ الأوَّل لعمليَّة تسوية الأشياء وجعلها عاديَّة على نطاقٍ واسع. واجتماعيًّا،

يعني هذا رفضَ كلِّ صور البحث عن المنصب والمكانة، والانفصالَ التامَّ عن ثقافة ''النجم''، وعينًا مفتوحةً نحو أعلى وأسفل على حدٍّ سواء، لا سيَّما في اختيار الأصدقاء المقرَّبين، والمتعة في الحياة الفرديَّة مع الشجاعة في دخول الحياة العامَّة. إنَّها تعني ثقافيًّا العودة من الصحيفة والمذياع إلى الكتاب، والعودة من النشاط المحموم إلى الراحة غير المتعجِّلة، ومن التشتيت إلى التركيز، ومن الإثارة إلى التأمُّل، ومن الإبهار إلى الفنِّ الحقيقيِّ، ومن الكبرياء إلى التواضع، ومن البذخ إلى الاقتصاد. الكمُّ ينشئ التنافس، أمَّا الجودة فتؤدِّي إلى التكامُل.[٤]

كتبٌ أقلُّ وقراءةٌ أكثر. رحلاتٌ أقلُّ وإجازاتٌ أطول. بيوتٌ أصغر وعائلاتٌ أقرب. تُناقِضُ هذه العبارات البسيطة التشكيل الذي تلقَّيناه من الحياة في العالم الذي يقدِّر الأشياء أكثر من الأشخاص، والأراضي أكثر من العلاقات.

بروحِ تقدير الجودة على الكمِّيَّة، لنفكِّر في طُرُقٍ للاستعاضة عن ثقافة الاستهلاك بثقافة التقدير. إنَّ ثقافة الاستهلاك تنمِّي شعورَ عدم الرضا بالوضع الحاليِّ وعدم قبول الموجود، أمَّا ثقافة التقدير فتُشعر بالأُلفة مع الوضع الحاليّ. تريد ثقافة الاستهلاك المزيد والمزيد، أمَّا ثقافة التقدير فهي تشعر بالرِّضا بما نمتلكه الآن. تبحث ثقافة الاستهلاك عن المعنى في الخارج، أمَّا ثقافة التقدير فتحصل على المعنى من مصادرٍ داخليَّة. تشعر ثقافة الاستهلاك دائمًا بالتوتُّر وعدم الراحة، أمَّا ثقافة التقدير، فتشعر بالسلام الداخليّ. يكتب إشعياء لمعاصريه ولنا أيضًا ما يلي: ''بالرُّجوعِ والسُّكونِ تخلُصونَ. بالهُدوءِ والطُّمأنينَةِ تكونُ قوَّتُكُمْ'' (إشعياء ٣٠: ١٥). تساعدنا ثقافة التقدير أن نفهم أنَّ الأقلَّ هو بالفعل الأكثر، وبهذا الفهم سنستطيع أن نحصل على ما يكفي الجميع.

أقترحُ قرارًا شخصيًّا أخيرًا لتجسيد البساطة المسيحيَّة هو أن نزيد ميلنا إلى المخاطرة لإعلان مُلك الله. إنَّ ثقافتنا معادية للمخاطر. نحن نخشى أن نشعر بالإحراج، ونتعاطى أدوية تقلِّل من قلقنا. كما نخاف من فقدان ممتلكاتنا، لذلك نُغَلِّق أبوابنا ونشتري تأمينات. إنَّنا نخاف من حوادث الطرق، فنشتري أكبر السيَّارات. ومع أنَّه ما يزال لدينا احتياجٌ مشروعٌ إلى الأدوية والتأمين والسيَّارات الكبيرة، فإنَّنا لا نستطيع أن نعزل أنفسنا عمَّا تأتي به أحداث الحياة الفجائيَّة.

إنَّ الخشية المبالَغ فيها من المخاطرة هي مشكلةٌ للحياة ذات المعنى في العالم لأيِّ إنسان، ولا سيَّما للمسيحيّ. إنَّ تشجيع مُلك الله على العالم يتطلَّب المخاطرة. إنَّنا نتعاون مع ذاك الذي قال: ''لا تهتَمُّوا لحَياتِكُمْ بما تأكُلونَ وبما تشرَبونَ، ولا لأجسادِكُمْ بما تلبَسونَ. أليستِ الحياةُ أفضَلَ مِنَ الطَّعامِ، والجَسَدُ أفضَلَ مِنَ اللِّباسِ؟...لكن اطلُبوا أوَّلًا ملكوتَ اللهِ وبِرَّهُ، وهذِهِ كُلُّها تُزادُ لكُمْ'' (متَّى ٦: ٢٥، ٣٣). يُعلِّم يسوع أنَّه إذا كانت حماية أنفسنا هي الاستراتيجيَّة الأولى لنا لكي نحصل على ما نريد في هذه الحياة، فإنَّنا سنحصل على ما نريده **نحن** من **حياتنا** وليس ما يريده **الله** من **حياة كلِّ البشر**. لكنَّ الله دعانا لأن نجلب حياة الله إلى العالم، ويتطلَّب هذا بالضرورة سلوكًا ينضوي على المخاطرة.

في عالمنا الحافل بوسائل الترفيه المنزليِّ، والمجتمعات السكنيَّة المحاطة بالأسوار، والامتيازات الفرديَّة، رُبَّما تكمن المخاطرة الأولى في تعرُّف جيراننا. مَن جيراننا؟ ما الذي يهتمُّون به؟ ما تاريخ حياتهم؟ هل نستطيع أن نضحِّي بالوقت الذي نقضيه مع الأسرة، أو وقت العمل، أو وقت الكنيسة، أو وقت الترفيه لكي نقضي أمسيَّة نتعرَّف فيها إلى مَن يعيشون معنا في الشارع نفسه؟ هل سيكون ذلك تدخُّلًا في حياتهم؟ هل سيرفضون الدعوة إذا دعوناهم إلى بيوتنا؟ ماذا لو كانوا مُزعجين؟ أسئلةٌ كثيرة. لكن في ثقافتنا الفردانيَّة بشِدَّة، يعدُّ التعرُّف إلى الجيران مخاطرةً من الجيِّد أن نأخذها لتشجيع الحياة لله في العالم.

ولأنَّ مبادرات الأفراد بالتأكيد محدودة، نحتاج لأن نُجسِّد البساطة المسيحيَّة في المجهودات المشتركة التي نسمِّيها **مجتمعات**. وهذا ما سنناقشه الآن.

الإصلاح المجتمعيُّ

مع أنَّ الفرد هو الوحدة البنائيَّة للمجتمع البشريِّ، فإنَّ من النادر أن نجد إنسانًا يحاول قاصدًا أن يجتاز الحياة **بمفرده تمامًا**. على خلاف ذلك، نحن نميل إلى التجمُّع معًا وخلق بناءات وتنظيمات بشريَّة وذلك لتحقيق الأهداف الكبرى التي نصبو إليها، سواء كانت تربية الأطفال أم توفير سبل المعيشة، أم عبادة الله، أم حماية الممتلكات، أم أيًّا من الأنشطة الأُخرى. حينما يجتمع اثنان أو ثلاثة ويؤسِّسون فهمًا مشتركًا للعلاقة بينهم، يولد مجتمع.

المجتمع هو حاصل جمع الأفراد. وكلُّ مجتمعٍ– بدءًا من زوجَين أحبَّا بعضهما في المدرسة الثانويَّة، وصولًا إلى الأمم المتَّحدة– يصنع ثقافةً جماعيَّة تعكس قيم واهتمامات الأفراد الذين يكوِّنونه. وتُشجِّع المؤسَّسات، في أغلب الأحيان، الناس أن يكونوا وأن يتصرَّفوا على طبيعتهم، حيث إنَّ الناس ينجذبون إلى الأماكن التي تقدِّم لهم التشجيع وتوكيد حالتهم، أكثر من الأماكن التي تقدِّم لهم تحدِّيات للتغيير. إذا كان الناس صالحين، فإنَّ المؤسَّسات تشجِّعهم أن يكونوا أفضل، وإذا كانوا سيِّئين، فهي تقودهم لأن يكونوا أسوأ. وهكذا فإنَّ طبيعة أيِّ مجتمع تؤسَّس على طبيعة الأفراد الذين يكوِّنونه.

ويُشبه ما تفعله المجتمعات قوَّةً ضاغطةً، إمَّا للخير وإمَّا للشرِّ في العالم. والقوى التي تُبنى عليها المجتمعات، والمفاهيم المشتركة التي تؤسِّس وتحفظ الزيجات والأعمال التجاريَّة والكنائس والحكومات، يمكن أن تبعث إمَّا حياةً وإمَّا موتًا في هذه المجتمعات. وعندما تكون باعثة على الموت، فإنَّها تُسمَّى في بعض الأحيان ''شرًّا مؤسَّسيًّا''. هُناك مثلًا العلاقات بين الأجناس والأعراق، وغالبيَّة المؤسَّسات في الولايات المتَّحدة قبل حركة الحقوق المدنيَّة في الخمسينيَّات والستِّينيَّات، والعدد الكبير من أمثال هذه المؤسِّسات حتَّى الآن. في واقع الأمر، كان التمييز المبنيُّ على العرق قانونًا غير مكتوب (ومكتوبًا فعلًا في الكثير من الأحيان) يحكم كلَّ صُوَر تصنيف البشر المقبولة في الولايات المتَّحدة. كانت القوانين التي تجرِّم زواج الأشخاص المنتمين إلى أجناس مختلفة موجودة في كتب التشريع في الولايات والحكومات المحلِّيَّة حتَّى سنة ١٩٦٧م. ومع أنَّ السياسات المناهضة للتمييز العنصريِّ سُنَّت في عام ١٩٦٤م، فإنَّنا لا نحتاج إلى البحث كثيرًا لكي نجد أمثلةً تتكرَّر حتَّى الآن: من رفض تأجير غُرفةٍ في فندق، أو رفض سائق سيَّارة أُجرة الوقوف لبعض الأجناس، أو رفض أفراد بعض الأعراق السكن في ما يعدُّ أنَّه ''الحيُّ الخاطئ'' لهم. في الآونة الأخيرة، تابت بعض الطوائف المسيحيَّة رسميًّا عن سلوكها العُنصريّ، لكن، كما قال مارتن لوثر كنغ الابن (Martin Luther King, Jr.)، تظلُّ خدمة العبادة صباح الأحد ''أكثر ساعات الأسبوع التي يُمارَس فيها الفصل العنصريّ''. البرامج الحكوميَّة المكتوبة ملزمةٌ ألَّا تضع العرق في اعتباراتها، لكنَّ القوانين غير المكتوبة لا تزال تنظر إلى العرق على أنَّه أحد أسباب اتِّهام بعض الأشخاص ببعض الجرائم دونًا عن غيرهم، وذلك على المستويات المحلِّيَّة والقوميَّة ولا سيَّما منذ ٢٠٠١م. تتسبَّب المؤسَّسات سواء ببُنيتها أو أفعالها، في تأثيرات باعثة للحياة أو مميتة، والكثير من المؤسَّسات في أيَّامنا لا تُدار بطريقة تشجِّع حياة الله في العالم.

إذا كانت الطبيعة الأساسيَّة لتجمُّعات البشر التي نتعامل معها بصورةٍ يوميَّة معيبة؛ وإذا كانت هذه التجمُّعات، على العموم، تستهدف مقاصد مضادَّة لما في فِكر الله، فكيف نتعاون مع الله من أجل الإصلاح؟ كيف يمكن أن تتغيَّر المؤسَّسة من كونها بيئة مزدوجة الميل (أو رُبَّما حتَّى مضادَّة بوضوح) تجاه كلِّ ما يمكن أن يشجِّع حياة الله، إلى مؤسَّسة معطية لهذا النوع من الحياة؟ ما الأولويَّات الجديدة للمجتمع المُصلِح الذي من شأنه أن يفتح الطريق أمام خليقةٍ جديدة؟

وما الدور الذي تلعبه البساطة المسيحيَّة في هذا الأمر؟

تحتاج المؤسَّسات إلى الإصلاح لكي تتأصَّل فيها مبادئ البساطة المسيحيَّة لحياة الأفراد والعالم من حولنا. إذا كنَّا شخصيًّا مدعوِّين إلى حياةٍ من البساطة وما يمكن أن تؤدِّي إليه من مصالحة بين البشر، وتوزيعٍ عادل لموارد المعيشة– فإنَّنا أيضًا مدعوُّون إلى استحضار هذا الواقع إلى مؤسَّساتنا: مثل الكنيسة والعمل الاقتصاديِّ والحكومات والأسرة.

لا تتغيَّر المجتمعات البشريَّة بسهولةٍ أو بسرعة. إنَّ تشجيع التغيير يتنافس مع الأفكار التأسيسيَّة والقيم التي قامت عليها المجتمعات، والأفكار التي جذبت الأفراد لكي يجتمعوا معًا ويُكوِّنوا هذه المؤسَّسات من البداية. إذا استطاعت المؤسَّسة أن ترى تغييرًا وإصلاحًا آتيًا، فإنَّ الأفراد المشاركين فيها سيحتاجون إلى التأقلم مع الواقع الجديد. وعندما يبدأ التغيير في الحدوث، فإنَّ بعض الأفراد سيغادرون لأنَّهم مرتبطون بالقواعد القديمة، وسيغادر آخرون أيضًا لأنَّهم سيكونون قد تبنَّوا أفكارًا وقِيمًا جديدة غير متوافقة مع المؤسَّسة التي تمرُّ بالإصلاح. ستتغلَّب بعض المؤسَّسات على هذا التحدِّي، في حين ستتفكَّك مؤسَّساتٍ أُخرى بكلِّ صراحة.

إذا أردنا، نحن المسيحيِّين، أن نعمل على إصلاح المؤسَّسات التي نتعامل معها بصورةٍ يوميَّة، فيجب أن نهتمَّ بترتيب بيتنا أوَّلًا؛ أي الكنيسة. والكنيسة، بتعبيرَيها المحلِّيِّ والعالميِّ، هي المؤسَّسة التي يجب، بسبب طبيعتها، أن تجسِّد الرجاء الإلهيَّ للعالم. يعطينا الكتاب المقدَّس رؤية الحياة المكتملة والغنيَّة التي تحتفي بكلِّ الخليقة: ''هوذا مَسكَنُ اللهِ مع النَّاسِ، وهو سيَسكُنُ معهُمْ، وهُم يكونونَ لهُ شَعبًا، واللهُ نَفسُهُ يكونُ معهُمْ إلهًا لهُمْ. وسَيَمسَحُ اللهُ كُلَّ دَمعَةٍ مِنْ عُيونِهِمْ، والموتُ لا يكونُ في ما بَعدُ، ولا يكونُ حُزنٌ ولا صُراخٌ ولا وجَعٌ في ما بَعدُ، لأنَّ الأُمورَ الأولَى قد مَضَتْ'' (رؤيا يوحنَّا ٢١: ٣-٤).

لقد رأى شعب الله عبر الأجيال هذه الرؤيا أيضًا. يعلن القدِّيس أغسطينوس: ''هناك سنستريح ونُبصر، نُبصر ونحبُّ، نحبُّ ونسبِّح. هذا ما سيحدث في النهاية، وبلا نهاية. فما الأهداف الأُخرى التي نفترضها لأنفسنا سوى أن نَصِل إلى الملكوت الذي بلا نهاية''.[٥] إذا كان على الكنيسة أن تتحرَّك نحو المزيد من تجسيد جمال الرؤيا التي نراها في الكتاب المقدَّس والتاريخ المسيحيِّ وروعتها، يجب أن تكون أمام العالم نموذجًا للإصلاح المؤسَّسي.

لكنَّنا للأسف لا نفعل ذلك. إنَّنا للأسف لا نفعل أكثر من مجرَّد تقليد التوجُّهات والأولويَّات التي تمثِّلها المؤسَّسات العلمانية التي نُعجب بها بسبب نجاحها الدنيويّ. تتحدَّد أولويَّاتنا للأسف بشهوتنا لزيادة أعداد الحضور وبناء المباني الضخمة، والتمويل الكبير، أكثر ممَّا تتحدَّد بشغفنا لتشجيع حياة الله في العالم. للأسف أيضًا، نحن مهتمُّون بالحفاظ على أنفسنا أكثر من إصلاح العالم.

يمتلك جسد المسيح موارد للتغيير، لكن هل لديه رغبةٌ في التغيير؟ لقد أُعطِيت الكنيسة رؤية متكاملة للحياة في العالم، لكن هل تضحي الكنيسة بمجاراتها للعصر، لكي تُحقِّق هذه الرؤية؟ كيف يمكننا أن نتحرَّك في هذا الاتِّجاه؟

تحتاج الكنيسة بصفتها مؤسَّسة لأن تعتنق البساطة المسيحيَّة لكي تستطيع أن تقدِّم إلى العالم نموذجًا باعثًا للحياة. ويمكن أن تكون البداية بأن تُطبِّق، على نطاقٍ جماعيٍّ، مبادئ التقليل من العمل والاستهلاك والإنفاق، والبحث عن الجودة، وأخذ المخاطرات. ويمكن أن تكون الخطوة التالية، أن تُراجع الكنيسة الطريقة التي تمارس بها أعمالها اليوميَّة، مثل أولويَّات الميزانيَّة وسياسات التوظيف واستخدام المباني وغيرها. ويمكن أن تنتهج استراتيجيَّة ممتدَّة الأجل بأن تعيد التفكير في دور الرعيَّة في منطقتها السكنيَّة والمدينة والبلد والعالم، وأن تضعَ خُطَّة تمتدُّ سنوات لتجسيد ذلك الفهم الجديدة. وهذا

لأنَّ اعتناق البساطة لن يكون سريعًا، لكنَّه سيأتي بالتغيير فعلًا.

إنَّ ما أُفكِّر فيه لا يقلُّ عن تجديد مؤسَّسي شامل. وفي أثناء تلك العمليَّة الضروريَّة، ستراجع رعايا الكنائس كلَّ قيمة من القيم وكلَّ بُنية من البنى وكلَّ برنامج من البرامج وكلَّ نتيجة من النتائج. ستتغيَّر القيم والأولويَّات والأنشطة. سيختلف ما نفعله بالوقت والمال والمتطوِّعين وكلِّ الموارد المتاحة. سنأخذ خطوة إلى الخلف ونراجع التفكير ونصلح من أنفسنا وما نفعله والسبب الكامن وراء فعله. إنَّنا **نستطيع** أن نعيد النظر في حياتنا معًا في ضوء البساطة المسيحيَّة، وبعد ذلك سنتجاوب بطرقٍ ذات معنى. وبذلك، نعلن للعالم الذي يشاهدنا كيفيَّة إحداث إصلاح المجتمعات.

وعندما نُجري هذه التغييرات في رعايانا المحلِّيَّة، يمكننا أيضًا أن نبذل قصارى جهدنا لتشجيع المؤسَّسات الأُخرى التي نشترك فيها لكي تجسِّد الحياة التي يريدها الله للعالم. يتضمَّن هذا الأعمال الخاصَّة التي نمتلكها، والمؤسَّسات غير الحكوميَّة التي نعمل فيها، والأندية الاجتماعيَّة التي نُشرف عليها، والمدارس التي نعلِّم فيها، والهيئات الحكوميَّة التي نخدم فيها. تمثِّل كلُّ واحدةٍ من تلك فرصة لتجسيد نوعيَّة الحياة الإلهيَّة في العالم، للتأثير في مآل الأحداث نحو ما هو صالح وحقيقيٌّ وجميل.

توجد أمثلة عدَّة للإصلاح المجتمعيِّ يمكن أن نتأمَّلها. مثلًا، يمكن أن نتأمَّل الكنائس التي تستهدف تحقيق قدرٍ أكبر من المساواة في مستوى المعيشة مع غيرهم من المسيحيِّين في المدن التي يعيشون فيها وحول العالم. يمكن أن ننظر إلى الأُسَر التي تتآلف معًا لكي تعيش في تجمُّعات ذات قيم خاصَّة من الدعم المتبادل ومشاركة الموارد. يمكننا أن نعيد النظر في البرامج الحكوميَّة التي تحاول إشراك المهمَّشين في تيار الحياة العامِّ، لكي يصبحوا أعضاء مشاركين مشاركةً كاملةً في المجتمع. يمكننا أن نشجِّع المؤسَّسات غير الحكومية لتُعطي رجال الأعمال الطموحين مساعداتٍ تنمويَّة تُعلِّمهم ''الصيد'' مدى العمر بدلًا من أن تعطيهم ''سمكة''.

ومع أنَّنا نستطيع أن نقضي وقتًا مع عددٍ من الأمثلة المختلفة، لنلقِ نظرةً على نموذج واحدٍ في مجال الأعمال. أودُّ أن أقدِّم لكم مثالًا لأحد الأعمال الذي وضع ''الدافع الروحيّ'' بدلًا من ''الدافع الربحيّ''.

قبل ذلك سأعطيكم بعض الخلفيَّات الاقتصاديَّة. لا جدل أنَّ الدافع الربحيَّ هو المبدأ المنظِّم للمجتمع الغربيِّ، لكلٍّ من الأفراد والهيئات. من ناحية الأفراد، نستخدم مصطلحات مثل ''قابليَّة المكسب'' أو ''الإنتاجيَّة بالساعة'' عندما نقيِّم المشاريع والأفراد. ودون إحراز الفرد ''نقاطًا'' مقبولة في هذه المقاييس، فإنَّه سيكون عُرضة للتهميش والخروج من التيَّار العامِّ للحياة الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة.

ومن ناحية الهيئات والمؤسَّسات، سواء كانت هادفة للربح أم لا، فإنَّ القيمة تؤسَّس على القدرة على إنهاء السنة دون مديونيَّات، وحبَّذا لو كان هناك فائضٌ ماليّ. المشروع الناجح هو الذي ينمو السنة تلو الأُخرى، ويضغط على منافسيه ويقضي عليهم، محاولًا استغلال كلِّ إمكانيَّة متاحة، ويفعل كلَّ ما في وسعه للحصول على أعلى المكاسب الممكنة. وعندما يتحرَّك المشروع من منطلق الدافع الربحيِّ، فإنَّه يعمل الكثير من أجل مصلحة المساهمين، والقليل لاستيعاب من لا يشاركون في إدارته أو مُلكيَّته أو تشجيعهم.

أمَّا ''الدافع الروحيُّ'' النبويُّ، فيعتمد على أساسٍ آخر؛ فهو يستهدف إنجاز العمل، مع تجسيد رسالة أنبياء الكتاب المقدَّس. مثلًا، عاموس الذي كان يقول: ''ابغُضوا الشَّرَّ، وأحِبُّوا الخَيرَ، وثَبِّتوا الحَقَّ في البابِ'' (عاموس ٥: ١٥)، أو ميخا: ''قد أخبَرَكَ أيُّها الإنسانُ ما هو صالِحٌ، وماذا يَطلُبُهُ مِنكَ الرَّبُّ، إلَّا أنْ تصنَعَ الحَقَّ وتُحِبَّ الرَّحمَةَ، وتَسلُكَ مُتَواضِعًا مع

إلهِكَ'' (ميخا ٦: ٨) أو فوق الكلِّ يسوع الذي قال: ''لا يَقدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَخدِمَ سيِّدَينِ، لأَنَّهُ إمَّا أنْ يُبغِضَ الواحِدَ ويُحِبَّ الآخَرَ، أو يُلازِمَ الواحِدَ ويَحتَقِرَ الآخَر. لا تقدِرونَ أنْ تخدِموا اللهَ والمالَ'' (متَّى ٦: ٢٤). علاوةً على السعي نحو تحقيق مصاريف ربع سنويَّة جيِّدة، وتقارير سنويَّة جيِّدة، واكتتابٍ عامٍّ، فإنَّ الأعمال التي تتحرَّك من منطلق الدافع الروحيِّ تعمل من أجل إعلان محبَّة الله، وتحقيق العدل والرحمة في العالم.

في كتاب ''**الصغير جميل**'' *(Small Is Beautiful)*، يتناول إي. أف. شوماخر (E. F. Schumacher) شركة تجسِّد الدافع الروحيَّ النبويّ. إنَّها شركة سكوت بيدر المحدودة (Scott Bader co. Ltd.) التي تأسَّست سنة ١٩٢١م في بريطانيا، وهي شركة تنتج أنواعًا من الراتنغات الصمغيَّة والبوليمرات وغيرها من الكيماويَّات ذات تطبيقات عدَّة في مجالات البناء والسفن والمواصلات وغيرها. سنة ١٩٥١م، بعد ثلاثة عقود من العمل في هذا المجال، وقد صار فيها ١٦١ موظَّفًا وتربح نحو ٧٢ ألف جنيه استرلينيٍّ سنويًّا وعائدٍ يبلغ ٦٢٥ ألف جنيه استرلينيّ، طبَّق إيرنست بيدر (Ernest Bader)، مالكها ومؤسِّسها، ''تغييرات ثوريَّة'' في الشركة مبنيَّة على فلسفةٍ تحاول التوفيق بين الصناعة والاحتياجات البشريَّة.

تحقَّقت هذه الثورة في خطوتَين: الأولى، حوَّل السيِّد بيدر مُلكيَّة الشركة إلى مُلكيَّة مشترَكَة، وهي كيانٌ قانونيٌّ يضمن الحقَّ بالمُلكيَّة والإدارة لكلِّ مَن يعملون فيها. ثانيًا، وضع دستورًا يحدُّ من أنشطة الشركة بستَّة محدِّدات مهمَّة: ١) لن تنمو الشركة إلى ما هو أكثر من ٣٥٠ موظَّفًا، أمَّا أيُّ مشروعٍ يؤدِّي إلى زيادة عدد العاملين في الشركة إلى ما هو أكثر من ذلك الحجم، فيصبح كيانًا تابعًا مستقلًّا بذاته. ٢) لا تُزاد النسبة بين أقلِّ أجر وأعلى أجر في الشركة إلى ما هو أكثر من ١: ٧. ٣) لا يمكن فصل أيٍّ من العاملين في الشركة إلَّا بسبب سوء سلوكٍ جسيم. ٤) يمكن أن يعيِّن المالكون العاملون أعضاء مجلس الإدارة ويفصلوهم ويقدِّموا لهم التعويضات. ٥) يُحتفَظ بنسبة ٦٠٪ من الأرباح السنويَّة في الشركة لإعادة الاستثمار ودفع الضرائب، ويُسحب ٤٠٪ منها تُقسَّم إلى النصف بين حوافز للعاملين والأعمال الخيريَّة. وأخيرًا، ٦) لا يُباع أيُّ منتج تَعلَمُ الشركة أنَّه سيُستخدم في أغراض متعلِّقة بالحرب.

ورغم أنَّ كثيرين توقَّعوا للشركة الفشل بسبب هذه القيمة التي تبدو معرقِلة لقدرة الشركة على المنافسة في السوق، فإنَّه في غضون العشرين سنة التالية، نمت الشركة ليُصبح عدد العاملين فيها ٣٧٩ موظَّفًا وعاملًا، حيث تربح سنويًّا ٣٠٠ ألف جنيه إسترلينيٍّ ويصل عائدها الإجماليُّ إلى ٥ ملايين جنيه استرلينيٍّ، كما أسَّست شركات عدَّة تابعة. ويصل عدد العاملين فيها الآن إلى ٦٥٠، ولديها أصولٌ في أربع قارَّات (بما في ذلك شركة تابعة مملوكة بالكامل في الإمارات العربيَّة المتَّحدة)، ووصل ربحها السنويُّ سنة ٢٠٠٢م إلى ١.٤٣٥.٠٠٠ جنيهٍ استرلينيٍّ وعوائد تصل إلى ٩٥.٥٥٦.٠٠٠ جنيه استرلينيّ.

ومن قصَّة نجاح شركة سكوت بيدر، يستخلص شوماخر خمسة مبادئ عامَّة. الأوَّل، عندما تُنقَل المُلكيَّة من أيادٍ قليلة إلى أيادٍ كثيرة، يتوقَّف مفهوم المُلكيَّة عن الوجود ويُستعاض عنه ''بحقوقٍ ومسؤوليَّات خاصَّة بإدارة الأصول''. لم ينقص مفهوم المُلكيَّة الفرديَّة، لكن جرى التخلُّص من الحقوق الجامدة في أصولٍ بعينها. الثاني، يخلق نقل المُلكيَّة من شخصٍ إلى جماعة حالة جديدة يمكن فيها تحقيق المجتمع المشترك؛ لأنَّ الأشخاص الذين تجمعهم علاقة مجتمعيَّة ينمو لديهم إحساسٌ أكبر بالاشتراك في هدفٍ كبير. الثالث، علاوةً على أنَّ المُلكيَّة المشتركة تخلق حالة جديدة لمن هم داخل الشركة، فإنَّ تشجيع المصلحة الأعمِّ للمجتمع الذي تنتمي الشركة إليه يحتاج لأنْ تتبنَّى الشركة سمات اقتصاديَّة وتقنيَّة واجتماعيَّة وسياسيَّة تختلف عن التي تطبِّقها الشركات والأعمال التي تتبع النظام المعتاد المبنيَّ على استهدافٍ أكبر قدرٍ من الربح والنموِّ غير المحدود. الرابع، التحدِّي الأعظم هو أن تفي المؤسَّسة بأهدافها الاجتماعيَّة الأكبر، وهذا التحدِّي محفوفٌ بالكثير من الصعوبات ويتطلَّب عمليَّة من التعلُّم المستمرّ. الخامس، يخلق تخصيص نسبةٍ محدَّدةٍ من الأرباح المسحوبة من

أجل الأهداف الخيريَّة وعيًا اجتماعيًّا لأعمال الشركة وللأفراد المشاركين معًا.[٦]

تقدِّم هذه الشركة نموذجًا عن إمكانيَّة أن تضع الشركة ''الدافع الروحيَّ'' بدل ''الدافع الربحيِّ''، وهي مثالٌ للإصلاح المجتمعيِّ بروح البساطة المسيحيَّة. كما أنَّ إمكانيَّة تكوين مجتمعات ومؤسَّسات على هذا النهج تتوقَّف فقط على قدراتنا الإبداعيَّة والتزامنا. ومع أنَّ إصلاح المؤسَّسات الموجودة بالفعل وإنشاء مؤسَّسات جديدة مُصلِحة سيكون مختلفًا في كلِّ حالة– الكنائس والأعمال التجاريَّة والأسرة والهيئات الحكوميَّة– فإنَّ الكلَّ يمكن أن يتَّخذ من البساطة نبراسًا ومرشدًا.

حان الآن الوقت لنرى ما سيبدو عليه مجتمعنا كُلَّما سارت المزيد من المؤسَّسات على هُدى هذه المبادئ.

التغيير المجتمعيّ

يجب أن نبدأ تفكيرنا هنا بمواجهة حقيقة صعبة، وهي أنَّنا، وإن كان لدينا قدرة على التحكُّم في أنفسنا بصفتنا أفرادًا وبعض التأثير في الاتِّجاه الذي تتَّخذه المجتمعات التي نشارك فيها، فإنَّ الغالبيَّة العُظمى منَّا ليس لديهم سوى القليل من السيطرة على ما يحدث في المجتمعات التي نعيش فيها. إنَّ حالة الثقافات، المحلِّيَّة والعالميَّة، تحدِّدها محصلِّة أفعال مليارات البشر، ومئات الملايين من البيوت والأُسر، وملايين المؤسَّسات. إنَّها أعجوبة جماعيَّة ضخمة، شبكة عملاقة متَّصلة بعضها ببعض على المستويات البيئيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة تثير فينا العجب وليس لنا فيها سوى الأثر القليل.

ورغم ذلك، فلا يزال لدينا تأثير. إنَّنا نفعل ما في وُسعنا: نتأمَّل ونغيِّر حياتنا، ونشجِّع حياة من حولنا، نحيا حياة مسؤولة على قدر المستطاع، ونفعل أقصى ما في وسعنا، ونرسل إلى العالم أسلوب حياةٍ إذا تبنَّته أعدادٌ متزايدة من الناس، فستتغيَّر حياة العالم بأسره. لقد عبَّر روبرت كينيدي (Robert Kennedy) عن ذلك الموقف في حديثه مع مجموعة من الطلبة في جامعة كيپ تاون نحو ثلاثين عامًا قبل سقوط نظام الفصل العنصريِّ في جنوب أفريقيا. قال: ''في كلِّ مرَّة يتَّخذ إنسانٌ ما موقفًا مناصرًا لقيمة من القيم، أو يعمل من أجل تغيير مصير الآخرين، أو يشارك في تظاهرة أو إضراب مناهض للظلم، فإنَّه يُرسل موجة من الرجاء. وعندما تتلاقى هذه الموجات الآتية من مليون مركز مختلف، فهي تولِّد تيَّارًا يمكنه أن يجرف أمامه أعلى أسوار القهر المقاوِمة للتغيير''.[٧]

لا يسعنا، أنا وأنت، إلَّا أن نُحدث موجةً صغيرةً جدًّا في تيار حياة العالم، لكنَّها موجةٌ على أيَّة حال. إنَّ من أفضل الأعمال نفعًا هو تشجيع تغيير الطرق التي نُقيِّم بها النجاح، مُشجِّعين على التحرُّك في اتِّجاه الإجراءات التي تعكس النشاطات الباعثة للحياة وتؤكِّد قيمة الحياة معًا بوصفنا جنسًا بشريًّا واحدًا. وفي مجال الاقتصاد، يستخدم الاقتصاديُّون المتخصِّصون والعلمانيُّون على حدٍّ سواء مصطلح ''الناتج القوميِّ الإجماليِّ'' بوصفه مقياسًا لصحَّة الشعوب. إذا تناقص، فإنَّ الاقتصاد الذي يشير إليه يكون متَّجهًا نحو الكساد أو في حالة كساد بالفعل. أمَّا إذا كان في حالة تزايد، فإنَّ الاقتصاد يكون سائرًا على الطريق الصحيح. وإذا كان يتزايد بإيقاعٍ سريع، فهو موسم جيِّد للمستثمرين الذين في السوق، والسياسيِّين الذين في الحكم. تُجنى الثروات وتُربَح الانتخابات بحسب ضعف ذلك المقياس وقوَّته.

لكن رغم أنَّ الناتج القوميَّ الإجماليَّ يلعب دور المقياس العادل لإجماليِّ الأداء الاقتصاديِّ، فإنَّه في الوقت نفسه ليس مقياسًا لمجمل نوعيَّة حياة الشعب. يتضمَّن الناتج القوميُّ الإجماليُّ الإنتاجَ الصناعيَّ، ويضمُّ في الوقت نفسه المال المدفوع لتطهير التلوُّث الناتج من الصناعة. أرقام مبيعات السيَّارات متضمَّنة فيه، علاوةً على المبالغ المدفوعة في إصلاح السيَّارات التي تُعطَب بسبب الحوادث. أرقام مبيعات المجلَّات والأفلام السينمائيَّة ممثَّلة في الناتج القوميِّ الإجماليّ، وكذلك دخل مبيعات المواد الإباحيَّة وغيرها من عيوب المجتمع. يشتمل هذا المقياس على كلِّ شيء، المرغوب فيه وغير

المرغوب فيه وتأثيراتهما. يكتب هيرمان دالي (Herman Daly) وجون كوب (John Cobb): ''إنَّ أغلب [الاقتصاديِّين] يدركون أنَّ الأنشطة الاقتصاديَّة المحسوبة في الناتج القوميّ الإجماليّ لها تكلفة اجتماعيَّة لا يحسبها هذا المقياس، كما أنَّها تحسب النشاط السوقيّ الذي يجري لمواجهة هذه التكاليف المجتمعيَّة على أساس أنَّها أرقامٌ إيجابيَّة في الاقتصاد، مع كونها أرقامًا سلبيَّة، أو أرقامًا جرى إنفاقها على مجابهة السلبيَّات''.[٨]

لماذا لا نحثُّ هؤلاء الذين في السلطة أن يبدأوا في حساب الإيجابيّ والسلبيّ في نظامنا الاقتصاديّ بوضوحٍ ودِقَّة، بدلًا من الجمع بينهما تحت الفئة نفسها ووصفهما بأنَّهُما أمرٌ إيجابيٌّ؟ لماذا لا نحسب الناتج القوميّ الإجماليّ بطرح الإنفاق السلبيّ غير المرغوب فيه من الإنفاق المرغوب فيه؟ **لمَ لا؟** إنَّ هذا من شأنه أن يقدِّم مقياسًا أكثر دِقَّة لصحَّة الشعوب.

ومع أنَّنا لا نستطيع أن نجعل العالم من حولنا يتحرَّك في اتِّجاه ملكوت الله، فإنَّنا نستطيع **نحن** أن نتغيَّر، **ونستطيع** أن نُسهم، **ونستطيع** أن نهتمّ. **نستطيع** أن نفعل ما نقدر عليه لكي نعيش في إطار مبادئ البساطة المسيحيَّة، حيث نصنع نتيجةً لذلك بعض التأثير في الرياسات والسلاطين التي تتحكَّم في زماننا. يمكننا أن نعيش حياة من الصلاح والمعنى والهدف. يكفي ذلك. وسيهتمُّ الله بالباقي. هذا هو رجاء البساطة المسيحيَّة في ما يتعلَّق بالعالم.

في النهاية

وهذا الرجاء لن يخذلنا. إنَّه رجاءٌ مؤسَّسٌ على الحقائق الأزليَّة للربِّ الإله القادر على كلِّ شيء. إنَّه رجاءٌ تصوِّره بجمال شديد كلمات الربِّ على لسان إشعياء النبيّ:

''لأنِّي هأنَذا خالِقٌ سماواتٍ جديدَةً وأرضًا جديدَةً،
فلا تُذكَرُ الأولَى ولا تخطُرُ علَى بالٍ.
بل افرَحوا وابتَهِجوا إلَى الأبدِ في ما أنا خالِقٌ،
لأنِّي هأنَذا خالِقٌ أورُشَليمَ بَهجَةً وشَعبَها فرَحًا...
الذِّئبُ والحَمَلُ يَرعَيانِ مَعًا، والأسَدُ يأكُلُ التِّبنَ كالبَقَرِ.
أمَّا الحَيَّةُ فالتُّرابُ طَعامُها.
لا يؤذونَ ولا يُهلِكونَ في كُلِّ جَبَلِ قُدسي،
قالَ الرَّبُّ'' (إشعياء ٦٥: ١٧-٢٥).

******** قوانين الفصل العنصريّ في الولايات الجنوبيَّة للولايات المتَّحدة الأميركيَّة، والتي أُقِرَّت في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. استمرَّ تطبيق هذه القوانين إلى أن تحقَّقت مطالب حركة الحقوق المدنيَّة سنة ١٩٦٥م (المترجم).

خاتمة:
بساطة البساطة

شدَّدتُ في بداية هذا الكتاب على صعوبات مهمَّة تناول البساطة المسيحيَّة وتعقيداتها، لأنَّه ببساطة لا توجد إجابات سهلة عن الأسئلة الصعبة المتعلِّقة بالطريقة التي نتعاطى بها باستقامة مع العالم المعاصر. إنَّ صعوبة مهمَّتنا واضحة بما يكفي على المستوى الشخصيِّ، أمَّا في اللحظة التي نبدأ فيها بالتعامل مع القضايا الأكثر عمومًا المتعلِّقة بالكنيسة والدولة والعلاقات الدوليَّة، فإنَّنا نصطدم بالتعقيد الشديد للبساطة.

إنَّ من الجوهريِّ لنا أن نواجه هذه الحقيقة إذا كنَّا نريد أن نتجنَّب السطحيَّة. وهناك خطرٌ في محاولة فهم هذه التفاصيل، فإنَّنا ما إن نرى تعقيد الأمر كلِّه، حتَّى نُصابَ بالعجز. رُبَّما نيأس من إمكانيَّة وضع قطع اللغز كلِّها معًا، ونجد أنفسنا نصارع على المستوى الشخصيِّ بشأن كلامنا الذي لا يتمتَّع بالأمانة، وهوسنا بالسعي خلف المكانة، وبذخنا القهريّ. هذا فضلًا عن القضايا المعقَّدة الخاصَّة بالاقتصاد، والجوع حول العالم والتجارة الدوليَّة. من السهل جدًّا أن تصيبنا ضخامة المهمَّة بالشلل التامّ. وهكذا، يتملَّكنا اليأس والإحباط سريعًا. ودون أن يلحظ أحد، فإنَّنا بهدوء نستسلم للوضع الحاليِّ، ويكون لسان حالنا: ''لا أستطيع أن أُغيِّر العالم، ولستُ حتَّى متأكدًا من أنَّني أستطيع أن أغيِّر أسلوب حياتي أنا (أو إذا كنتُ أريد ذلك أصلًا). لذلك فمن الأفضل أن أترك الأمور كما هي. فمن لا يغامر بشيء، لا يخسر شيء!''.

لكنَّنا في هذه النقطة بالذات نُخطئ خطأً فادحًا؛ لأنَّنا بالتأكيد نخسر الكثير! إنَّ البساطة جزءٌ لا يتجزَّأ من الدعوة لنكون تلاميذ المسيح. إنَّها ليست شيئًا كماليًّا نضيفه إلى خبرتنا المسيحيَّة مثلما نضيف كماليَّاتٍ إلى السيَّارة الجديدة. إنَّها جزءٌ أساسيٌّ من التدريبات الروحيَّة الكلاسيكيَّة للحياة المسيحيَّة. والبساطة ضروريَّة مثلما المحرِّك ضروريٌّ أو العجلات والمكابح ضروريَّة للسيَّارة، ومن دونها لا تعمل أيَّة سيَّارة. البساطة جوهريَّة مثلما الصلاة جوهريَّة ومثلما العبادة جوهريَّة، أو أيٌّ من الانضباطات الروحيَّة الأُخرى، ومن دونها لا يصير الإنسان تلميذًا فاعلًا في الحياة المسيحيَّة.

إنَّ التدريبات والانضباطات المسيحيَّة (التي تُعدُّ البساطة واحدة منها) هي المسار الذي به تتدفَّق الطاعة؛ إنَّها الطرق المنظورة التي تعبِّر عن تلمذتنا الحقيقيَّة للمسيح. والأهمُّ من ذلك، فهي تضعنا أمام الله بطريقة تمكِّننا من التغيير لكي نشابه صورة المسيح. قال وليَم بن: ''أن تكون مسيحيًّا، فيعني هذا أن تكون مثل المسيح''. ولهذا السبب، فإنَّ البساطة جزءٌ مهمٌّ جدًّا من التقوى والتكريس المسيحيِّين. لا يوجد ما هو أوضح من حقيقة أنَّ يسوع عاش على الأرض حياة غاية في البساطة؛ حيث كان الله محور حياته وكانت شفافيَّته من نحو الله تحكم كلَّ حياته. إنَّ البساطة جزءٌ من تبعيَّة المسيح.

من المؤكَّد أنَّ تكلفة البساطة كبيرة، لكنَّ تكلفة الازدواجيَّة أكبر. إنَّ الازدواجيَّة تكلِّفنا فرحة الشركة مع المركز الإلهيِّ للحياة، وتُفقدنا الإيمان الذي يرى كلَّ شيء في نور مُلك الله الصالح، وتُفقدنا السلام الراسخ والقدرة للمسير بفرح على وجه الأرض في قوَّة الربّ. باختصار، تكلِّفنا البساطة الحياة الأفضل التي قال يسوع إنَّه أتى لكي يعطينا إيَّاها. رُبَّما تكون البساطة صعبة، لكنَّ عدم البساطة أكثر صعوبة.

التناقضُ الظاهريُّ المُفرح هنا هو أنَّ البساطة رغم كونها معقَّدة، فإنَّها بسيطة أيضًا. وفي نهاية المطاف، نحن لسنا الذين عليهم أن يفكُّوا خيوط كلِّ تعقيدات وتفاصيل عالمنا شديد التعقيد. بل لا توجد أشياءُ كثيرةٌ علينا أن نضعها في أذهاننا،

سوى شيءٍ واحد: وهو أن نكون منتبهين لصوت الراعي الحقيقيّ. لا يوجد الكثير من القرارات علينا أن نتَّخذها، سوى قرارٍ واحد: أن نطلب أوَّلًا ملكوت الله وبِرَّه. ولا توجد مهامٌّ كثيرة نُنجزها، سوى مهمَّةٍ واحدة: وهي أن نطيعه في كلِّ شيء. وكما فهم سورين كيركيغارد الأمر بوضوح شديد، إنَّنا نُشذَّبُ إلى شيء واحدٍ فقط، وهو بساطة البساطة.

لهذا السبب فإنَّ الحقيقة الداخليَّة للطاعة المقدَّسة **للمركز** الإلهيِّ محوريَّة جدًّا في كلِّ ما يتعلَّق بالبساطة. ومن دون ذلك، سنُحبَط ونوضع في موضعٍ حرجٍ بسبب تعقيد الأمر. إنَّ البساطة تُعيد تنظيم الحياة وتملأها بالسلام، وكلُّ ما علينا أن نفعله هو أن نكون، في كلِّ لحظة، منتبهين للمؤشِّر السماويّ. وعندما نفعل ذلك، سنشعر بفيض من الإرشاد والمحبَّة الإلهيَّين يغمران قلوبنا.

لقد دعا يسوع الناس أن يشاركوه في نيره، وأضاف قائلًا إنَّ نيره هيِّن وحمله خفيف. إنَّ الحصان أو الثور يتدرَّب للعمل جيِّدًا وبسلامٍ وهدوءٍ عندما يكون مربوطًا تحت حملٍ مع زميلٍ آخر مدرَّبٍ للعمل ذاته. في البداية، رُبَّما يتذمَّر الحصان الجديد على الحمل، ويحاول أن يتخلَّص منه، وكلَّما فعل ذلك، صار الحمل ثقيلًا بالفعل. لكنَّه عندما يتعلَّم المشي خطوة بخطوة مع زميله المدرَّب، فسيتعلَّم أن يسير بسهولة.

إنَّنا مربوطون بشخصٍ مدرَّب، وكلُّ ما علينا فعله هو ضبطُ خطواتنا على خطواته. هو الذي يختار الطريق ويقودنا فيه. وعندما نسير في هذا الطريق خطوة بخطوة معه، سرعان ما سنكتشف أنَّنا لم نعد نشعر بحِملِ الحاجة إلى الاهتمام بأنفسنا والسير في طريقنا، وسنكتشف أنَّ الحِملَ بالفعل خفيف. إنَّنا عندئذٍ نصل إلى حياة الاستماع والطاعة المفرحة.

المراجع

الفصل الأوَّل

1. W. Stanley Mooneyham, What Do You Say to a Hungry World? (Waco: Word, 1975), p. 32.
2. Thomas Kelly, A Testament of Devotion (New York: Harper & Row, 1941), p. 124.
3. Pope John XXIII, Journal of a Soul, trans. Dorothy White (New York: McGraw-Hill, 1965), pp. 278–79.
4. Dietrich Bonhoeffer, Ethics, ed. Eberhard Bethge (New York: Macmillan, 1955), p. 68.
5. فرح الانضباط للمؤلِّف، من منشورات أوفير للطباعة والنشر.
توصف الانضباطات التي يُناقشها في ذلك الكتاب بأنَّها ''كلاسيكيَّة'' لا لأنَّها قديمة، بل لأنَّها مركزيَّة في المسيحيَّة المُعاشة. عندما كان كتاب ''فرح الانضباط'' يُعدُّ للنشر (في اللغة الإنكليزيَّة)، اقتُرِحَت عناوين فرعيَّة عدَّة، ولم أكن على علمٍ بالقرار النهائيّ. وحينما وصلني الغلاف الخارجيُّ للكتاب، امتعضت. كان العنوان الفرعيُّ ''سُبُل النموِّ الروحيّ''، فكان هذا قد أغفل نقطةً محوريَّة: ليستِ الانضباطات الروحيَّة ''سُبُلًا'' مستقلَّة، وكأنَّ المرء يُمكنه مُمارسة إحداها دون الأُخرى. إنَّما هي وحدة واحدة، مثل ثمر الروح: لا ''ثمار'' الروح، بل ''ثمر'' الروح، ولا ''سُبُل''، بل ''سبيل''. وقد دفعني هذا لأكتُب طالبًا أن تُغيَّر صيغة الجمع إلى صيغة المفرد، وقد وافق الناشر للكتاب بالإنكليزيَّة على هذا برحابة صدر.
6. François Fénelon, Christian Perfection (New York: Harper & Brothers, 1947), p. 194.
7. Quoted in François Fénelon, Christian Perfection, p. 194.

الفصل الثاني

1. See the article "The OT Term ——— in Theological Dictionary of the New Testament (Grand Rapids: Eerdmans, 1975). Expanded information on the use of mishpat in the Old Testament can be found in this excellent article.
2. لدراسة موسَّعة لكلمة شالوم ومعناها في سياق البساطة المسيحيَّة، راجع الآتي:
Howard Macy, The Shalom of God (Richmond: Friends United Press, 1973).
John V. Taylor, Enough Is Enough (Minneapolis: Augsburg, 1977).
Richard K. Taylor, Economics and the Gospel (Philadelphia: United Church Press, 1973).
3. John V. Taylor, Enough Is Enough, p. 42.

الفصل الثالث

1. إنَّني مدينٌ إلى دالاس وِيلارد من جامعة ساذرن كاليفورنيا (University of Southern California) من أجل الأفكار الثاقبة عن متَّى ٦، والتي منحني إيَّاها بحياته وتعليمه معًا.
2. النقاشات التي تدور حول معنى هذا التعبير معقَّدة إلى حدٍّ ما. يُمكنك أن تجد خلاصة ممتازة للمسألة في أُطروحة الدكتوراه غير المنشورة الآتية:
Carol Schaefer, A Study in the Exegesis of Matt. 6:22 Through an Analysis of Haplous (Providence: Brown University, 1963).

هناك أيضًا تفسيرٌ مُفصَّل ممتاز للأعداد في متَّى ٦: ٢٢-٢٤ في المرجع الآتي:
Mark Silliman, The Dark Amen Versus the Light AMEN (Wichita: Friends University, 1980).

أمَّا استخدامي للنصِّ، فيتبع ما قدَّمه جون وسلي الذي شعر بأنَّ ''هاپلوس'' تُشير إلى هدف واحد للحياة، وهو الله. وقد استخدم وسلي النصَّ ليُدافع عن أمجاد العيش ببساطة وفقر مع الله، بدل الغنى والابتعاد عن الله.
3. Dallas Willard, in a lecture on the Sermon on the Mount, Spring 1874, Woodlake Avenue Friends Church, Canoga Park, California.
4. Martin Hengel, Property and Riches in the Early Church (Philadelphia: Fortress Press, 1973), p. 27.

الفصل الرابع

1. Quoted in D. Elton Trueblood, The Best of Elton Trueblood: An Anthology, ed. James R. Newby (Nashville: Benson, 1979), p. 70.

2. John Woolman, The Journal of John Woolman (Secaucus: Citadel Press, 1971), p. 41.
3. Quoted in Martin Hengel, Property and Riches in the Early Church, p. 45.
4. Tertullian, “The Apology of Tertullian,” in Alexander Roberts and James Donaldson, eds., The Ante-Nicene Fathers, 8 vols. (Buffalo: Christian Literature, 1887), 3:46.
5. “The Teaching of the Twelve Apostles,” in Roberts and Donaldson, The Ante-Nicene Fathers, 7:378.
6. Eusebius, The Ecclesiastical History, trans. Christian Frederick Cruse, reprint ed. (Grand Rapids: Baker Book House, 1958), bk. 4, chap. 23, p. 160.
7. “The First Epistle of Clement to the Corinthians,” in Roberts and Donaldson, The Ante-Nicene Fathers, 1:15.
8. “Epistle of Clement to James,” in Roberts and Donaldson, The Ante-Nicene Fathers, 8:220.
9. Quoted in Quotations from Chairman Jesus, ed. David Kirk (Springfield: Templegate, 1969), p. 175.
10. “The First Apology of Justin Martyr,” in Roberts and Donaldson, The Ante-Nicene Fathers, 1:186.
11. “The First Apology of Justin Martyr,” in Roberts and Donaldson, The Ante-Nicene Fathers, 1:42–43.
12. Quoted by Henri Nouwen in “The Desert Counsel to Flee the World,” Sojourners 9 (June 1980): 15.
13. Helen Waddell, trans., The Desert Fathers (Ann Arbor: Univ. of Michigan Press, 1957), p. 85.
14. Quoted by Henri Nouwen in “Silence, the Portable Cell,” Sojourners 9 (July 1980): 22.
15. Waddell, The Desert Fathers, p. 123.
16. Waddell, The Desert Fathers, p. 112.
17. Paul Sabatier, Life of St. Francis of Assisi (New York: Charles Scribner’s Sons, 1894), p. 83.
18. Sabatier, Life of St. Francis of Assisi, p. 114.
19. Sabatier, Life of St. Francis of Assisi, p. 307.
20. Raphael Brown, trans., The Little Flowers of St. Francis (Garden City: Doubleday, 1958), p. 68.
21. Brown, The Little Flowers, pp. 81–82.
22. Brown, The Little Flowers, pp. 58–60.
23. Theodore G. Tappert, ed., Selected Writings of Martin Luther: 1520–1523 (Philadelphia: Fortress Press, 1967), p. 20.
24. Tappert, ed., Selected Writings of Martin Luther, p. 43.
25. Tappert, ed., Selected Writings of Martin Luther, p. 47.
26. John Calvin, Commentaries on the Epistle of Paul the Apostle to the Romans (Grand Rapids: Eerdmans, 1947), p. 481.
27. George Fox, The Journal of George Fox (London: Cambridge Univ. Press, 1952), p. 11.
28. Quoted in Lewis Benson, A Revolutionary Gospel (Philadelphia: Tract Association of Friends, 1974), p. 9.

29. William Penn, No Cross, No Crown (London: Barrett, 1857), p. 251.
30. George Fox, Works of George Fox, reprint ed. (Philadelphia: Gould, 1831), 4:194.
31. Hugh Barbour and Arthur Roberts, eds., Early Quaker Writings (Grand Rapids: Eerdmans, 1973), p. 115.
32. Taken from the bulletin of the First Centenary United Methodist Church, Chattanooga, Tennessee, June 29, 1980, p. 1.
33. John Wesley, The Journal of John Wesley, ed. Percy Livingstone Parker (Chicago: Moody Press, 1951), p. 409.
34. Francis Asbury, The Journal of Francis Asbury (London: Epworth Press, 1958), 1:4.
35. Howard Taylor, Hudson Taylor's Spiritual Secret (Chicago: Moody Press, 1932), p. 26.
36. Kenneth Scott Latourette, A History of Christianity (New York: Harper & Brothers, 1953), p. 1186.
37. J. H. Worcester, The Life of David Livingstone (Chicago: Moody Press, n.d.), p. 75.
38. Worcester, The Life of David Livingstone, p. 100.
39. For more information see Dallas Lee, The Cotton Patch Evidence (New York: Harper & Row, 1971).
40. Girolamo Savonarola, De Simplicitate Christianae Vitae (Rome: Angelo Belardetti Editore Roma, n.d.), p. 188.
للأسف، لم يُترجَم ذلك الكتاب إلى الإنكليزيَّة، لذا فإنَّني مدينٌ للأب لورانس أف. فرانكوفيتش (Father Lawrence F. Frankovich) على مساعدته في ترجمة مقاطع مهمَّة منه.
41. Savonarola, De Simplicitate Christianae Vitae, pp. 64–65.
42. Søren Kierkegaard, Purity of Heart Is to Will One Thing (New York: Harper & Brothers, 1938), p. 27.
43. Kierkegaard, Purity of Heart Is to Will One Thing, p. 29.
44. Woolman, The Journal of John Woolman, p. 41.
45. Woolman, The Journal of John Woolman, p. 168.
46. Woolman, The Journal of John Woolman, p. 231.
47. Quoted in Goldian VanderBroeck, ed., Less Is More (New York: Harper & Row, 1978), p. 223.

الفصل الخامس

1. J. R. R. Tolkien, The Silmarillion (New York: Allen & Unwin, 1977), p. 8.
2. Kelly, A Testament of Devotion, p. 115.
3. Kelly, A Testament of Devotion, p. 115.
4. Kelly, A Testament of Devotion, pp. 115–16.
5. Quoted in Francis Florand, Stages of Simplicity (St. Louis: Herder, 1967), p. 147.

6. إنَّني مدين لتوماس كيلي من أجل مفهوم الذوات الداخليَّة المتعدِّدة. انظر:
A Testament of Devotion, pp. 114–15.
7. Frank Laubach, Learning the Vocabulary of God (Nashville: Upper Room, 1956).
8. Laubach, Learning the Vocabulary of God, p. 23.
9. Brother Lawrence (Nicholas Herman of Lorraine), The Practice of the Presence of God (Philadelphia: Judson Press, n.d.), p. 26.
10. Meister Eckhart, Meister Eckhart, trans. C. de B. Evans (London: Watkins, 1956), 1:59.
11. Quoted in Frank C. Laubach, Christ Liveth in Me and Games with Minutes, in one vol. (Westwood, NJ: Revell, 1961), p. 61.
12. Kelly, A Testament of Devotion, p. 124.
13. Blaise Pascal, Pensées, trans. W. F. Trotter, The Modern Library (New York: Random House, 1941), p. 74.
14. Wayne E. Oates, Nurturing Silence in a Noisy Heart (Garden City: Doubleday, 1979), p. 3.
15. Frank C. Laubach, Open Windows, Swinging Doors (Glendale: Gospel Light Publications, 1955), pp. 34–35.
16. Fénelon, Christian Perfection, p. 204.

الفصل السادس

1. T. S. Eliot, The Four Quartets (New York: Harcourt, Brace & World, 1943), p. 39.
2. Quoted in Kelly, A Testament of Devotion, p. 52.
3. Fénelon, Christian Perfection, p. 196.
4. Fénelon, Christian Perfection, p. 196.
5. Fénelon, Christian Perfection, p. 194.
6. Fénelon, Christian Perfection, p. 194.
7. Brother Lawrence, The Practice of the Presence of God, p. 39.
8. Fénelon, Christian Perfection, p. 196.
9. Fénelon, Christian Perfection, pp. 198–99.
10. Fénelon, Christian Perfection, p. 201.
11. Fénelon, Christian Perfection, p. 203.
12. Fénelon, Christian Perfection, p. 204.
13. Fénelon, Christian Perfection, p. 197.
14. Julian of Norwich, Showings (New York: Paulist Press, 1978), p. 205.
15. Blaise Pascal, Love Aflame: Selections from the Writings of Blaise Pascal (Wilmore: Asbury Theological Seminary, 1974), p. 3.
16. Kelly, A Testament of Devotion, p. 69.

17. Søren Kierkegaard, Christian Discourses, trans. Walter Lowie (Oxford: Oxford Univ. Press, 1940), p. 322.

18. مأخوذ من رسالة كتبتها إلى السيناتور الأميركيِّ مارك هاتفيلد (Mark Hatfield) ردًّا على رسالة تهنئته لها على نوال جائزة نوبل للسلام. وقد نُشرت في المرجع الآتي:

Major Addresses Delivered at the Conference on Faith and Learning (North Newton: Bethel College, 1980), pp. 85–86.

الفصل السابع

1. من الكتب التي تُساعد في هذا بصورة خاصَّة الآتي:

   George Fooshee, You Can Be Financially Free (Old Tappan, NJ: Revell, 1976).
2. Catherine de Hueck Doherty, Poustinia: Christian Spirituality of the East for Western Man (Notre Dame: Ave Maria Press, 1974), p. 216.
3. Quoted in VanderBroeck, Less Is More, p. 26.
4. Richard E. Byrd, Alone (New York: Putnam's Sons, 1938), p. 19.
5. John Wesley, "Nv. 1767," The Journal of the Reverend John Wesley (London: Epworth Press, 1938).
6. Quoted in VanderBroeck, Less Is More, p. 21.

الفصل الثامن

1. Adam Daniel Finnerty, No More Plastic Jesus (New York: Dutton, 1978), p. 17.
2. John Stott, Lausanne Occasional Papers, no. 3: The Lausanne Covenant—An Exposition and Commentary (Wheaton: Lausanne Committee for World Evangelism, 1975), p. 21.
3. Floyd and Norma Souders, Friends University: 1898–1973 (North Newton, KS: Mennonite Press, 1974), p. 11.
4. Quoted in John Mitchell, Enough Is as Good as a Feast (an offset from Third Way magazine, London, England, 1979), p. 1.
5. Elizabeth O'Connor, Letters to Scattered Pilgrims (San Francisco: Harper & Row, 1979), p. 5.
6. O'Connor, Letters to Scattered Pilgrims, pp. 6–7.
7. Mooneyham, What Do You Say to a Hungry World? p. 76.
8. Woolman, The Journal of John Woolman, p. 18.
9. Woolman, The Journal of John Woolman, p. 18.
10. Thomas Merton, The Sign of Jonas (New York: Harcourt, Brace, 1953), p. 261.
11. Jacques Ellul, Violence: Reflections from a Christian Perspective (New York: Seabury Press, 1969), p. 151.
12. Ellul, Violence, p. 155.
13. Kierkegaard, Christian Discourses, p. 344.
14. Quoted in VanderBroeck, Less Is More, p. 70.
15. Quoted in VanderBroeck, Less Is More, p. 127.

الفصل التاسع

1. Quoted in Post-American 1 (Summer 1972): 1.
2. Douglas V. Steere, ed., Selections from the Writings of Bernard of Clairvaux (Nashville: Upper Room, 1961), p. 6.
3. Quoted by Leland Ryken in "The Puritan Work Ethic: The Dignity of Life's Labors," in Christianity Today, Oct. 19,

1979, p. 17.
4. Lee, The Cotton Patch Evidence, pp. 86–87.
5. This illustration was suggested to me by Kara Cole in The Church—Every Person a Minister (Dublin: Prinit Press, 1980), pp. 11–13.

الفصل العاشر

1. Adam Smith, An Inquiry into the Nature and Causes of the Wealth of Nations (New York: Random House, 1937), p. 421.
2. Christa Hartsook, "United States Energy Industry Overview" (Ames, IA: Agricultural Marketing Resource Center, Iowa State Univ., Apr. 2004), p. 3.
3. Blaise Pascal, Pensées (New York: Penguin, 1966), p. 67.
4. Dietrich Bonhoeffer, Letters and Papers from Prison (New York: Macmillan, 1971), p. 12.
5. St. Augustine, The City of God (New York: Random House, 1950), bk. 22, chap. 30, p. 867.
6. E. F. Schumacher, Small Is Beautiful: Economics As If People Mattered (New York: Harper & Row, 1973), pp. 293–301.
7. Edward O. Guthman and C. Richard Allen, eds., RFK: Collected Speeches (New York: Penguin, 1993), pp. 243–44.
8. Herman E. Daly and John B. Cobb Jr., For the Common Good: Redirecting the Economy Toward Community, the Environment, and a Sustainable Future (Boston: Beacon Press, 1989), p. 64.



د. ريتشارد فوستر

نال شهادته من كلِّيَّة لاهوت فولر، في الولايات المتَّحدة الأميركيَّة. وقد حاز دكتوراه فخريَّة من جامعة جورج فوكس في الولايات المتَّحدة الأميركيَّة، ودكتوراه فخريَّة في الأدب الدينيِّ من كُلِّيَّة ويكليف في تورونتو، كندا.

كان ريتشارد راعيًا للشباب، وراعيًا متفرِّغًا على مدى سنوات، وقد شغل أيضًا منصب مُحاضِرٍ في عدد من الكلِّيَّات والجامعات.

ريتشارد هو مؤسِّس حركة رينوڤاريه (Renovaré) داخل الكنائس، وهي حركة تسعى إلى التجديد الروحيِّ في حياة المسيحيِّ وفي الكنائس.

ألَّف ريتشارد كتبًا عدَّة من الأكثر مبيعًا، منها ''فرح الانضباط'' *(Celebration of Discipline)* من منشورات أوفير للطباعة والنشر.



فرح الانضباط

ما يزال فرح الانضباط، منذ طبعته الأُولى في ١٩٧٨م، معينًا لملايين الطالبين على اكتشاف حياةٍ روحيَّة أغنى، مِلؤها الفَرَح والسلام وفهمٌ أوفى لله. لقيَ الكتابُ ترحيبًا من كثيرين بوصفه أفضلَ كتابٍ حديث في موضوع الروحانيَّة المسيحيَّة، ووصفته مجلَّة ''المسيحيَّة اليوم'' (Christianity Today) بأنَّه واحدٌ من أفضل عشرة كُتب في القرن العشرين. وهو يسبر أغوار ''الانضِباطات'' الكلاسيكيَّة في الإيمان المسيحيّ، أيِ المُمارسات الروحيَّة الأساسيَّة فيه. فطُولَ الطريق، يُبيِّن ريتشارد فوستر أنَّنا فقط بهذه الممارسات نستطيع أن نجدَ السبيلَ الحقيقيَّ إلى النموِّ الروحيّ.

ويُقدِّم فوستر عددًا كبيرًا من الأمثلة التي تبيِّن كيف يمكن أن تصير الانضباطاتُ جزءًا من أنشطتنا اليوميَّة، وكيف يمكن أن تُساعِدَنا على نَبْذ عاداتنا السطحيَّة والإتيان بوفرة الله الغنيَّة إلى حياتنا. ويمدُّنا الكاتب بأفكار ثاقبةٍ جديدةٍ حاسمة، مُبيِّنًا كيف أنَّ مفهوم البساطة بحسب الكتاب المقدَّس، إذا ما أُدرِكَ وطُبِّق على النحو الصحيح، يُضفي فرحًا واتِّزانًا على حياتنا الداخليَّة والخارجيَّة، ويُحرِّرنا كي نتمتَّعَ بإمدادات الله حاسبين إيَّاها هبةً يمكن أن نُشرِكَ الآخرين فيها.